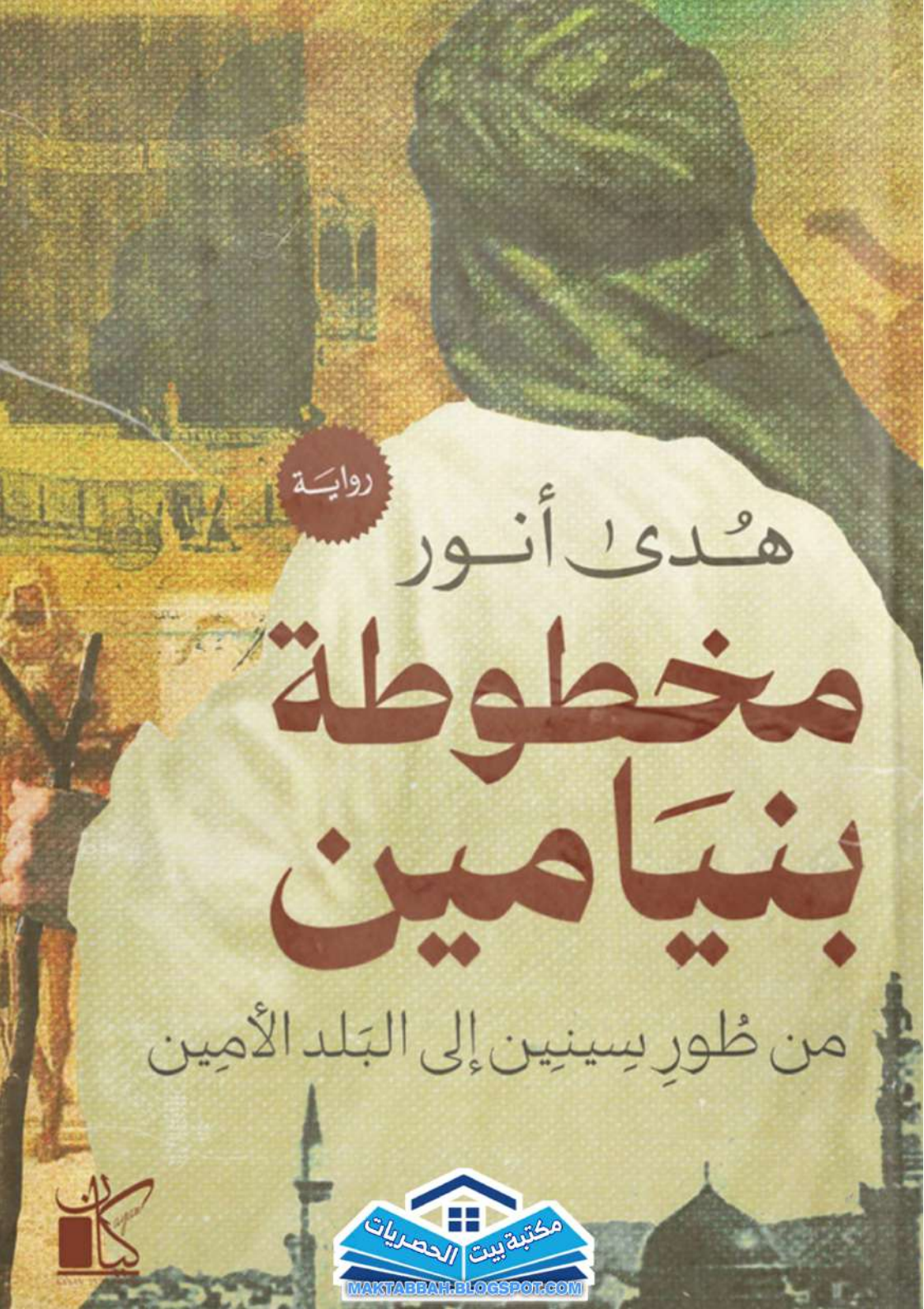

مكتبة بيت الحصريات
MAKTABBAH.BLOGSPOT.COM

أيا بنيامين، قد اختبأت في طيات القدر، لم يأتِ ذكرك إلا في عباءة يعقوب وبلاط يوسف، احتجبت كماسةٍ غير مصقولة في باطن الزمن، وكان كل شيء هو أمر الله، الظهور قدرٌ والخفاء قدرٌ، وأنت كان قدرك «الراوي المجهول»، تمتد نبتة قلمك عبر الأزمان، ويكتب أبناؤك وأحفادك حتى نهاية الزمان، لا يتركون الحبر والدواة حتى ينقر في الناقور.

خربة قمران عام 1947

كأي يوم آخر عادي، ولدت الشمس من جديد، تمحو الليل ولا تنفك تشرق، ولا يفعل مجتبى في اليوم الجديد إلا ما يفعله كل يوم، يزيل عن عينيه غبار النوم حين يؤذن لصلاة الفجر، ينضم إلى أبيه في الصلاة؛ لا يستطيع ألّا يفعل، لأنه يعلم عاقبة التهرب منها بالنوم. لا يزال يتذكر ذلك اليوم، قبل أن يكلفه أبوه بالمهمة الكبيرة.. أذن للفجر، هزته أمه كثيرًا لكي يستيقظ للصلاة مع أبيه، لكن النوم غلبه. كان الشتاء قد لفَّ الوادي، وترك الفراش الدافئ أصعب ما يكون على النفس، فكاد قلبه أن يتوقف حين هب من الفراش، بعدما صب عليه أبوه بعنف دفقةً لا بأس بها من الماء البارد.. ومنذ ذلك الحين لم يتخلف عن صلاة الفجر.

يوم جديد تعد له أمه الإفطار بعد الصلاة، ثم ترسله بعد أن تباركه بأدعية يسمع بعضها ولا يسمع البعض الآخر، بينما يفتح باب الحظيرة ويوجّه الغنم بعصاه يدفعها إلى بطن الوادي، يسير وراءها حينًا، وحينًا آخر يتقدم صفوفها ليدفع بها بعيدًا عن الطرق الوعرة المليئة بالأشواك، أو يمنع أحدها من الشتات خارج القطيع. كل شيء كما كان عليه بالأمس، ويبدو أنه سيكون كما هو بالغد السحيق، يسير مجتبى بلا هدف إلا إنهاء المهمة اليومية الموكّل بها من أبيه، «أن تأجرني ثماني حجج»، قال محمد التعامرة لابنه مجتبى حين أدرك سن البلوغ:

-الآن ترعى الشياه وحيدًا، لثمانية أعوام، ثم أتركك لأقدارك تفعل ما تشاء ويُفعل بك ما يشاء لك الله.»

قبل مجتبى، وهل كان له غير القبول، في هذا المكان النائي على أطراف صحراء تصل بين أرض أبيه وأرض الميعاد؟! أين كان سيذهب، وماذا كان يُرتجى من أمر حياته الغضة، لم يكن يعلم بعد. مرت سبعة أعوام بالتمام والكمال، لا يرافقه صديق ولا حبيب ولا حتى عدو، فالصبيان أصدقاؤه، يعملون بالدكاكين أو حمل السقاية إلى البيوت، أم هو فكان نصيبه الرعي في الوديان السحيقة.

ذلك اليوم، أكان عاديًا ككل يوم؟

سار مجتبى منبسط الأسارير مشدود الجسد يباشر عمله. أهم الأعمال ألّا تشرد شاة عن القطيع، فتُجرَح أو تسقط من مكان عالٍ، فيفقد أبوه جزءًا من رأسماله. إلا أنه في هذا اليوم، وللمرة الأولى منذ ست سنوات، حدث ما لا تحمد عقباه.

«سبعة ثمانية تسعة عشرة.....»

أحصى مجتبى الشياه ليجدها إحدى عشرة شاة فقط، وإذًا قد شردت إحداها، ماذا يفعل

الآن؟! مسح بعينيه الفضاء الواسع، فلم يجدها، أرسل بصره إلى الكهوف الممتدة في الأفق، وتجلى في فراغ الصمت ثغاءٌ وصل إلى أذنه. دفع مجتبى بالقطيع في اتجاه الصوت، الذي أخذ يتضح شيئا فشيئا كلما اقترب، ولكن عندما وصل إليه لم يجد شيئا، وصمتت الشاة، وصمت كل شيء!

«فكر يا مجتبى فكر شوي، ايش راح نسوي...»

التقط مجتبى حجرًا من الأرض، وطوّحه إلى أعلى حيث الكهوف المتراصة جنبًا إلى جنب.. ارتطم الحجر بجدار أحد الكهوف ولم يصدر للشاة أي صوت. التقط حجرا آخر، وأعاد الكرة.. لا شيء. في المرة الثالثة، استجمع كل قوته في ساعده، وألقى بالحجر بقوة، ناظرًا إلى أعلى، لا يخفض رأسه، يظن أنه حين يعيد الكرة مرة أخرى ستظهر الشاة. ولكن ما حدث كان غريبًا.. رأى جرّةً تسقط إلى أسفل بسرعة شديدة، فانتبه وابتعد في سرعة البرق عن مكان سقوطها، الذي أحدث دويًا على الأرض الصخرية.

مذهولًا اقترب مجتبى من الجرة.. التفت يمينا ويسارا، ونظر مليًا في الأفق البعيد ليتأكد أن أحدًا لا يراه، وفكرة واحدة تراود ذهنه: أيعقل أن يكون هذا هو الكنز، الذي تناقلت الألسنة أخباره همسًا، حتى إن أصحابه كانوا يمزحون بسيرته أحيانا، وأحيانا يتحدثون بجدية قائلين:

-«لنذهب ونبحث عن الكنز المخبأ في الكهوف...»

ويدفعهم مجتبى بقول أمه:

-«الكهوف مسكونة.. راح تواجهون العفاريت..»

فيضحك الجميع ويعودون لأحاديثهم المعتادة...

تعالت دقات قلبه بينما دنا من الجرة، التي تحطمت إلى أشلاء متناثرة من الفخار، وسقطت من داخلها لفافةٌ لم يميز ما بداخلها. التقط مجتبى اللفافة راجيًا شيئًا ذا قيمة، يخرج به إلى النعيم، بعد سنوات القحط التي بدأ بها شبابه.. بدأ في فتحها.. قطعة جلدية، تليها لفة من قماش بالٍ يوشك على الاهتراء، وبداخله كانت خيبة الأمل، أوراق كُتبت بلغةٍ لا يفهمها، بل إنه يعلم أنها حتى لو كتبت بالعربية فلن يفهم، فلم تكن مدرسته إلا تلك الوديان والصحاري، حيث لم يتعلم الأحرف، لا الأعجمية ولا العربية، ولم يتعلم شيئًا إلا السير في خط مستقيم، وأحيانا في خطوط متعرجة، حسب الحاجة.

ألقى مجتبى الأوراق على الأرض مخذولًا، وكاد أن يسير بعيدًا بقطيعه، إلا أنه سمع صوت

الشاة من أعلى، فاستدار ملهوفًا ليدركها قبل أن تسقط، وبينما نظر إلى أعلى.. لم تكن الشاه وحيدة!

هناك رجل، لا يبدو من ملابسه أنه من أهل الوادي، وقف ينظر إليه من أعلى، بينما ربتت يده على رأس الشاة، ثم ناداه بلهجة مصرية:

-«إديني المخطوطة وتعالى خد العنزة....»

الدرب الأحمر

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي)

الفجر - 27

مكتبة بيت الحصريات
MAKTABBAH.BLOGSPOT.COM

صدح الشيخ بالآيات الكِرام، فاهتزت الجدران من طبقات صوته الأجش، ونكست الرؤوس في خشوع وحزن. لقد ذهب «الأستاذ»، رحل عن العالم بعدما اتخذ لقبًا لا يمكن لأحد غيره أن يأخذه في مثل هذه المنطقة من مناطق مصر الشعبية الأصيلة.

كمال الإكيابي، أبي، لكَم اختلفنا واتفقنا، ولكَم افترقنا واجتمعنا.. لم يكن الابن مثل الأب، أو هكذا كان دائما يشعرني الأستاذ. كان يُبعدني عن عمله، فأقاوم قليلًا، ثم أغضب وأبتعد ويطول البعد، ثم أعود للقائه بقلب يشوبه بعضٌ من الأسى وعينين لائمتين، إلا أنه يتجاهل لومي المستتر ويغض البصر عن أسى قلبي، يقسو فلا ألين، وحين يلين أكون قد أصبحت مثل قشرة الجوز القاسية، فلا أعود أدراجي، ولا تصفو الأجواء.

قارب على المائة، وكنت لا أدري ما سر عمره الطويل، لكن ربما هي بركات الأرواح التي كان يُنقذها من مصائر كارثية محققة تحوم حوله، فيطول عمره وتُطرح فيه البركات.

في هذا البيت، حدث كل شيء وطالت أعمارنا. تركت الحي القديم ومكثت في حي أرقى، ولم يبرح أبي. اهتزت الجدران القديمة، وأتى أفراد الحي مرارًا وتكرارًا محذرين من أن البيت آلٌ للسقوط، لكنه أبدًا لم يسقط؛ كان أبي يقول: «إن سقطت أنا يسقط البيت.». كان رجلًا عنيدًا، وورثت منه العناد والإصرار على بلوغ ما تهواه نفسي.

بدأ المعزُّون في التناقص شيئا فشيئا، حتى لم يعد هناك أحد إلا عايدة، زوجتي السابقة، أبصرتها بطرف عيني وهي تسير نحوي، بينما وقفت منخرطا في أفكاري، عند النافذة القديمة التي تطل على حي المغربلين. تمنيت أن ينتهي الأمر سريعا، فلم أكن في حال يسمح بالجدال ولا التنمر المستتر الذي اعتادت عليه معي منذ أن انفصلنا.

-«البقاء لله يا خالد، سنذهب الآن أنا والأولاد، أخبرني إن احتجت لشيء....»

كانت هذه ألطف كلمات سمعتها منها منذ سنوات طويلة. عايدة كانت قريبة جدا إلى قلب أبي، كانت تخبرني مباشرة ودون مواراة - في أي شجار بيننا - أنها تمنت لو تزوجت رجلًا مثل أبي.

-«لا أدري لماذا لم تستطع أن تكون مثل أبيك....؟»

منافسة غير شريفة على الإطلاق، أن تضعك امرأة في موقف مبارزة مع أبيك، تشعرك أنه أفضل، وأنك لم تبلغ الكمال مثله، ولم تبلغ أي شيء على الإطلاق.

دنوت من ولداي محيطًا إياهما بكلتا ذراعاي ومقبلًا رأسيهما:

-«ماتزعلوش، جدو في مكان أحسن كتير»

هزت رولا ذات الخمسة عشر ربيعا رأسها باستسلام، والتصق بي زياد الصغير أكثر.. دفن رأسه في ملابسي، وفرت من عينيه دمعتان ساخنتان اخترقتا ملابسي وأحسست بهما على جلد يدي.

الليلة الأولى ربما ستكون الأصعب، الآن رحل الجميع وبقيت أنا هنا. لسبب ما لا أعود إلى بيتي في المعادي، وأنا الذي لا يطيق بيات ليلة واحدة في هذا البيت القديم. عدت إلى وقفتي الأولى عند النافذة، نافذة أبي، وها هو كرسيه في مواجهة النافذة تماما، يفتحها على مصراعيها ليدخل النور ويجلس ليقرأ جريدة أو كتابًا. اشتكى في السنوات الأخيرة أنه لم يعد يجد الكثير من الجرائد الورقية، أقول له:

«لقد أصبحنا يا أبي فى عصر إلكتروني...» ، فينظر إليّ شذرًا قائلًا بقلة صبر وأسى: «وماذا عن رائحة الحبر على الجرائد؟ لقد أصبحتم فى عصر خسران وليس إلكترونيًا...»

من الكوة الكبيرة، أرى ما لم أره من قبل، لمَّا جلست في جلسة أبي. كنت أجلس إلى جانبه فلا تتسنى لي رؤية المآذن الصغيرة والكبيرة، التي بدت من الشباك كلوحة فنية عتيقة. واحدة من أكثر هذه المآذن لفتًا للانتباه مئذنة مسجد الدعاء، المطفأة أنوارها، والتي كنت أستطيع أن أراها فقط حين يشير أبي إليها قائلا لي:

-«يوجد سر فى هذا المسجد يا خالد...»

-«وما هو السر يا أبي...»؟

-«الله أعلم يا بُني، لكن الأسرار تتكشف مع الوقت...»

تأملتها كثيرًا محاولًا إلهاء نفسي عن النار التي أُوقِدت في قلبي برحيله، والإحساس الهائل بالذنب يعتريني، لأنني دومًا لم أكن على وفاق معه.. أردت أن أكون مثله تماما، فاختلفت معه لكي يضمني إليه ويطبع عليّ بطابعه، فلم يفعل، وكلما أردت أن أفعل مثله جافاني ونهرني، حتى إنه بعد أن حصلت على شهادة الثانوية العامة أردت أن أدرس التاريخ والآثار فامتعض، فسألته في استغراب:

-«أعرف أن كل أب يريد لابنه أن يكون مثله أو أحسن منه، وأنت عالم آثار، لماذا لا تريد أن أكون مثلك...»؟

صمت ولم يجب، لا في حينها ولا بعدها أبدا، وتركني في حيرة لم تنتهِ بتقدُّم سنوات العمر، ولم تنتهِ برحيله.

وكأني أرى صورته واضحة جلية الآن، وشريط من ذكريات العمر يدور في رأسي، وتدور رأسي فتثقل جفوني، وأغفو على كرسي الإكيابي، فيتلاشى جرح الفراق وتهدأ فورات الندم. وحين باغتني نور النهار، وعدت من موتتي الصغرى شيئا فشيئا، عاودني الألم ووجدتني أترنم باسمه، والذكريات تعود لتتزاحم في رأسي ذكرى تلو أخرى.

لا أتذكر الكثير عن أمي، كانت خيالًا من الماضي، شبحًا ظهر ثم اختفى، يقول أبي سافرت وماتت في بلاد الغربة، ولا يتحدث بأي شيء بعد ذلك. على مكتبه صورةٌ لها بالأبيض والأسود، وحين كنت أسأل ما لون شعرها يصمت، أو لماذا سافرت يتظاهر بالانشغال، وأنا لم ألح كثيرا، فقد أصابني القنوط من فكرة احتياجي لأم، وكبرت ولم أعد أحتاج لا له ولا لها، وتنامت في رأسي كل الاحتمالات الممكنة: هل تشاجر أبي مع أمي؟ هل انفصلا مثلي أنا وعايدة؟ من كان الطرف السيء من بينهما؟.. حين قررت الانفصال عن عايدة، لم أعرف حقا من هو الطرف السيء. بالطبع لمتها كثيرا جهزا وسرًا، ألقيت عليها المسئولية والأحمال وتبعات أفعالها التي أدت إلى طلاقنا، فهل يا ترى أشبه أنا أبي، وهل فعلت مثل ما فعل في زيجته التي أثمرت عن وجودي؟ تؤلمني الذكريات والتساؤلات التي لا توجد إجابة لها، أكثر مما يؤلمني رأسي.

في صبيحة هذا اليوم، دق جرس الباب، وظهر وجه فتاة جميلة في أواخر العشرينات من كوة الباب الخشبي ذي الأعمدة الحديدية، المصممة بتصميم قديم يعود إلى أوائل القرن. أغلقت الشزاعة لأفتح الباب، عدلت من شعري في حركة لا إرادية بينما أفتح لها.. تسمرت لثوانٍ أنظر إليها باستغراب وتساؤل، قرأته هي في عيناي سريعا، فبادرت قائلة:

-«أستاذ خالد الإكيابي، البقاء لله، أنا سليمة المعاونة الشخصية لوالدك رحمة الله عليه.»

قلت لها بعد برهة من الصمت:

-«أهلا بك يا سليمة، هل كنت موجودة بالعزاء بالأمس؟»

-«نعم، لكني لم أرك، كنت في الشقة مع السيدات.»

أشرت لها بعد تردد بأن تتفضل إلى الداخل.. لم أكن أعلم ما المناسب، هل أدعوها لتدخل،

أم أنه أمر غير مناسب أن نكون وحدنا في هذا البيت، في هذه المنطقة الشعبية المحافظة. لم تتردد بالدخول، قالت وهي تسير نحو غرفة المكتب بأريحية مَن تعرف المكان جيدًا:

«لقد تواجدت هنا كثيرًا مع أبيك بحكم عملي معه»

جلست سليمة على أحد الكرسيين المواجهين لمكتب أبي، وجلست أنا على الآخر مواجهًا لها. نظرت لها نظرة بلا معنى، لم أكن قد أفقت بعد من نومي، ولم أحتس قهوتي، وأنا بطبعي شخص لا يمكن الحديث معه إلا بعد عدة ساعات من استيقاظه من النوم. نظرت إليّ سليمة قائلة:

«هل تناولت إفطارك وقهوتك بعد»؟

أومأت لها بأن لا ليس بعد، فنهضت من كرسيها متجهة إلى المطبخ قائلة:

«سأحضر لك الإفطار، قهوتك إيه...»

أجبتها كمنوم مغناطيسي مجذوب بلا إرادة:

-«مانو من فضلك...»

تعجبت منها كثيرًا، ومن نفسي، لماذا لم أسألها الكثير من الأسئلة التحقيقية كعادتي، ولماذا تركتها تدخل إلى المطبخ، وأخبرتها عن سكر قهوتي كأني أعرفها منذ عشرات السنوات! بدت لي مألوفة، إلى حد الإذعان والتسليم لها في أول مقابلة، أو لربما لعب أثر الموت برأسي، فصرت كمن سكِر بالأمس واستيقظ على آثار الشراب يبحث عن قشة تعيده إلى رشده، فكانت سليمة هي القشة. كنت أحتاج إلى أي إنسان يطرق على بابي لـ«يأخذ بحسّي»، كما يقولون في لغتنا الدارجة. أحس باليتم كثيرًا، ولو أنهم حدّثوك عن تعريف اليتم لألف عام قادم، وقالوا إن اليتيم من مات أبوه وهو صغير، وأن من مات أبوه وهو كبير هذا ليس يتيمًا، فإني أرد عليهم بالحجة البالغة وأخبرهم عن توصيف اليتم أن تنقطع عن روحٍ أتت بك إلى الحياة.. لم يعد من الممكن أن تذهب إليها، ولا أن تأتي لك متى شئتما، ولم يعد بالإمكان ترميم ما قد كان ولا إصلاح ما صار.. اليتم هو أن تشعر بكل ذرة من كيانك أنك أصبحت في لحظة فارقة، ودون اختيار منك «مقطوعًا من شجرة».

مازلت متسمّرًا في مكاني، حتى أتت إليّ بصينية عليها أصنافٌ مختلفة من الفول والجبن الأبيض وبعض الخضرة والخبز البلدي، وعلى جانب الصينية فنجان القهوة. نظرت إلى الصينية قائلًا:

«ما هذا كله»؟

امتدت يدي إلى فنجان القهوة، فبادرت سليمة بالقول:

«القهوة على معدة خالية غير صحية، تناول إفطارك أولًا.»

«لم أعتد على هذا، دائما ما أتناول قهوتي أول شيء في الصباح، ولكن...»

ناولتني سليمة أحد الأرغفة، وراقبتني وأنا أتناول لقيمات بسيطة. دعوتها لتشاركني الطعام، فردت مبتسمة:

«لقد تناولت إفطاري منذ الصباح الباكر، أنا أبدأ يومي مع أول خيط للفجر يا أستاذ خالد.»

نظرت بتلقائية إلى الساعة على الحائط، كانت قد قاربت الواحدة ظهرًا..

«يبدو أني قد نمت كثيرًا!»

«لقد تعبت كثيرًا بالأمس، لم يكن يوما سهلًا، أعلم؛ كان يوما عصيبًا علي أنا أيضا.»

انتهيت من طعامي،، نفضت يدي ببعضهما البعض، والتقطت فنجان القهوة ناظرًا. ارتشفت رشفة، ووجهت بصري إليها سائلًا متسائلًا: «من أنتِ؟»

ها أنا ذا قد أتيت متأخرًا في كل شيء، كما أفعل دائما.. لم يكن لسؤالي معنى بعد الآن، كان يجب أن يكون لي رد فعل سريع منذ الوهلة الأولى، منذ أن خطت الخطوة الأولى داخل البيت، أن أسأل قبل أن تحضر لي الفطور والقهوة، لكن، على أيه حال، أن تأتي متأخرًا خير من ألّا تأتي أبدًا...

أحست سليمة بشيء من الإحراج، سكتت لبرهة كأن السؤال باغتها ولم تدرِ ماذا تقول. بعد لحظات من الصمت، قالت:

«لم تكن تأتي إلى هنا كثيرًا، فلن تعرفني، لكن الجميع هنا يعرفونني، الشيخ بركات، عم حسن البقال و....»

قاطعتها وقد بدت في عينيّ نظرات شك لم أستطع إخفاءها

«بأي صفة؟ هل كنت معاونة أبي فقط أم...؟»

قاطعتني بأدب حازم، وقد التقطت ما أنا على وشك قوله:

«أبوك كان مثل أبي، كان أستاذي ومعلمي، وربضت تحت قدميه كطالبة مجتهدة، ثم ككاتبة أعاونه في الكتابة، ومعاونة شخصية تعينه على أمور الحياة، خاصة ولم يكن هناك أحد يزوره من أهله.»

صمتت وأشاحت بوجهها عني، وكأنها قد ألقت لتوها عبئا كبيرًا من على كاهلها. صار الآن كلانا موصومًا بالندم والإحساس بالذنب على ما بدر منه، أما أنا فأسأت الظن سريعا ولم أختر كلماتي جيدًا، وأما هي -وبكل تهذيب- قد كالت لي الكيل كيلين، وأخبرتني ببساطة أني لم أكن ابنًا جيدًا لأب عظيم.

همت بالكلام، بينما هممت أنا أيضا بالحديث في نفس اللحظة، وتقاطعت كلماتنا «أنا بعتذر أني...»، «أنا آسف لو كنت...»، فاستغرقنا في ضحكة مباغتة يشوبها الحرج، ولمعت عيناها.. لحظة سرقتها من أيامي الغامقة الفرة كقهوتي.

دست سليمة يدها في حقيبتها لتخرج منها شيئا، فانتظرت وقد ذاب الجليد بيني وبين فتاة هي من رائحة أبي، أكاد أشم في ريحها ريح كمال الإكيابي.. الأستاذ.

أعطتني سليمة بكلتا يديها، في ثبات وروية، مفتاحا، وقالت لي:

«هذا مفتاح خزانة أبيك، لقد جمعت كل الأشياء المهمة وحفظتها هناك حين علمت بوفاته، قبل أن يأتي أهل الحي إلى البيت لتغسيله. احتفظ هو أيضا فيها ببعض الأشياء الأخرى، التي عاش من أجلها عمره كاملًا.»

دسّت المفتاح في راحة يدي، فتأملته مليًا ثم قبضت عليه، حين نهضت سليمة من كرسيها متوجهة إلى الخارج. استدارت نحوي قبل أن تخرج من الباب قائلة:

maktabbah.blogspot.com

«سأذهب الآن.. بالمناسبة، لقد أوكلني أبوك بمهمة.. يبدو أنه قد أورث مهامي لك من بعده، سأكون معاونتك الشخصية إن شئت. افتح الخزانة، وإن احتجت سأساعدك على فك شفرة ما ستجده هناك.. اتصل بي حين تكون مستعدا...»

عادت سليمة وتركت قصاصة مكتوب عليها رقم هاتفها الجوال، ثم توجهت نحو الباب، ذلك الذي طرق من طارق آخر، فهمّت هي بتلقائية لفتحه، إلا أني استأذنتها لأتقدم أنا لأرى من الطارق. على الباب كانت عايدة، رمقت كلينا، أنا وسليمة، بنظرات نارية، فاستأذنت سليمة وذهبت. لامتني عايدة وكأنها مازلت امرأتي؛ تعاملني هكذا منذ انفصالنا وكأننا لم ننفصل، كالت لي الاتهامات بأني أجلب النساء إلى بيت أبي الذي لم يبرد دمه في قبره. أما ماذا أرادت عايدة من هذه الزيارة غير المتوقعة، فكان بعضًا من المال للأولاد، قالت لي:

«لقد ورثت كثيرًا من أبيك، لا يمكنك الآن أن تتعلل بضيق الحال...»

تلك القاسية التي لا تملك شيئا من الرحمة في قلبها؛ قلت لها بحدة:

«وهل برد دم أبي في تربته بعد؟»

«لا، ولكن أخشى أن تبرد همتك أنت وتنسى أن لأولادك حقًا عليك.»

أرسلتها بعد معاناة وجهد جهيد مني لضبط نفسي وعدم الانفعال، وتنفست الصعداء حين ذهبت وأغلقت الباب وراءها. عدت إلى ذات الكرسي المواجه للنافذة، حاملًا ما تبقى من قهوتي المرة الباردة، لأجلس مع ألمي مرة أخرى، فلم يكتف أحدنا من الآخر بالأمس. لم أشأ الهروب مما أحس به، ذلك الوجع الذي يعتصر داخلي ويؤلم قلبي الخشن الملمس، ذلك الفقدان يكاد أن يصيبني بشيء من اللوثة في عقلي، أكاد أجن..«لا يمكن أن ترحل هكذا وبيننا حسابات لم تُغلق، وأسئلة لم تجب عليها بعد.. لا يمكن أن ترحل دون أن تخبرني لماذا لم تكن أبي، ولماذا لم تضمني بين ذراعيك..» تمتمت في حسرة. إن رحيل أحدهم دون إنهاء كل ما هو عالق معه يصيب الواحد بالإحساس بالعجز. ضممت قبضة يدي أفرغ فيها كل ما ألم بي من حزن يتبعه غضب، فآلمني جسد المفتاح الحديدي الذي مازال يرقد هناك لا أشعر بوجوده، وكأنه صار جزءًا مني، فلم أشعر حتى أني مازلت قابضًا عليه منذ اللحظة التي أعطتني سليمة إياه.

بسطت كفي، وتركته يرقد عليها كعصفور مريض.. تأملته طويلًا وألف خاطر يمر ببالي.. يحتاج الأمر إلى شجاعة بالغة، شجاعة النهوض والتوجه والفعل.. خشيت مما سأجده في الخزانة.. للمرة الأولى كنت وجلًا من تلقي الإجابات على أسئلتي وإغلاق دفتر الحسابات.. ولم أكن أعلم وأنا أسير نحو غرفة مكتب أبي أني استغرقت في نفسي كثيرًا، وأن الأمر كان أكبر منا جميعا!

دفتر الأسرار

صدور الحديد، هكذا كانوا يسمون الخزائن حتى عام 1820، هكذا قال لي أبي، حين أبصرت خزانته الحديدية الكبيرة ذات القفل المستدير، على شكل بكرة تحمل أرقامًا. لكل خزنة رقم سري، قال لي إن الخزائن كانت تُصنع من الخشب وتُربط باطواق حديدية كتلك المحفوظة في كاتدرائية شيشستر المصنوعة قبل ألف عام، لا أنسى نبرة صوته العميقة الجادة وهو يشرح لي الأمر قائلا:

-«الخِزن دى حكاية كبيرة.»

أخبرني عن خزانة قبو كنيسة والتي تتكون من شبكة أنفاق معقدة تحت رمال صحراء «نيو مكسيكو». خزانة يمكنها حتى أن تنجو من قنبلة هيدروجينية، بداخلها كتابات أصلية ومخطوطات محفوظة في خزائن مصنوعة من التيتانيوم... وأخبرني عن خزانة يوم القيامة، تلك التي ترقد في أحد الجبال الإسكندنافية على بعد نحو ألف ميل جنوب القطب الشمالي. خزانة تم إنشاؤها للحفاظ على الثورة الزراعية للأجيال القادمة، في حالة حدوث أي كوارث عالمية، الخزانة محصنة إلى الدرجة التي تجعلها تتحمل الهزات الأرضية العنيفة والكوارث النووية، أما بالنسبة للغرفة التي تضم بذور النباتات فهي محصنة بالحديد الفولاذي ومن المستحيل اختراقها، كما أنها تعد بيئة داخلية مثالية لبقاء البذور مهما حدث بالخارج، ويعتقد البعض أن البذور يمكنها البقاء بداخلها لمدة قرون!

maktabbah.blogspot.com

أتذكر الآن حين فتحت الدولاب الخشبي الذي ترقد به خزانة أبي الحديدية، أتذكر دهشتي وفضولي وانتباهي الشديد وهو يحكي لي، وأنا كنت في الرابعة عشر من عمري.. قلت له «لقد ظننت فقط أنهم يحفظون الأموال في الخِزن»، قال «وهذا أيضا، ولكن يا بني هناك ما هو أهم من الأموال، الأموال أوراق بلا معنى، نحن نعطي لها المعنى برغبتنا فيها للحصول على أشياء نحتاجها أو أشياء فقط نريدها ولا نحتاجها...»

maktabbah.blogspot.com

أفرغت محتويات الخزانة على المكتب، الكثير من القصاصات من جرائد قديمة..قصاصات ورقية مكتوبة بخط اليد، ولفة من القماش القديم يكاد يهترىء بين يداي، لا أدري ماذا بداخلها، ودفتر ذا غلاف أسود سميك، كتب عليه باللون الذهبي وبخط اليد «رحلة الحقيقة».

أضأت المصباح الكهربائي النحاس، على جانب المكتب المُعتم على الرغم من ضوء النهار بالخارج، فقد كانت الستائر لسبب ما لا تُفتح أبدا في مكتب أبي. .أزحت كل شيء على جانبي المكتب، جلست ووضعت الدفتر أمامي.. رحلة الحقيقة؛ ما هي الحقيقة؟ هل عرف

أبي حقيقة كل شيء؟ هل كانت هذه هي الرحلة التي جمعتنا أيامًا وفرّقتنا سنون طوال؟

فتحت الدفتر بأصابع مترددة مرتعشة، ورحتُ أقرأ....

***

مطار القاهرة - التاسع عشر من تموز لعام 1947

انتظرني أحمد الصفتي عند بوابة المطار الخارجية، ليرافقني حتى باب الطائرة. الصفتي كان أحد الموظفين في دائرة أبي، يكاد يكون ذراعه الأيمن والتنفيذي، شابًا في مقتبل العمر.. أكبر مني بعدة سنوات، إلا أننا كنا أصدقاء على الرغم من فارق السن. كنت شابًا صغيرًا آنذاك، تخرجت منذ أعوام قليلة من كلية الآثار بجامعة القاهرة. بعد التخرج، كانوا يوزعون البعثات، يرسلون مع كل بعثة تنقيب خريجي الدفعات الحديثة، للتدريب وإكمال التكليف العام داخل مصر وخارجها؛ البعض منا كان يتم إرساله إلى صعيد مصر، حيث زخم الكنوز وغموض المدفونات في باطن الأرض، التي يتوق الكثيرون إلى سبر أغوارها.. البعض الآخر يُرسل إلى الأسكندرية، ولفيف آخر كان يوزع في بعثات التنقيب عن الآثار في تعاون مع دول أخرى. أما أنا، فجاء تكليفي في بعثة التعاون بين مصر والأردن بإشراف أمريكي.

كان عامًا فارقًا في حياة هذا البلد، فمنذ أقل من عام انتهى الانتداب البريطاني على الأردن، وتم الإعلان عن قيام المملكة الأردنية الهاشمية وتكوين المجلس التشريعي. أما عن لماذا أُرسلت إلى هناك، فقد كانت واسطة وتدخلًا من أبي، لم أقاومها قط، ذلك لأني أردت أن أذهب إلى هناك، جذبني سِحر المدن المدفونة تحت الأرض في هذه المنطقة كصوت النداهة في حكايات الريف، كنت أحس أن هناك الكثير ما زال لم يتم اكتشافه. أما عن أبي، فقد كان آنذاك يعمل بمنصب مرموق بنظارة العدل، أراد أولًا أن تتم معاملتي معاملة خاصة، قال لي حينها:

-«هتسافر مع الناس دي جوة مصر هتتبهدل»

أراد أن أذهب إلى بلد عربي وأن أكتسب من خلال الأسفار والتعامل مع الناس خبرة ومهارات سلوكية وحياتية، التقت إرادتنا فلم يعارض أحدنا الآخر في مسار الأمر، كنت أريد الذهاب بشدة ولو حتى على ظهر ناقة تسير بي في الصحراء.

هكذا، فإن كل ما تمنيت قد تحقق وأكثر، ناقة تقلني في وسط صحراء تكللها شمس حارقة، لا يحول بينها وبين رؤوسنا إلا لفافات رأس بيضاء؛ يقولون إن اللون الأبيض يعكس أشعة الشمس، وأنا كنت أشعر أن سهام الحر تخترق رأسي. بالناقة كان انتقالنا من وإلى موقع التنقيب، في صحراء يهودا غرب وادي الأردن.

في أحد هذه الأيام الحارة، شرخت بي الناقة حائدة عن الطريق الذي توجهت إليه. كنت قد تركت خلفي السير واتسون ممثل البعثة الأمريكي، وزملائي المصريين من الجامعة، وبعض الزملاء الأردنيين. أرسلوني لجلب الماء والطعام من قرية، «لو كان يعلم أبي أني سأصبح «بلية» بين القوم، ما اجتهد ليتم تكليفي هنا» قلت هذا لنفسي في سخرية، وأنا أهم بتجهيز الدابة، أشار لي غليّ الأردني مشيرًا إلى جهة ما.

-«ستسير في هذا الاتجاه، إن لاح لك سعف النخل تعرف أن هذه هي القرية، لا يوجد غيرها هنا.. هناك عين اسمها عين فشخة، املأ منها القِرب، واسأل عن بيت أم منصور، قل لها إنك أتيت لتأخذ الطعام الذي أوصى به غليّ بالأمس.»

دس علي في يدي بعضًا من النقود، ولم يترك لي مجالًا للمناقشة. لم أرد الذهاب، فقد كنا على وشك الوصول لاكتشاف مهم، أردت أن أشهد هذا الحدث، هل سنجد تماثيل من تلك التي كان يعبدها الكلدانيين في عهد سيدنا إبراهيم، أم سنجد بعضًا من كنوز الملوك القدماء، أم مدينة كاملة تحت الأرض نسير في شوارعها، ونجد الحوانيت مازالت على حالها وأواني الطبخ؟ لا أدري.

ذهبت على مضض، أرسلوني لأني لسبب ما كنت أفضل من يستطيع تطويع الجمال وركوبها. عرض عليّ الدليل أن يرافقني لكني أومأت بالنفي، قائلا باللهجة المصرية:

-«دي فركة كعب.»

وأشرت في الاتجاه الذي أشار إليه غلي الأردني.. أناخت الناقة واعتليتها وسرت في تبرم أنفث عن ضيقي في فراغ الصحراء الناسعة أغني:

« غريب الدار عليا جار زماني قاسي وظلمني، مشيت سواح مسا وصباح أدور ع اللي راح مني.»

لم أكن أعلم أني على وشك أن أصل لاكتشاف كبير، لن يشاركني به أحد...

على مرمى البصر، لاحت لي جبال صخرية، تنتهي عند أقدامها الكثبان الرملية المموجة.. كلما اقتربت أكثر، صرت أبصر الفرابيب السود في وسط الجبال.. اقتربت أكثر، فإذا بالفرابيب السود هي جُدد يمكن السير فيها.. في هذه اللحظة، لم يعد لي أي سلطان على الناقة، سارت وأنا على ظهرها بلا حيلة، كلما حاولت توجيهها حرنت وأبت الانقياد، ثم قادتني إلى سبيلي المحتوم في الأقدار سلفًا، تلك عبرة الأنعام الفنزلة من السماء، تعرف طريقها جيدًا وتعرف طرقنا المرسومة في اللوح المحفوظ، لذلك فإنها مأمورة بالصمت

الأبدي، وهل يصح الكلام مع المعرفة؟ توقفت « سميرة» - هكذا كنت أسميها - في بقعة ما، ثم بركت رويدا رويدا، وانتظرت.. جلت ببصري في المكان، فلم أجد إلا مرتفعات أخرى، تقبع في وسطها كهوف، البعض منها ذات مداخل واسعة، والبعض الآخر بالكاد يمكن تمييزها من بين الكهوف الأخرى.

وكأني سقطت في ثقب أسود خارج الزمان والمكان، لم يكن هناك من بد، سميرة لن تتحرك قيد أنملة الآن.. توجهت إلى الشدة التي وضعت بها القربة، وشربت القليل من الماء.. قررت اكتشاف المكان، بحثت عن زلطة ووضعتها تحت لساني، هكذا علمني بدوي من صحراء يهودا، قال لي:

-«هب أنك في الصحراء ولديك ماء قليل أو بلا ماء، ماذا تفعل؟»

لم أدر ما الإجابة، ولكني قلت:

-«ولماذا لا يكون معي ماء؟ إن كنت أعلم سلفًا أني سأخوض في صحراء مثل هذه؟ حتما سأتزود بالماء والزاد قبل أن أبدأ الرحلة.»

-«ومن منا يملك أقداره، على أية حال.. اقتصد فيما معك من ماء، وضع «زلطة» تحت لسانك، لا تشعر بالعطش أبدًا حتى تصل إلى أقرب نقطة ماء...»

وها أنا ذا أتعلم درسي الأول في الحياة، الإنسان يخطط والإله الواحد الأحد يقدر، ونحن بتخطيطنا المسبق المنمق، والخيلاء التي تعتري الإنسان فتجعله يظن أنه يتحكم بكل شيء، وأنه حتما إذا رتب كل شيء جيدًا فلا يمكن أن تكون هناك ثغرة تدخل منها تدابير القدر، ثقة بالنفس عجيبة تلك التي يمتلكها بنو آدم، تتعارض مع الإيمان المطلق بأنه لا مُدبر لكل صغيرة وكبيرة إلا واحد فقط، لا شريك له..

على مدخل الكهف الرابض عند أقدام أحد التلال، سمعت صوتًا غريبًا يأتي من الداخل، لم أميزه في البداية.. خطوت إلى داخل الكهف ببطء وحذر.. الصوت يتردد صداه في جنبات المكان، فلا أدري في أي اتجاه أذهب، ولكن أدركت سريعًا، هذا صوت عنزة، هل هي عنزة واحدة أم أكثر من واحدة؟ هل ضلت الطريق أم أنها تعيش هنا؟ أحسست بشيء من الرهبة، لم أشأ أن أتقدم أكثر من ذلك، أنا الذي كنت لتوي أستعد لسبر أغوار مدن كاملة تحت الأرض، خشيت أن أخوض أكثر في كهف مظلم؛ ولكني بررت لنفسي ذلك الخوف الذي اعتراني بشكل مقنع، فليس لدي كشاف ولا رفقة، كيف أخوض في الظلام وحدي؟ لم أكن أعلم وقتها أني على وشك أن أخوض في الظلام ما تبقى من عمري، بحثا عن منابع النور وسر انبعاثها.

لم تمهلني العنزة كثيرًا حتى ظهرت، لتنهي صراع نفسي مع نفسي، التي كانت تجلدني

قائلة لي: «انت جبان يا كمال».. على مقربة من باب الكهف، وقفت تنظر لي وتثغو كأنما تريد أن تخبرني بشيء.. اقتربت منها، فتركتني أهدئ من روعها، وسارت ورائي ككلب أليف مطيع. بينما كنا نخطو إلى الخارج، ألقي بحجر على كوة الكهف، فأسقط بعض الأحجار الأخرى وقليل من الرمال، وسمعت صوت تحطم شيء ما. قفزت العنزة يمينًا ويسارًا في هياج، ربت على رأسها وسرت بحذر إلى الخارج وسارت ورائي، حتى وصلنا إلى حافة التل. ما بين الحافة ومدخل الكهف، أرض صغيرة قرابة المتر، يمكن أن أضع عليها قدمي. نظرت إلى أسفل، فرأيت صبيا لا يزيد عمره عن الأربعة عشر عامًا، حوله قرابة العشر من الماعز، ينكب على شيء ما يحاول لملمته واكتشاف ماهيته. نهض الفتى ممسكًا بلفافة من الجلد، فتحها وأخرج منها مخطوطة ورقية، تفحصها ثم ألقاها بغضب، وعاد ليجمع بعض بعض الأحجار التي كان على وشك أن يلقيها إلى أعلى، حين استوقفته رؤيته إياي، فتسمَّر في مكانه.. كنت قد أدركت أنا ماهية الأمر سريعا، يبدو أن ما وجده هذا الفتى كان مخيبًا لآماله ويبدو أن هذه العنزة الضالة هي خاصته. لم أكن متأكدًا، ولكني قررت أن أقامر وأغامر. قلت له وهو ينظر إلى أعلى وأنا أنظر إلى أسفل:

-«إديني المخطوطة وتعالى خد العنزة....»

بهت الفتى، وتردد قليلًا قبل أن يقول:

-«لا أستطيع أن أترك خِرافي هنا، فأفقد ما تبقى منها... إنزل أنت.»

ربطت عنق العنزة بحبل مهترئ وجدته في الكهف، يبدو أن أحدًا مكث هنا منذ أعوام طويلة، جذبتها برفق وبدأت في النزول، وعند أقدام الكهوف الحجرية وقفت أمام الفتى ممسكًا بزمام عنزت،ه وهو ممسك باللفافة يتفحصها بطرف عينيه، كمن يفكر في قيمة ما بيده، هل يستحق الأمر أن يتخلى عن إحدى عنزاته؟ حسم الأمر بعد تردد قصير، محاولًا أن يبدو ماهرًا في المفاوضة:

-«تعطيني كام فيها...؟»

-«هذا شيء لا قيمة كبيرة له، ولكن عنزتك لها أهمية أكبر، ماذا سيفعل أبوك إن عدت بقطيعك ناقصا..؟»

فكر الولد قليلًا، ثم مد يده لي مترددًا، وناولني المخطوطة، فأعطيته زمام العنزة. مال عليها ليفك وثاقها، وبدأ في هش الغنم تجاه الوادي، موليًا إياي ظهره.. التفت نحوي قبل أن يذهب قائلًا:

-«ماذا لو وجدت المزيد من هذه اللفافات، هل تُعطيني مالًا...»

-«أعطيك؛ ولكن كيف أجدك مرة أخرى؟

-«تجدني عند عين الماء، قبل غروب الشمس...»

لوّح لي بيده وبدأ في المسير.. تذكرت شيئا، فناديته قبل أن يختفي خلف الكثبان الرملية:

-«ما اسمك؟»

-«مُجتبى»

عدت لأعلى حيث تركت الناقة، فدسست اللفافة برفق في شَدة الجمل. علمت من الوهلة الأولى أن بداخلها مخطوطة ما، هناك أقوال كثيرة عن امتلاء هذه المنطقة بالمخطوطات، لكن لم يجدوا الكثير منها بعد. قاربت الشمس على المغيب، وعليّ أن أعود أدراجي إلى الموقع أو أصل إلى القرية.. ألقيت نظرة حيث اختفى مجتبى وقطيعه، وقررت اقتفاء أثره لعلي أصل إلى القرية. على أي حال، لقد قال غلي إنها قرية واحدة في هذه المنطقة. سارت بي سميرة مرة أخرى، ولكنها هذه المرة كانت تسابق ضوء الشمس، وتحاول الوصول بي إلى مكان مأهول قبل حلول الظلام.

لاحت لي سعوف النخيل من بعيد، وتركت الزمام لسميرة، فقد صارت أعز أصدقائي، فقد أهدت لي لتوها شيئا ثمينا. كانت تقودني هي ولا أقودها، ويبدو أنها تعرف الطريق جيدًا، قادتني إلى القرية ثم بركت أمام أحد البيوت البسيطة المبنية بأحجار الجبل، فنزلت من فوق ظهرها وناديت من الخارج على أهل البيت:

-«السلام عليكم، هل يوجد أحد هنا؟»

خرج لي فتى في غمر مجتبى الذي قابلته لتوي، قلت له:

-«هذا بيت أم منصور؟»

-«نعم، هل أتيت لتأخذ الطعام؟»

صاح صوت رجل من الداخل:

-«ولد يا منصور...من أتى؟»

ظهر الرجل على باب البيت، واستقبلني بترحاب ودعاني للجلوس على المصطبة أمام الدار، قال لي:

-«أنت من أهل مصر؟ نحن نحبكم كثيرًا.... هل أتيت كل هذه المسافة وحدك؟»

لم أخبره بما حدث وأني أضعت الطريق، دعاني أبو منصور للمكوث حتى يطلع الصبح، فقد جن الليل والعودة الآن ليست آمنة. فكرت في البعثة وماذا عساهم أن يفعلوا الآن دون الماء والطعام، وقرأ أبو منصور أفكاري فقال:

-«لقد رحلوا لتوهم من موقع الحفر، وعاد المعاونون إلى القرية. عند الفجر نملأ القِرب ونأخذ الطعام، وأعود بك إليهم.»

قادني منصور إلى غرفته البسيطة، لم يكن يوجد بها إلا مرتبة إسفنجية رثة رقيقة، ومصباح معلق على أحد الحوائط، وكوة صغيرة من خلالها يمكن رؤية رمال الصحراء تلتقي مع السماء. قدمت أم منصور الطعام وأكلنا جميعا، تذكرت المخطوطة فعدت أدراجي إلى الناقة لآخذ متعلقاتي، وأخفيت اللفافة تحت ملابسي وآويت إلى الغرفة الصغيرة، فأسدلت الستار على مدخل الغرفة التي كانت بلا باب.. تناولت اللفافة بحذر شديد، ففككت الخيوط القديمة التي قد تم ربطها بها، وفي يدي استقرت مجموعة من الأوراق القديمة، كُتب على صدرها

«تمت الترجمة من اللغة الأرامية للغة العربية بواسطة عبدٌ لله....»

***

أزاح خالد الدفتر الأسود جانبًا، وتناول اللفافة.. فتحها بحذر تمامًا، كما فعل أبوه من قبل.. وشرع في القراءة.

مخطوطة بنيامين

بسم الإله الواحد، الذي لا يُشرك في حكمه أحد، والذي لا يعلم بعلمه من بشر إلا من أذن له وأوتي الحكمة والعلم.

بسم الله الذي لا يُعبد إلا إياه، وما دونه وسواه إن هم إلا أرباب متفرقون، وإن الحكم إلا لله...

فاعلم يا هذا، يا من تقرأ اليوم ما بين يديك مما خططت، اعلم أنك إن رأيت ختم صواع الملك على مكتوب فإنه قد أتى من لدن الأسباط الكتبة... أما الصواع فلم يكن يملك من الأمر شيئا إذ دسه الملك في متاع أخيه ليأخذ أخاه في دين الملك؛ وأما الملك فكان يوسف أخي، الذي ختمت بصواعه مجريات الأمور، وأما أنا، بنيامين، فلم يكن لي من الأمر شيء، كنت فقط رأس الكتبة الكرام، مُهمة أوكلها لي أبي - يعقوب - بينما طال بنا الانتظار واكتسى الحزن قلب والدي وابيضت عيناه من الحزن وكظم الغيظ لسنوات طوال.

قال لي أبي يعقوب «أنت الكاتب إلى آخر الزمان..»

قلتُ: «وهل أحيا يا أبت حتى آخر الزمان؟»

أرسل أبي ببصره الكفيف في الأفق وكأنما يبصر شيئا وتمعن

«بل نُطفتك وسبطك...»

قال «يا بُني اكتب عن جدك...»

«عن أي الأجداد أكتب؟»

«عن شيخ الإسلام الكبير تكتب، عن إبرام تكتب، أروي لك فتكتب ولا يتوانى نسلك عن التدوين حتى يُنفخ في الصور... أيا ابن راحيل، يا ابن اليمن، ها أنت ذا وها هو القلم، فاكتب ما يمليه عليه رب القلم والقدر.»

شرعت في كتابة ما يمليه عليّ أبي - يعقوب - عالمًا أني أستند عليه في هذا الزمان؛ لم أكن أعلم ماذا سأكتب فيما بعد ولم أسأل، إلا أني اكتفيت بالكتابة الآن حتى يتضح الأمر، بينما أقطع هذا الطريق الذي رُسم لي وللقادمين من بعدي.

كُتبَ بنيامين علي لِسانِ يعقوب إبن إسحق....

الجد الأكبر

قلبي يحدثني بأنك متلفي

روحي فداك عرفت أم لم تعرف

لم أقض حق هواك إن كنت الذي

لم أقض فيه أسى ومثلي من يفي

ما لي سوى روحي وباذل نفسه

في حب من يهواه ليس بمسرف

فلئن رضيت بها فقد أسعفتني

يا خيبة المسعى إذا لم تسعف

ابن الفارض

النبوءة

بدأ الأمر كله من عند هاجر وسارة، وآل إلى راحيل.. ألا يبدأ كل شيء بالنساء وينتهي بالرجال؟

في ماضٍ سحيق، وعند أبواب مدينة أور، الرابضة على الضفة الغربية لنهر الفرات، امتلأ الأفق في ذلك اليوم بنيران عظيمة، اكفهرت لها الوجوه، وأحرقت الطير من شدة اشتعالها.. أحس القانت أنه يجلس في وسط في روضة غناء، تتوسطها عين ماء نمت حولها أشجار الورود والياسمين والنرجس، وامتد الخضار في قلب عين النار يُخمدها، وهو الذي خُلق لإذكائها. عند حافة العين، قعد هادئا مطمئنا مرتديا قميصا حريريا، تعلو وجهه ابتسامة سكينة ورضا، وتبدو قسمات وجهه في حال تسليم تام. النار المحيطة كحلقة مُحكمة، لا ثغرة بها، تبدو وكأنما لا يمكن عبورها والنجاة منها.. في خضم ألسنة النار المشتعلة يوجد النعيم، وخارجها يكمن العذاب؛ هكذا فإن للأقدار تدابير مختلفة عن إدراك المرء المحدود، هذا الإدراك الذي أخبره ألّا يحاول الخروج - على الأقل حتى تخمد النيران؛ كان يجب أن تكتمل الآية الربانية التي انجلت لقوم لا يعقلون. سأل نفسه حين تبادرت إلى ذهنه فكرة الخروج لثوانٍ معدودة «لمَ عليّ محاولة الخروج من حلقة النار؟» فكر مليا..

maktabbah.blogspot.com

-«هي لحظات تتجلى فيها القدرة الإلهية، فلأدعْ القادر يفعل بي ما يشاء.»

ألا يجلس هنا وقد أرادوا له الموت، فأراد له ربه الحياة؟ أرادوا احتراقه، فأدركته العناية الإلهية، يحفه اللهيب المتأجج ولا يحس منه بشيء إلا البرد والسلام، هكذا فإنهم قد أرادوا بجدك إبرام كيدًا، فجعلهم ربك الأسفلين. وإن تسلني كيف نما الخضار في عين النار وكيف لم تمسس النار جدك وكيف ألقي فيها ولماذا، هل كان الأمر يستحق كل هذا الغبن؟.. لم تكن مجرد فورة غضب تمر ولا تضر، ولكنها استمرت ثمانين يوما، أربعين يجمعون فيها الحطب من كل حدب وصوب، وتقدم النساء الحبلى النذور من الحطب يلقينه في المحرقة ليلدن سالمات، وتمرض أخريات فينذرن حطبًا إن شُفين.. أربعون تمتلئ فيه حفرة عميقة بكل توابع الضلال والجاهلية..

وأربعون أخرى يا ابن اليمن، قضاها جدك في البستان المزهر راجيًا ألا يبرح أبدا، قائلًا بعد خروجه منها:

-«ما كانت أيام وليالٍ أطيب عيشًا إذ كنت فيها، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها.»

وما بين الأربعينين، وفيما قبلهما، حدث كل عجيب!

ابتدأ الأمر لما حان الميقات، ميقات نفاذ الأمر الإلهي في الأكوان، كان لابد من مُرشد ودليل وأب للنبوة وزعيم لمهمة البلاغ، وهكذا انطلق أذان النبوة برؤيا لظالم، وبُشرى بقدومِ عادلٍ إلى الأرض..

فى صبيحة ذلك اليوم، انتشر الجنود في كل مكان في المدينة، كالجراد الذي على وشك أن يأكل الأخضر ولا يرحم اليابس، على وجوههم توتر واضطراب عظيم، وسمع صهيل الجياد ودبيب حدواتها على الأرض، وتطاير الغبار من خلف حوافرها. تتوقف الأحصنة في صحن القرية، ينزل من على ظهرها الجنود، يداهمون البيوت، يدفعون أبواب المنازل بأقدامهم دون مراعاة لحرمة البيوت والنساء، يبحثون عن كل امرأة حبلى على وشك أن تضع، وعن كل امرأة لتوها وضعت وليدها. ذهب بهم الأمر إلى حد منع الرجال من معاشرة زوجاتهم، فلن يبقى في المدينة مولود ذكر حي بعد هذا اليوم.

-«سيُقتل كل مولود ذكر، هذا أمر النمرود»

قال أحد الجنود وهو ينتزع مولود من بين ذراعي والدته النفساء.. يرفع ثياب الطفل ليكشف عن عورته، ليتعرف على نوعه، ويتمتم ببعض كلمات «ليس ولدًا...» ويلقى بالمولود إلى أمه، التي تلقفه مفزوعة خوفًا من سقوطه. يداهم بيتا آخر، وتدوي صرخات تدمى لها القلوب. شبيت النساء الحبليات، زُج بهن في الحبس حتى يضعن حملهن، ذُبح مولودان ذكران آخران في المهد على مرأى من الجميع.. تعالى نحيب الأمهات الثكالى ليشق عنان السماء، التي شهدت أحداث هذا اليوم وما تلاه.

maktabbah.blogspot.com

فزعت أميلة من هول المشهد.. ألا توجد حدود للإنسان في وحشيته، عندما يصاب بالخوف؟ كيف يصاب ملك عظيم، أوتي كل شيء، بكل هذا الجزع، فيقتل الأرواح البريئة؟!

تحرك الجنين في أحشائها، بينما كانت تختبئ خلف أحد الجدران الطينية تستمع إلى حديث كبير الجُند مع آزر.

-«ماذا أنتم فاعلون؟ ماذا يحدث هنا؟»

وقف آزر صائحًا في العسس.

اتجه إليه كبيرهم، وتنحى بآزر جانبا هامسا في أذنه، همسًا تناهى إلى أذن أميلة بصعوبة:

-«استيقظ الملك مفزوعا ليلة أمس ودعانا لمجلسه، حدَّثنا بما أرَّقه، فقد رأى في منامه كأن كوكبًا طلع، فذهب بضوء الشمس والقمر؛ حتى لم يبق لهما ضوء.. كوكب له نور يسطع في السماء، ويخمد بنوره نور الشمس والقمر. وتذكر رؤية أخرى شاهد فيها رجلاً يأتي إليه

ويسقطه عن العرش فيقع على الأرض. أمرنا بإحضار حارس المعبد والكهنة الآخرين والمنجمين إلى القصر، لعلهم للرؤيا يعبرون.»

قص الملك عليهم منامه، فأخبروه - بعد تردد طويل وطلب مهلة لتأويل الرؤيا - أنه سيولد في بلده في هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض، ويكون هلاك الملك وزوال مُلكه على يدي هذا الولد.

بعد استشارات دامت طوال الليل مع الكهنة والملأ من مجلسه، أمر نمرود بقتل كل طفل يولد، منعًا لحدوث هذه الكارثة التي ستودي بفلكه وملكوته...

قال تارت:

-«إنه ينتظرك على أي حال يا آزر، أنت تعلم أن مكانتك كبيرة عنده ومن أقرب مستشاريه، ربما يمكنك أن تهدئ من قلقه وترشده إلى الفعل الأنسب»

-«خذني إليه يا تارت، أصنع له إلها يدفع عن قلبه هذا الخوف غير المبرر»

قال آزر بمكر، وهو يفكر كيف يمكنه صنع إله في عقل النمرود، فيكف عن كل هذا العبث...

انطلق آزر مع كبير الجنود، لكن أبصر جندي أميلة واقفة في ركن، تستند على حائط لأحد البيوت الطينية، فتوقف متفحصًا إياها وناظرًا إلى بطنها للتأكد من عدم حملها. اقترب منها حتى لفحت أنفاسه وجهها، تفحصها في شك قائلا:

-«زوجة من أنت يا امرأة؟»

-«زوجة آزر.»

فأخفض الجندي رأسه في احترام، وأولاها ظهره ليواصل مهمته التي أوكل بها.

أميلة، كانت امرأة صغيرة نحيفة وجميلة، لم يكن ليظهر عليها الحمل حتى في شهوره المتأخرة، تزوجت من آزر الذي أصبح من علية القوم بما أوتي من مكر ودهاء، وقدرة على التسلل الناعم إلى مجالس الكبراء ودفعه إياهم للإيمان بقدراته العظيمة، سواء في النحت والبناء أو في إسداء النصح في الشئون المستعصية. هؤلاء القوم الذين اقترب منهم لأعوام طويلة هم الذين أشاروا على الملك - حين أراد بناء قصر لم يسبق أن بنى مثله أحد من قبل - أن يستخدم آزر، أفضل من يعرف فنون النجارة والبناء والتصاوير. كلف آزر أمهر الصناع والبناة لبناء القصر، وفي غضون عدة أشهر كان قد شيد ما يبدو كقلعة منيعة من الخارج، وبداخله كانت تحف الزخرفة لا مثيل لها. هرعت أميلة إلى الدار الكبير وجلةً مضطربة، لا تدري ماذا تفعل، تحدث نفسها:

-«لقد ذهب آزر إلى الظالم وبقيت أنا هنا؛ ماذا أفعل بغلام قد يقتله والده من أجل السلطة والفلك، كيف أحميه؟ أيمكن أن يرتكب هذا الجرم المشهود في حق ابنه الذي لم يولد؟»

نظرت إلى التماثيل المتراصة على جانبي البهو المؤدي إلى ساحة الدار، أوشكت أن تتضرع إليها، إلا أنها امتنعت، محدثة نفسها وهي ترمق تمثال النمرود الذي أوشك آزر على إنهائه قائلة:

-«أي إله هذا؟ أيمكن أن يكون هذا هو الكاهن الأكبر خادم مردوخ، يريد أن نعبده فنعبده، ثم يكون ثمن عبادتنا قتل الذكور وفطر قلوب الأمهات وسبي النساء الحبليات؟!»

كادت تنهال على رأسه ضربًا بالفأس، إلا أنها سمعت صوت آزر خارج الدار يتحدث مع بعض الأهالي...

أسرتها أميلة في نفسها، ولم يتحدث آزر بشيء في ذلك اليوم، إلا أنه فقط قال وهو ينظر إلى بطنها متفكرًا:

-«سأشرع في عمل تمثال للنمرود يُهدئ من روعه، ربما يكون تمثالًا برأس أسد وجسد غزال، ليعلم الملك أنه حين يقدم القرابين لهذا الإله ستحل البركات ويكتسب قوة الأسد وسرعة الغزال في المعركة التي يظن أنه على وشك أن يدخلها.»

maktabbah.blogspot.com

لم يتبقَ الكثير على ساعة الميلاد، ولم يعد في الصمت نجاة.. انتفخ بطن أميلة، إلا أنه لم يبد عليها الحمل، فاطمئن آزر قليلًا.. آزر الذي صنع آلاف الآلهة الأصنام، ولسانه الذي يقطر عسلًا وموهبته الفذة في استمالة أشد الحكام سطوة، أصبح الآن في مأزق كبير، أيقتل ابنه ليحافظ على مُلكه المكتسب منذ عشرات السنوات وهيبته ومكانته عند الملك؟

قال لها في ذلك اليوم:

-«يقولون إن الذكر الذي سيولد ستأتي نطفته من أقرب الناس إلى الملك، لقد ذبح ولده كوش، وقال إني قريب له وسألني عنكِ، فقلت إنك عاقر ولا تلدين؛ إياك أن تكوني قد أخبرتِ أحدًا بحملك.»

نظر إليها محذرًا ومنتظرًا إجابة على سؤاله، فأجابته بالنفي...

في هذه الليلة، أوى إلى ورشته وانهمك في العمل، تمتم لنفسه وهو يهوي بالمطرقة في ضربات خفيفة متتالية على أحد التماثيل لينهي نحته:

-«لقد أصاب هذا النمرود مسٌ، أو لربّما اعترته بعض الآلهة بسوء...»

واصل حديثه لنفسه:

-«إن أميلة جارية لا يظهر الحمل عليها، الشكر للآلهة، ولكن عليّ تدبر هذا الأمر سريعا.»

ولادة قمر

في غسق الليل، وفي سماء مظلمة، أوشك قمرٌ على الولادة؛ كيف للعتمة أن تخشى نور الأهِلة الناعم الرقيق، الذي ينساب هادئًا مبشرًا بزوال الكروب وميلاد الأمل.. لكن سواد سماء الأنفس لا يشبه حُلكة السماء، الأنفس القاتمة التي تحارب خيط النور الذي يوشك أن يعميها أو يهديها إلى سواء السبيل، متخفية فزِعة انطلقت أميلة في الطرقات الطينية غير الممهدة، تدفع بقدميها في صعوبة من فرط الألم الذي باغتها دون إنذار. كانت القرية قد عجت بجنود النمرود، وآوى معظم الأهالي إلى منازلهم، عندما بدأ غروب الشمس، الخوف يحفظ النفس من الهلاك. نظرت في قلق إلى آزر الغاط في نوم عميق، لكم أحبته على الرغم من اختلافها معه في الكثير من المواضع، شيء ما في قلبها يخبرها أنه لا يسير على الطريق الصحيح، وإن كان قد أتى إلى الدار بخير وفير، وهي قد أصبحت من المبجلات بين نساء عِلية القوم، إلا أنها لا لم تكن تشعر براحة تامة لِعِلّةٍ لا تعيها. أخرجها من شرودها ألمٌ شديد باغتها، فأمسكت بأسفل بطنها وعضّت على أسنانها مصدرة أنينًا خافتًا، تحاملت على نفسها وتمتمت تُطمئنها «هذا ألم عادي، لم يحن الوقت بعد»، تناهت إلى مسامعها أصوات متداخلة وهمهمات من خلف النوافذ، شيء ما يحدث بالخارج، حركت قدميها بصعوبة إلى إحدى غرف البيت، فتحت الكوة الصغيرة في منتصف جدارها الأيمن. .لا أحد يمر على الطريق إلا امرأة مسنة تسير في بطء متوكزة على عصاها، نادتها أميلة دون أن ترفع صوتها، خشية أن يسمعها أحد:

-«يا خالة، ما الذي يحدث بالخارج؟»

اقتربت المرأة من أميلة، التي كانت تتصبب عرقًا وتكتم ألمها بصعوبة، همست في أذنها:

maktabbah.blogspot.com

-«لقد جن النمرود مرة أخرى، وبئس كهنته ومنجموه، يقولون إن هذه الليلة يولد الذكر المنشود الذي يخشاه الملك.»

ثبتت العجوز بصرها على وجه أميلة، ورمقتها بنظرة ارتعدت لها أوصال الأخيرة:

-«احذري ذئاب الليل يا ابنتي.. لا تخافي ولا تحزني وامضي في أمان حيث يأخذك الإله الواحد...»

مضت العجوز في طريقها، بعد أن تركت عند أميلة مزيجًا من الخوف والثقة، هل علمت العجوز بحملها؟ لقد تفرست في وجهها مليًا، «لربما قطنت إلى الأمر»، فكرت أميلة والوجع يزداد.. أغلقت الكوة سريعًا وارتدت ثوبها الفضفاض على عجل، «سيقتلون الولد قبل أن يولد» تمتمت في فزع وهي تتدثر بشال أسود كبير من الصوف، ألقت نظرة أخيرة على آزر،

كادت أن توقظه إلا أن الأفكار المتصارعة في عقلها المشوّش ردعتها.. في الأزقة المظلمة إلا من أضواء الأسرجة تنبعث من الديار، انطلقت تتلفت يمنة ويسرة، لا تعرف أين تذهب ولا تدري ماذا ستفعل.. كغزال يركض هربا من صيادٍ لا يرحم، هرولت حتى ابتعدت عن الحي كثيرًا وهدأت الأصوات المتداخلة إلا أن دقات قلبها لم تهدأ وتصبب العرق كثيرا من جبينها. واصلت المسير، تتعثر في ثوبها وتغوص في أتربة الصحراء، سارت حيث الظلام الدامس، حيث الأرض المقفرة التي حملت في كنفها الحياة لأعوام طويلة ماضية، حتى جف النهر وماتت الأشجار على جانبيه، فلم يبق منها إلا أفرع يابسة تُخبر المارين أنباء حياة سابقة على ضفاف النهر.

بدت الأشجار في جنح الليل كأشباح تحرس المكان، عتمة طاغية تجعل المكان مخيفًا، لكن أميلة لم تخف من الظلام ولا من أشباح الشجيرات اليابسات البائسات اللواتي فقدن ماءهن وخضارهن، رؤعتها أشباح البشر بالقدر الكافي حتى أنها الآن وفى خضم الآلام العظيمة أنِست للحجر اليابس وغبار الطريق.. رؤعتها كثيرًا فكرة أن يموت الولد في أحشائها، رفعت رأسها إلى السماء تتوسل إليها، كانت تعلم أن هناك من في السماء يسمع ويرى، هكذا أخبرها ناحور أبو آزر، الذي كان يسير عكس ابنه في كل شيء. في السماء الحالكة، أبصرت ضوء الهلال الخافت يوشك أن يولد...

maktabbah.blogspot.com

سارت كثيرا وقد اشتد عليها الوجع.. جلست في مجرى النهر اليابس، الذي تفرع من الفرات في أزمان بعيدة، ثم لم يقو على الحياة.. ألقت أميلة بجسدها المتعب في مجرى النهر، وكتمت صراخها إذ بدأ المخاض... قالت باكية:

-«سأموت هنا، سيموت ولدي...»

أتاها صوت قائلا:

-«لن يموت أحد هنا اليوم، اليوم تبدأ الحياة الحقيقية.»

maktabbah.blogspot.com

التفتت خائفة إلى مصدر الصوت، فلم تجد أحدًا.. اشتد عليها الألم، جثت على ركبتيها على أرض مجرى النهر، مبتهلة رفعت رأسها إلى السماء مرة أخيرة، قبل أن تفقد وعيها...

-«يا من أنت في السماء، لا أراك ولا أسمعك وأنت ترى وتسمع، ها أنا ذا بين يديك، فنجِّي وليدي، ثم افعل بي ما شئت.»

رأت في منامها أن الذئاب ترقص حول طفل صغير، وتحول بينها وبينه.. تقترب منه، فيباغتها أحد الذئاب الجائعة، وينقض عليها هامًا بافتراسها، فتنقض على رأسه عصاة، فيخنس ويمضي بعيدا في خوف، بينما المرأة العجوز التي تحدثت معها في تلك الليلة تمد

يدها لتربت على كتفها. أفاقت أميلة من إغماءتها مرتعبة، وكان الأمر قد تم.

من قلب لفافة حلفاء، انبعث استهلال وليد مبارك.. نظرت، فإذا بمولودها إلى جانبها، وقد انقطع حبلها السري ولم يعد له أثر، وانتهى الأمر بسلام. ضمته بين ذراعيها في حنان، تأملته وعلى وجهها آثار الإعياء والعناء الشديد الذي كابدته.. نظر في عينيها فابتسم، وكانت تلك ابتسامة الشفاء.

أوشك الفجر على الانبلاج، لا يوجد سبيل الآن للهرب ولا حتى للمواجهة.. فكرت مليًا وهي تنظر إلى ولدها، ما السبيل الآن؟ إن دخلت به المدينة ذبحوه، وإن تركته هنا أكلته السباع. بعد برهة من التفكير، عقدت الأمر على شيء ما.. مزقت قطعة من ثوبها، نهضت حاملة الولد برفق، لفته في خرقة الثوب، ثم لفته في الحلفاء.. وقررت العودة تاركة قلبها الملتاع وراءها.

maktabbah.blogspot.com

طلعت شمس اليوم من خلف الجبال على استحياء، لقد حدث شيء جلل ليلة أمس، كيف تجرؤ الشموس أن تُشرق في حضور ميلاد نور عظيم.. غطت السحب الشمس، وخجلت الأخيرة فأطلت فقط بأشعتها الرقيقة من شرفة سحابة مارة، فرأت مولودًا أبًا للبشرين فعادت واختبأت خلف السحاب المركوم، وتركت الأمر لصاحب الأمر؛ حتى إن أصوات العسكر قد هدأت، وهمس الباعة ومرتادو السوق، فلم تُسمع إلا همهمات خافتة لزحام البائعين والمشترين، كل قد انخرط في مسألته وتوجه لحاجته. لم يلحظها أحد حين ولجت إلى الدار بثوبها الممزق، الذي تلطخ بالطين ودماء المخاض. في صحن الدار، راح وغدا آزر كالمجنون، يذرع الأرض، حتى أبصر أميلة تتسلل من مدخل الدار، التي ما إن رأته حتى سقطت على الأرض فاقدة للوعي..

لا تدري متى أفاقت، إلا أنها حين فتحت عينيها ووقع بصرها على آزر، هبت من رقدتها صائحة:

-«ولدي، إبرام، ولـ.....»

وضع آزر يده على فمها في سرعة، مانعًا إياها من المزيد من الصراخ وتكلم هو:

-«أين الولد؟ اهدئي ولا تصيحي، أخبريني أين هو.»

أزاح يده من على فمها، فتنفست وقالت في رعب وتوسل:

-«أتقتله يا آزر؟ أتبيع روح ابنك للملك؟»

نظر إليها معاتبًا:

-«أأقتل ابني يا امرأة؟! أجننت؟ إنه فلذة كبدي.»

أمسكت بيده باكية متوسلة:

-«إذا لندركه يا آزر، أخشى أن تكون قد أكلته السباع حيث تركته!»

-«لندركه في التو والحال.»

رغم وهنها، هرولت أميلة وخلفها آزر، بعد أن أمر العبيد بالبقاء في صحن الدار، وأحكم إغلاق الباب وراءه.. عبرا من وسط السوق، الذي امتلأ بالذاهب والآتي مع بزوغ أول خيط للشمس، واكتظ بالتجار يعرضون بضائعهم الآتية من بلاد العراق وبابل، منتجات يدوية من جلود الماعز والأبقار، أصناما بأحجام مختلفة، والأهالي يجادلون البائع في أثمان الأشياء. كانت معظم التماثيل من صنع آزر، تلك الأصنام زهيدة الثمن التي يمكن أن يقدر على شرائها البسطاء لعبادتها والتيمن بها، ينحتها في ورشته بكميات كبيرة، يعاونه عشرة من العبيد الذي اشتراهم ودربهم جيدًا على صنع المواد الأولية للتماثيل، التي لا يلبث أن يضخ بها في السوق فيجني الكثير من الأموال، وإن لم يكن يحتاج إلى هذه الأموال، فقد كان يكفيه ما يحصل عليه من الملك كأحد عِلية القوم.

في صبيحة هذا اليوم، ضحى آزر بأن يكون على رأس فوج التجار لاستقبال قافلة كبيرة قادمة من الحجاز، وللمرة الأولى لم يعبأ بالمال ولا بالفلك، لقد رُزق بولد. شق الطريق بين المتناثرين في السوق، وسارت من ورائه أميلة تدفعه بيدها في توتر ليسرع الخطى.. حين بلغا رأس السوق، ألقى نظرة يشوبها القلق والخوف إلى يساره، حيث يرقد قصر الملك النمرود على قمة جبل عالٍ يطل على المدينة، ذلك القصر الذي أشرف على تشييده. أحس أن هناك عينين تراقبانه، ربما هو الملك أو عين الآلهة تدري بكل ما يدور.. ارتعد، وسرت في جسده قشعريرة ووجل، فحثَّ أميلة على إسراع الخطى، حتى خرجا من الوادي إلى الأرض القاحلة، وغابت الهمهمة والثرثرة، واختفت المدينة من ورائهما.

حين قاربا على مجرى النهر الجاف، ضربت أميلة على صدرها فزعة.. بدت لها أوراق الحلفاء من بعيد، ولكن لم تسمع للمولود صوتًا، ولم تر أي حركة تصدر من تحت قشورها.. ركضت في جزع، تتمتم محدثة آزر وقد توجست في نفسها خيفة...

-«ادع إلهك ألَّا يكون قد حدث شيء لوليدي، وإلا بعزة آلهتك لأقتلن نمرودك وكل ملك ظالم.»

نظر إليها آزر بحنق مكتوم وصبر العالِم بحالها..

-«لا تجزعي يا أم ابني، ستحفظه الآلهة.»

عند مجرى النهر، هوى قلبها في ظلمات الارتياع، تظهر يد الولد خارج أوراق الحلفاء ولا تتحرك.. لطمت خديها وهرعت إليه تحمله بين ذراعيها، تهزه صائحة:

-«ولدي، إبراهيم...»

فتح إبراهيم عينيه، ونظر إليها نظرة صافية بعينيه الملائكيتين أعادت إليها رشدها، وسكن قلبها الذي قفز من ضلوعها من شدة الخوف على ابنها. جال ببصره بينها وبين آزر، وأعاد بصره إلى أميلة واستقر نظره عليها، وابتسم لها ابتسامة أزالت عنها كل غبار الألم، وخففت من وطأة كل ما مرت به منذ الليلة الماضية. أزاحت الثوب عن صدرها فأرضعته، بينما جلس آزر يتأملهما بفرحة الأب الذي رزق لتوه بمولود ذكر. لم يكن مولوده الأول، رزق قبله بهاران وناحور، مات هاران، انفطر قلبه لموته، لكم قدم من قرابين للآلهة في وقت مرض هاران، توسل إلى مردوخ كثيرًا وذهب إلى نيناو، لم يُجد التوسل وذهب الولد. فكر فيما يمكن أن يكون عليه هذا الوليد، سيكون سندًا وعونًا له، وسيكون خليفة يحمل الراية من بعده، ويحافظ على ميراث الأجداد ويحفظ عزة الآلهة. لكن ماذا سيفعل الآن؟ نظر إلى أميلة مستفهما:

-«من أين أتيتِ بإسم إبراهيم؟»

رفعت رأسها وقد انتهت من إرضاع وليدها:

-«ألهمتني إياه السماء...»

-«إذًا هيا بنا لننظر أين تحط بنا سماؤك.»

لحقت الأم بآزر حاملة الرضيع بين ذراعيها، مازال على جسده الصغير لفافة القماش من ثوبها. لم يكن بإمكانهما العودة به إلى البلدة، كانت تعلم ذلك، ورأت الحنان في عيني زوجها فتبعته مطمئنة دون أن تسأل عن شيء. سارا حتى انتصفت الشمس في السماء، وبدت لهما سلسلة من الجبال البعيدة، حثها آزر على مواصلة المسير قائلًا في دِعة:

- «لم يتبق إلا القليل ونصل»

لقد رق القلب القاسي ولان الحجر، استشعرت أميلة سلاسة وهدوء زوجها، فهدأت هي الأخرى وأسلمت له الأمر كله.

تحت أقدام أحد الجبال، وحين وصلا إلى وجهتهما، نظر آزر إلى أعلى وعزم على الصعود مسافة يسيرة، مخبرًا إياها عن مغارة لا يعلم عنها أحد شيئا إلا هو، مغارة آوى إليها في الطريق عائدا من بلاد الشام. قال مستعيدا الذكرى البعيدة:

الغُلام الراشد

انبعثت رائحة الطعام الشهي في جنبات الدار، وتوسطت الشمس السماء في ظهيرة يوم حار، وألقت بسهامها الحارة على بيت أميلة وآزر. شعر إبراهيم بالملل، فقد منعته أمه من الخروج في الظهيرة، محذرة إياه أنه إن يفعل فسيصاب بضربة شمس تمرضه ويرقد في الفراش فلا يستطيع اللعب مع الأولاد. لم يكن يعصي كلمة لأمه على أي حال، دخل عليها في المطبخ الملحق بالدار، اقترب منها وهي تقلب الطعام في قدر نحاس، يتدلى من ثلاثة من جذوع الأشجار تم ربطهم ببعضهم البعض على شكل مثلث، ربط في أعلاه قدر الطعام، ليرقد على مسافة ليست ببعيدة عن الحطب المشتعل، وتفوح من الطعام والخبز رائحة زكية شهية. شعر بتقلصات في معدته من الجوع، ولكنه شكا إليها أولا أنه لا يجد الكثير ليفعله، ثم أكمل في أدب وحياء:

-«أمي، إني جائع جدا...»

تركت أميلة الجرة، واقتربت منه تداعبه وتدس أصابع يدها في شعره لتمشطه وتهدئ من سريرته:

-«الصبر يا ولدي، يا قرة عيني، قاربت على الانتهاء من طهي الطعام، وننتظر أيضا أباك لنأكل جميعا سويا.»

مدت يدها وسحبت رغيفًا من الأرغفة المفروشة على قطعة من الكتان، كانت قد خبزتها لتوها، اقتطعت منه لقمة وناولته إياها:

-«اصطبر قليلًا بهذه حتى نأكل.»

خرج إبراهيم إلى صحن الدار مرة أخرى، قضم قضمة وهو يتأمل لعبته المفضلة، وضع الخبز جانبا وقفز إلى أحد التماثيل فامتطى ظهره كما كان يرى الناس تمتطي ظهور الحمير والبغال، فعل ذلك مرات عديدة، واستهواه هذا التمثال وصار يلعب به مرارًا وتكرارًا، ورأته أمه ولم تعنفه. لكن هذه المرة رآه أبوه، وغضب كثيرًا حتى أنه نهر أميلة أيضا وألقى عليها اللوم، كيف تترك الولد ليحط هكذا من قدر الآلهة؛ سامحها فقط لأن هذا التمثال كان نموذجا مصغرًا لتمثال الإله الكبير في المعبد، ولكنه أنذرها إن تكرر الأمر سيبرحها ضربا. لم يفهم إبراهيم سبب غضب أبيه، بعد أن انصرفت أمه إلى تجهيز الطعام قال له مستفهما في براءة ونقاء:

-«أي تمثال هذا يا أبي؟ إن له أذنين كبيرتين أكبر من آذاننا.»

قال له آزر بعد أن هدأت فورته:

-«إنه مردوخ، رب الأرباب يا ولدي، وهاتان الأذنان ترمزان إلى فهمه العميق وحكمته البالغة، هو أعقل العقلاء يا ولدي، كل الآلهة صورة من مردوخ وهو يتمثل فيها جميعا...»

سخر إبراهيم في نفسه من مردوخ الإله، الذي سمح له أن يركبه مرازا وتكرازا كما تُركب الدواب؛ هل تُذل الآلهة ويلعب بها الأولاد؟ ربما فعل ذلك لأنه حقا حكيم ولا ينهر الأولاد الصغار؟ شيء ما لم يكن صحيحا، أي عقيدة تلك التي ينتظر فيها الإله من يدافع عنه ويحميه؟!.. فكرة في حد ذاتها تدعو إلى الاستخفاف بقوة هذا المعبود.

maktabbah.blogspot.com

ترك آزر ابنه، وأوى إلى غرفته ليبدل ثيابه، بعد أن أخبره عن زمن عبادة مردوخ وكيف أنه غبد لقرابة ألفي عام. لحقت به أميلة في الغرفة لتعاونه على تبديل ملابسه، وللمرة الثانية في هذا اليوم يسمع أباه وهو يعنف أمه على بدر منه..

-«أهملتِ كثيرا في ملاحظة هذا الولد أيتها المرأة، كيف تتركين ولدًا صغيرًا ينتقص من كرامة مردوخ، الإله الحكيم ذي الأفضال والنعم؟

أحس بشيء من الذنب، إذ أنه كان سببًا في هذه الكلمات الخشنة الموجهة إلى أمه الجميلة؛ هل توجد امرأة في حُسن أمه في أي مكان في الدنيا؟ كانت هي عالمه الأكبر، لكم ألقى بجسده الصغير في حجرها واختفى عن الأنظار وسبح في ملكوت لا متناهٍ من الأفكار التي كانت تسبق سنه. في كل مرة عنفها أبوه كان يذهب إليها، يلف يديه الصغيرتين حول وسطها، ويعانقها عناقا حانيا، فتتوقف عن بكائها وتضمه بقوة حانية قائلة له:

-«الشكر للسماء التي أهدتني إياك يا إبراهيم»

خرجت أميلة مسرعة من الغرفة، ونادت على ولدها، الذي انزوى في ركن ما، لينضم إلى الطعام.. خيم الوجوم على الوجوه، وساد الصمت بينما امتدت الأيدي إلى الأطباق الممتلئة بالأصناف المختلفة من الطعام. لم يحس إبراهيم بالخوف من أبيه، كان فقط في حال استغراق في أفكاره، واستغراب واستنكار لموقف أبيه، شيء ما في قلبه كان يجعله يرى ظلمات كثيفة كلما تحدث أبوه، ورُشد في عقله كان يخبره أن الأمر كله برمته غير صحيح.

حل المساء، وفكّر آزر أن عليه أن يبدأ في إشراك إبراهيم في العمل معه، هكذا سيفهم كنه وطبيعة الآلهة، ولن يتحطم حلمه بأن يكون ولده خليفته المرتقب..«لا يمكن أن ينقطع ذِكري من الأرض» تمتم لنفسه «لابد أن يخلف الولد أباه.»... في معمل الأصنام خاصته، أخذ يضع اللمسات الأخيرة على أحد التماثيل الكبيرة، مناديا على إبراهيم ليأتي ويعاونه قائلا:

-«تعالى يا ولدي، بدلا من أن تمتطي الآلهة سأعلمك كيف تصنعها.»

أشار إليه أن يتبعه إلى طاولة تراصت عليها أدوات مختلفة، كان يراها من بعيد ولكن لا يجرؤ على الاقتراب منها أو لمسها. قال له أبوه مشيرا إلى القطع:

-«هذا إزميل يسهل عليك كسر الأحجار وتشكيلها، وهذه مطرقة هي أقوى من الإزميل.. الإزميل والمطرقة إخوة في النحت، لا يمكنك الاستغناء عن أحدهما بالآخر، سكين وشفرات وفرش... سأعلمك كيف تستخدم كل هذه الأدوات لنحت تماثيل جميلة، من الآن وصاعدا ستكون ذراعي الأيمن في هذا العمل الذي ورثته عن أجدادك، وترثه أنت عنا وتواصل المسيرة... لا يمكن يا ولدي أن تستمر الحياة دون آلهة، وإلا من أين نأخذ البركات وندفع عنا البلاء.. افهم جيدًا ما أقول.»

سأله إبراهيم مما تُصنع الآلهة، قال له آزر وهو يشير إلى الآلهة، واحدًا يلي الآخر:

-«هذا من خشب النخل، وذاك من الزيتون، وهذا التمثال الصغير من العاج، وأخرى تصنع من الأحجار...»

منذ هذه الليلة ولعدة سنوات تالية، عمل إبراهيم مع أبيه على نحت التماثيل مختلفة الأحجام والأشكال. كان يشرد كثيرا في ماهية الأمر وتلك الصناعة الغريبة، كيف تأتّى له أن يفكر عكس الجميع؟ البعض يصنع الآلهة والبعض الآخر يعبدونها، والجميع يصدق أن لتلك الكتل قوة قادرة على زيادة الرزق والبركة ودفع البلاء والمرض والأوبئة، لماذا لم يكن مثلهم؟ كان يشاهد كل مراحل صنع هذه التماثيل، أحيانا كان ينشق الخشب وينكسر التمثال، فيلقي به والده جانبا، وقد يستعمله وقودًا للنار ويصنع غيره. في أحد الليالي، قام فرأى جرذانا وحشرات تمشي على وجوهها وتدخل أعينها وآذانها، ولا ترد الآلهة عن نفسها هذه المخلوقات. منذ هذه الليلة، لم يغضب أبوه عليه ولم يوبخ أميلة مرة أخرى، إلا في ليلة من الليالي، تبدل الأمر نتيجة حوار بين عقل يفكر وآخر لا يحمل عقلًا في طيات رأسه، إذ وقف إبراهيم إلى جانب أبيه يناوله الأدوات، وكان قد فاض به معين التساؤلات، وأراد أن يهدأ باله بالحصول على إجابات منطقية، قال لأبيه وهو يناوله الشفرة لإبراز بعض التفاصيل الأخيرة في أحد التماثيل:

-«كم إله هناك يا أبي؟»

قال آزر:

-«لا عدد لهم يا بني.»

واصل إبراهيم تساؤلاته وهو يأخذ من أبيه الشفرة ويناوله المبرد:

-«ماذا أفعل يا أبي إذا خدمت إلها وأراد بي الآخر شرًا لأني لا أخدمه؟ ماذا إذا وقع شقاق وخصام بين الآلهة؟ ماذا لو قتل الإله الذي يريد بي شرًا إلهي؟ ماذا أفعل؟ من المؤكد أن يقتلني أنا أيضا...»

ضحك آزر كاشفا عن أسنانه الصفراء:

-«لا تخف يا بني، لا يخاصم إله إلها آخر، في الهيكل الكبير الألوف من الآلهة مع الإله الكبير بعل، وقد بلغت الآن السبعين من العمر، ولم أر قط إلها ضرب إلها آخر.»

قال إبراهيم:

-«إذًا هم على وفاق»

فأجابه الأب بأن نعم هم دومًا على وفاق..

واصل العمل مع أبيه، حتى كاد أن ينتهي من نحت تمثال من العاج. تراجع آزر إلى الوراء عدة خطوات، ليتأمل القطعة الفنية الرائعة التي صنعها بيده وقال في تفاخر وخيلاء:

-«انظر ما أجمله.. لا ينقصه إلا أن يتنفس...»

حقا لا ينقصه إلا أن يتنفس، ولماذا ينقصه التنفس إذا كان إلها، ألا يجب أن تكون الآلهة كاملة لا ينقصها شيء؟ أفسدت تساؤلاته التي نطق بها بهاء اللحظة التي يعيشها أبوه:

-«إن لم يكن للآلهة أنفاس يا أبي، فكيف يهبون الأنفاس.. وإذا لم تكن لهم حياة فكيف يعطون الحياة؟ من المؤكد يا أبي أن هؤلاء ليسوا آلهة؟»

أحس آزر بالدماء تتصاعد إلى رأسه حارة، قال ثائرًا:

-«لو كنت بالغًا من العمر، لشججت رأسك بهذا الفأس.»

واصل إبراهيم كلماته ولم يتوقف إذ رأى غضب أبيه:

-«إن كانت الآلهة تساعد على صنع الإنسان، فكيف يتأتّى للإنسان أن يصنع آلهة؟ إذا كانت الآلهة مصنوعة من الخشب، إذًا فإحراق الخشب خطيئة كبرى.. ولكن قل لي يا أبت، كيف وأنت تساعد الآلهة وتصنع منها أعدادا هائلة.. كيف لم تساعدك الآلهة لتصنع أولادًا كثيرين، فتصير أقوى رجل في القرية؟

لم يشعر الأب بنفسه إلا وهو يهوي على وجه ابنه بصفعة قوية، ترنح لها جسده العجوز،

وتزعزعت عقيدته الزائفة، ولكنه أبى الاعتراف باهتزاز إيمانه أمام تلك الحجج المنطقية.. ضرب الغلام، فسال الدم من وجهه، وعلى الرغم من ذلك وقف ثابتا في مكانه، وثبت فؤاده بعد ذلك اليوم، إذ تهاوى أبوه في غياهب الثورة والإنكار.

الاحتفال الكبير

استيقظ ناحور في ليلة اكتمل فيها القمر، مفزوعا يتصبب العرق من وجهه، هرع إليه إبراهيم الذي كان يجلس في سقيفة الدار يتأمل السماء الصافية، يشعر بحزن كبير بعد جدال الليلة المنصرمة مع أبيه حول جدوى ما يفعله أبوه. أخبره أن كل هذه الآلهة لا تسمع ولا تبصر ولن تغني عنه شيئا.. أخبره عن العلم الذي جاءه، وكم يتمنى أن يتبع دينه فيهدى إلى الصراط السوي.. أحس أنه يتحدث إلى كتلة صماء من الحجر، كتلة ما لبثت أن انقلبت إلى كرة من النار انطلقت في وجهه، صاح أبوه يسأله:

-أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا

توقف إبراهيم عن الجدال، فلقد قال كل ما يمكن أن يقال، قال:

-سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا

ليلة امتزج سواد سمائها بالحسرة التي انتابت إبراهيم، إذ لم يستطع أن ينقذ أبيه من براثن الظلمات. توجه إلى بيت جده ناحور، الشيخ الكبير كما كانوا يسمونه، وهو الملاذ والملجأ والكنف لإبراهيم حين تتفرق به السبل. لكن في تلك الليلة، لم يبدُ بخير، ولم يتفوه بكلمة منذ أن أتى إلى الدار، والآن يسمع أنين جده وهو غائص في نوم عميق. ملأ كأسا من ماء الإبريق، وأسرع إليه ليدركه، فوجده مازال منغمسا في نومه يتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة، فربت إبراهيم على كتفه ليوقظه..

«ما بك يا شيخي؟» قال له وهو يناوله الماء

«لا شيء يا إبرام، فقط تلك الخيالات المزعجة التي تنتابني في منامي، لكن اليوم أثقلت عليّ تلك الكوابيس.»

نظر إليه إبراهيم مستفهما، لم يكن يعلم عما يتحدث جده. استوى ناحور على فراشه وقد هدأ روعه قليلًا، لقد تبدّى له ما سيحدث جليا، فقد رأى كل شيء في كبد الشاة بالأمس. شرد مفكرا في قدرته على التنجيم، التي ورثها أبا عن جد، ثم برع فيها فذاع صيته ولجأت إليه جموع الناس؛ يستطيع أن يرى المستقبل في كبد شاة مذبوحة، أو يعرف الغيب من الأواني، وما اطّلع عليه بالأمس كان مفزعًا ومبشرا في آن واحد.. ستنكفيء الآلهة على وجهها!.. أفزعته عواقب وقوع ذلك الأمر في الحقيقة، ماذا سيحدث لعلية القوم إن سقطت آلهتهم؟ كان يعلم جيدًا أن الله واحد، ولكن آلهتهم متعددة لا يمكن الاستغناء عنها بهذه البساطة.. أراد العودة لعقيدة التوحيد، ولكنه فزع كثيرًا مما قد يفعله أولئك القائمون على

خدمة الآلهة بمصالحهم المتعددة.

تأمل في وجه حفيده، ها هو ذا قد بلغ من العمر أربعين عاما، شُد أزره واشتد ساعده وقويت بنيته ومازال فتيًا، لكم يخشى عليه من بطش الظالمين. كانت الأيام الماضية هي الأصعب على ناحور، إذ أبصر حفيده يتأمل في السماء كل ليلة، حتى كانت ليلة ليس بها قمر، خرج إبراهيم فيها عند غروب الشمس، وأمام باب الدار رفع رأسه إلى السماء فرأى كوكب المشترى، فقال «هذا ربي»، وما لبث أن غاب الكوكب، فسار في القرية متوجها إلى مجلس الملأ من القوم، وتبعه ناحور وهو لا يعلم ماذا ينتوي حفيده، ودخل إبراهيم عليهم فقال لهم:

-«أبصرت اليوم كوكبا..ظننت أنه ربي، لكنه أفل، وأنا لا أحب الآفلين...»

تولى عنهم إبراهيم، وهرع إليه جده لائما إياه على ما فعل..

-«يا بني، إنك لن تقوى على هؤلاء القوم، ما فائدة أن تنصح الصم البكم العمي، بحق إلهك يا بُني لا تتمادى، فنحن قلة بينهم.»

بدا إبراهيم غير مقتنع بما يقول جده، لكنه أومأ برأسه في أدب واستسلام.

مر على ذلك اليوم عشر ليال، ولم يلبث القمر أن اكتمل، فلما رآه إبراهيم قال «هذا ربي»، ولكنه أفل، كما أفلت أيضا الشمس التي هي أكبر من الكواكب والقمر. حسم الأمر سريعا، بإعلانه أنه بريء من كل ذلك، وأنه قد وجه وجهه لربه.. أي رب هذا؟ يسأله القوم ثم ينهالون عليه بكلمات ساخرة مستهزئة. حتى كانت إحدى الليالي الباردة، حين عاد إبراهيم من خلوته في الجبل الكبير إلى بيت جده يرتعش وترتعد أوصاله، فظن ناحور أنه أثر البرد، ولكن زفَّ إليه إبراهيم بشرى نزول الوحي إليه، وحي الإله الواحد الأحد، يكلفه بمهمة الرسالة إلى البشرية...

نهض ناحور حذرًا، وأحكم إغلاق باب الدار، وجلس إلى جانب إبراهيم ومال عليه هامسًا:

-«يا بني، لا تخبر أحدًا بذلك، لقد حاربت أعوامًا طويلة ليعلم الجميع عن الإله الواحد الذي أتاك وحيه، إلا أنهم نهروني حتى أخفيت إيماني، خوفًا على عقيدتي من أن تتزحزح، في وسط هذا التيار الجارف.»

-«هذا غير ممكن يا جدي، كيف لا أخبر أحدًا؟ بل سأخبر الجميع بما أؤمن به، لعلهم يتبعوني وينجوا منهم من كُتبت له النجاة؛ هكذا أُمرت، ولا يمكن لي ألّا أن أطيع الأمر.»

-«أخاف عليك يا ولدي من بطشهم وتماديهم، من يعبد الحجر لا يعنيه البشر، سيؤذونك وربما يقتلونك.. ألم يتوعّدك أبوك نفسه بالرجم حين دعوته؟ ألم يكن عليك أن تتولى عنه

بعدما توعّدك بالقتل إن لم تصبْ إلى دينه؟»

لم يعرف الخوف طريقًا إلى قلب إبراهيم في أي من الأيام التالية، إلا أنه كان دائما يعرف طريقه إلى قلب ناحور، هذا الذي بلغ من العمر أرذله، رغم امتلاء قلبه بالإيمان، إلا أنه كان يعلم جيدًا ماذا يمكن أن يحدث لابنه وحفيده وهذه العائلة العريقة.. لكنه فكر في أحيان أخرى: «ألا يستحق الأمر؟ أن نقاتل من أجل وحدانية الرب؟»

رشف ناحور رشفة أخرى من الماء، وقال لإبراهيم:

-«ستنكفئ الآلهة على وجهها، هكذا رأيت في منامي.»

ابتسم إبراهيم ابتسامة ارتياح، وقال لجده في حنان:

-«هذه بشرى يا جدي، فلا تخف ولا تحزن، سيحدث ما رأيت بإذن الإله الواحد الأحد.»

maktabbah.blogspot.com

أشرقت شمس اليوم التالي خفيفة حامية، تتجهز لمشهد أمرٍ عظيم، انعكس نورها على سطح النهر، الذي رست عليه سفينة الملك المقدسة، فخطفت القلوب والأبصار بزخارفها الملونة وماء الذهب الذي يكسو صواريها ويحيط بجوانبها العلوية. اصطف الكهنة في صفين، عند حواف لسان خشبي يمتد من شاطئ النهر إلى حافة السفينة، تاركين ممرًا مفروشًا ببساط أحمر مزخرف، يتوسّطهم عند رأس اللسان من جهة النهر كبير الكهنة، موليًا ظهره للسفينة. على الشاطئ، وقف الكهنة المرتّلون والبكّاؤون وضاربو الطبول، انطلقت الترانيم المقدسة في ترتيل عظيم، بلغ صداه شمال وجنوب وغرب البلاد.. قام البكّاؤون بدورهم في البكاء على ما بدر من بني الإنسان من آثام تستوجب التضرع للأرباب، وسُمع قرعُ الدفوف ما بين نشيد وآخر، وترقّب الجميع قدوم الملك العظيم والإله الأكبر النمرود.

اقترب آزر من ابنه إبراهيم، الذي امتزج في جموع الناس، ووقف صامتا يراقب المشهد. وضع يده على كتفه، وهمس في أذنه:

«يا بني، هذا عيدنا وعيد آبائنا، لو خرجت معنا لأعجبك ديننا.»

لم يُجب إبراهيم، إذ تناهى قرع الطبول إلى الأسماع، ونادى المنادي في الناس مبشرًا بقدوم الملك. خرّت الجموع راكعة عند ظهور النمرود على ظهر حصان أسود، فركع الجميع إلا هو، فأخذ آزر يجذب ابنه من طرف عباءته ليسجد على ركبتيه مثل الجميع، مر الملك سريعا دون أن يلتفت إلى الناس، واخترق صفوف الكهان والوزراء الذين انحنت رؤوسهم عند مروره، صعد إلى ظهر السفينة وتبعه الكهنة وعلية القوم، وانطلقت المزامير وتراتيم تبجيل الإله العظيم، بينما شقت الفلك عنان النهر، وانسابت على سطح المياه التي بدت كاللجين

الذائب. التفت إبراهيم إلى أبيه قائلًا:

-«لماذا لم تصعد معهم يا أبي؟ أنت من علية القوم، ألا تخشى أن يفتقد وجودك؟

«آثرت أن نسير معا يا بني، سنقطع البر مثل الجميع، سنذهب سويا إلى الاحتفال، وستسعد كثيرا بهذا العيد.»

شقط في يد إبراهيم، لم يعد هناك مفر من مرافقة أبيه، وقد كان يفكر في أشياء أخرى، أحدها هو تلك اللحظة التي تخلو فيها المدينة من أنفاس الجُهال، قد يجعله ذلك يتنفس الصعداء قليلًا، ويتخفف من عبء ثقيل يطبق على صدره. تأبط آزر ذراع ابنه، وامتزجا بحشود الناس الغفيرة، ولم يلبث الجمع أن ابتعد قليلًا عن المدينة، حتى وجد الناس أحدهم يسقط على الأرض مريضا..

كان ذلك إبراهيم، الذي بدا أن قدمه قد التوت، ولم يعد قادرًا على مواصلة المسير. انحنى عليه آزر وآخرون، ليتفحصوا ماذا حل به، ضغط أحدهم على قدمه، فتألم شديدًا قائلا لهم:

-«إني سقيم...»

قال أحدهم لآزر: «لن يستطيع ابنك أن يكمل الطريق أيها الوزير، لقد التوت قدمه والمسافة طويلة»

جلس الأب إلى جانب ابنه، وربت على كتفه مستفهما:

«هل يمكنك العودة يا بني وأنت بهذا الحال؟»

طمأنه إبراهيم قائلًا إنه سيتحامل على نفسه حتى يعود، وحثه على تركه ومواصلة السير، فليس من المناسب أن يصل الملك ولا يجده في مجلسه، يكفيه أنه لم يصعد إلى السفينة. طبع قبلة حانية على رأس أبيه، واستأنف الجميع سيرهم، حتى لم يتبق إلا قلة قليلة في ذيل القوافل السائرة. تمتم ببعض كلمات وهو مازال راقدًا على الأرض:

-وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ

رمقه بعض الرجال بنظرة غريبة، وتولّوا عنه مواصلين السير...

اختفى الجميع، وبقي إبراهيم وحيدًا.. نهض على قدمه التي لم يكن قد أصابها شيء، لقد كان السقم في قلبه، ذلك القلب الذي أحب أباه إلى حد الأمل الذي لا يعرف اليأس طريقه.. القلب الذي رأى وأبصر وأراد أن يرى أهل بلدته ما رأى، ويعلموا بما علم، فيسيروا معه على الطريق القويم. تلك الحسرة التي انبعثت في صدره كلما رآهم ساجدين لبشر أو نجم أو

تمثال من خشب أو حجر، والغصة في حلقه كلما تذكر استخدام النمرود لأبيه وتجارة أبيه؛ لقد أتاه الوحي من الإله الواحد العظيم، ليخبره أن عليه مسئوليات جسام، وأن ارتحاله في درب قاس واعر قد بدأ لتوه، لكن لم يخبره الوحي بعد ماذا سيفعل بالتحديد.

استدار عائدًا إلى المدينة، سار بمحاذاة النهر مفكرًا في سارة، إنها لم تقل شيئًا حتى يومنا هذا، لم تخبره ماذا يدور برأسها، هل تؤمن معه وهل تؤمن به؟ كان الأمر صعب التكهن، سارة ابنة عمه هاران، الذي رحل عن الدنيا منذ سنوات عديدة، حتى لو آمنت سارة، أيُعطيها له أبوه؟ أيزوجها له؟ ذلك السقم في قلبه كان يتلاشى حين تطل سارة من باب الدار حاملة زكائب الطحين أو سطول اللبن منادية على خالتها أميلة، مخبرة إياها أنها قد جلبت ما أرادت، فيهرع إليها ليعاونها على إنزالها من على ظهر البعير. لقد رأت أمه هذا البريق في عينيه، وفطنت للأمر دون أن يبوح هو بشيء.

على مشارف المدينة، رأى خيالها وهو يعلم جيدًا كيف يبدو السراب، هو وهم العطشى الكبير، كلما اقترب الظمآن لم يجده ماء ولم يجد إلا مزيدًا من الصحراء؛ ولكن هذا السراب يبدو حقيقيًا جدًا، فكلما اقترب تبينت له ملامح سارة أكثر، لم يكن وهمًا بل حقيقة. لوحت له بكلتا ذراعيها ليراها، لم تكن تعلم أنه رآها من قبل أن تشرق عليه بطلتها الندية، رآها بعين قلبه ولم يخطىء الفؤاد فيما رأى. اقترب منها، فبادرته قائلة:

«كنت أعلم أنك ستعود.»

أطرق رأسه في الأرض في حياء سائلًا إياها:

-«من الذي أعلمك بذلك يا سارة؟»

باغتته سارة قائلة في حياء: «قلبي أخبرني يا ابن العم.»

هكذا فقد أعلنت المليحة الصبوحة عن مكنون صدرها في أبسط الكلمات، فخفق قلبه واضطرب، لكنه أعاد نفسه إلى رشدها، أراد أن يعلم شيئًا آخر. نظر إلى سارة يسألها:

-«بأي إله تؤمنين يا سارة؟»

رمقته سارة بنظرة يملؤها الإيمان واليقين قائلة:

«إلهك يا إبراهيم...»

وثب قلبه من ضلوعه فرحًا وسرورًا بما سمع لتوه.. سارا لساعة من الزمن، أخبرته سارة كيف أنها شعرت في نفسها بالفخر بما يفعل وبدعوته للناس..

-«قلت لنفسي ونعم ابن العم.. وكتمت هذا الفخر في نفسي.»

حين شارفا على أبواب المدينة، حثها إبراهيم على الذهاب إلى بيت خالتها وأن تبقى هناك، فسألته سارة:

«إلى أين أنت ذاهب؟ لا يوجد أحد بالمدينة.»

نظر إليها نظرة طويلة، ليملأ عينيه من ملامح وجهها الجميل..

«ذاهبٌ إلى ربي، عسى ربي أن يهديني سواء السبيل.»

كانت كلماته غامضة، لم تفهم سارة منه شيئا، أين سيذهب وبمن سيلتقى، لم تكن تعلم؛ لكنها تثق به وتثق بربه. افترقا كلّ في طريق مغاير عن الآخر، وفي قلب كل منهما أمل بتقاطع السبل قبل غروب شمس اليوم.

ما قبل الخروج

المدينة الخالية من أنفاس الخائبين يهب نسيمها الآن كعطر مُزهر؛ لِدنس الفكر رائحة ولِرجس الأفعال أثرٌ يُترك على اليابسة. كأن الكل يعلم بالأمر إلا بني البشر، الشجر والنجوم والدواب، الجبال والشمس والقمر، الكل يعلم الحقيقة ويُبدي حزنه إذا ما طُمست. الآن، تنفست الأزقة وابتسمت الديار وانحنت الأشجار لنسمات الهواء التي تداعب أغصانها.. ذهب أهل الشر، ولم يتبق أحد إلا بضعة من أهل الصواب. سار إبراهيم مفكرًا في خطوته التالية، يشعر براحة شديدة في قلبه من خلاء الأرض من حوله، إلا أنه كان عازمًا على شيء ما. على قارعة السوق الخالي، أبصر ابن أخيه هاران جالسًا في سكون تام، فاقترب منه مقبلًا رأسه..

-«مابك يا ابن الأخ، تجلس هنا لا تحرك ساكنا؟ لماذا لم تذهب إلى بيت شيخك؟»

-«أردت أن أستنشق شذى الأرض من دونهم يا عمّ.. ما أثقل الهواء الذي يشاركوننا في تنشمه.»

جلس إبراهيم إلى جانب لوط، وأحاط كتفه بذراعه، وظلّا في صمت تام، «ما أعز الأخ وابنه...»، استغرق في أفكاره مسترجعًا أيامًا عاشها مع أخيه هاران.. كان أقرب الإخوة إلى قلبه، لكنه مات مبطونًا، لم تتمكن الآلهة من شفائه ولا إنقاذ روحه. تعذّب أبوه كثيرًا وهو يرى شجرة ابنه تذبل كل يوم، يشحب وجهه وتستحيل شفتاه إلى البياض، تنتفخ بطنه ولا يجدى معه دواء العرّافين، ولا تُسمع تضرعات آزر للإله بعل. ترك هاران في قلب إبراهيم جرحًا عميقًا، مالبث أن تحول إلى ندبة لا يمحو الزمن آثارها، وترك له «لوط»، الذي خفف وجوده من وطأة الحزن الجاثم على قلبه لفراق أخيه.

نهض إبراهيم مخترقًا الصمت العظيم الذي خيم على الفتى والعمّ..

-«علينا أن نذهب إلى بيت الشيخ الآن يا ابن أخي...اتبعني»

سار لوط وراء عمه دون أن يسأل، لم يكن على أي حال يسأل عمّه عن أي شيء، كان يطيعه فقط، فهو الأب والصاحب والسند. ولج عمّه إلى دار ناحور، ولحقه لوط، توجه إلى باحة الدار الخلفية، حيث تعلق فأس على أحد الجدران، التقطه وأرقده على منكبه الأيمن، هرع إليه الشيخ متسائلًا عما يحدث، فأجابه إبراهيم في لهجة يملؤها التصميم، مفعمة بالثقة:

-«لا يتبعني أحد إلى حيث أذهب.»

جال ببصره بين جده وابن أخيه بنظرة مُحذرة، وانصرف.

المعبد الكبير

تقدم إبراهيم في البهو العظيم للمعبد، الذي خلا تماما من مرتاديه. سار فيه من قبل مرات عديدة، مرافقًا أباه الذي كان يأتي بالطعام للآلهة، ويعرّف ابنه بطقوس العبادة ليحبّبه في الدين. انغمس في بئر عميق من الأفكار، لم تكن الأصنام إلا خشبًا وأحجارا، الخطر الأعظم كان في أصنام النفس، هل يُجدي كسر الحجارة إن لم تُكسر أصنام النفس؟ إن لم يتلاشى حب الدنيا من القلوب وتحتجب النفس عن حب الرئاسة والجاه؟ كان يعلم أن أصنامهم تكمن في ذواتهم، ولكنه سيفعل ما عليه فعله، ربما تنكسر أصنام نفوسهم.

maktabbah.blogspot.com

فى منتصف البهو، قبع تمثال الإله مردوخ شامخًا عاليًا، في عينيه جوهرتان تضيئان في نور المعبد الخافت، وعلى يمينه ويساره الآلهة إنانا وشمس وعشتار وأوتو و إنليل وآلهة أخرى لا حصر لها.. أبصر أواني الطعام والخمور والنبيذ التي تركها القوم تحت أقدام آلهتهم ليأكلوا منها في غيابهم، تفحصهم مليا موجها الحديث إليهم جميعا:

-«ألا تأكلون...؟»

تردد صدى صوته في المعبد الكبير، وانتظر أن يجيب أحدهم، لكن لم يجب أحد، فواصل محدثا إياهم:

-«مالكم لا تنطقون...؟»

لم يجب أحد، لا كبيرهم ولا صغيرهم، فغلى الدم في عروق الفتى الكريم، أنزل الفأس من على كتفه متناولًا إياه بيمينه، وراح ينهال عليهم ضربًا مبتدئًا بالحواف.. بقر كل صنم عند حافتيه، ثم لم تهدأ فورته حتى جعلهم جذاذًا. هدأت نفسه إذ أبصر القطع المتناثرة على أرض المعبد.. لم يقترب من مردوخ، سيكون هو حجته على القوم إذ يرجعون. اتجه إليه وتسلقه حتى وصل لرأسه، وعلّق الفأس في عنقه.. ألقى نظرة أخيرة على المعبودين قليلي الحيلة، وتولّى عنهم مبتعدا، يتلمّس بعضًا من الهواء النظيف.

خارج المعبد، كان ينتظره مذعورًا ومسرورًا في آن واحد لوط، الذي شهد الأمر برمته. هالته شجاعة غفه، فهو على وشك أن يواجه طوفانًا من الغشم والطغيان، لقد تمنى في نفسه مرارًا أن يفعل ذلك، لكن شجاعته لم تكن عونًا له في تحقيق مناه.

رأى إبراهيم ابن أخيه عند الباب الكبير للمعبد، فتوجه إليه وتنحى به في ركن بعيد عن الأنظار؛ لم يكن هناك أحد في المدينة على أي حال، ولكن أراد الغم أن يحمي ابن أخيه؛ ففي النهاية هو الذي قام بهذا الفعل وليس لوط. قال إبراهيم في صوتٍ خفيض:

-«ألم أحذرك من أن تتبعني يا ابن أخي؟»

-«لا يمكن ألّا أتبعك يا عمي، كيف لا أتبعك؟ أنا أتبعك منذ فتحت عيني على الدنيا.»

سارا في المدينة الخالية، قال لوط في سرور:

-«ونعم الرجال أنت يا عمّ... ونعم الرب ربك، ماذا نفعل الآن؟»

توقف إبراهيم، ووضع كلتا يديه على كتفي ابن أخيه..

-«لا تتفوه أنت بكلمة يا لوط، وأنا سأنتظر قضاء الله»

حثّه ابن أخيه على الهروب، ولكن أبى إبراهيم، أخبره أنه مازال عليه أن يواجه هؤلاء، وأن يدحض حجتهم..

-«سيقتلونك....» قال لوط في قلق

قال له إبراهيم وهو يبتسم ابتسامة حانية ويربت على كتف ابن أخيه:

-«وهل يحدث شيء إلا بإذن الله؟»

في هذه الليلة، أدرك ناحور أن ابن ابنه قد ارتكب أمرًا عظيمًا. تفحص في وجهيهما متشككا، فلم ينطق أحدهما بشيء، وساد صمت عظيم. سبقت تدابير الأقدار حماية ناحور لابن أخيه، وهل يجدي الكلام الآن بشيء؟ آوى إلى فراشه وقد سلم مقاليد الأمور للإله الواحد الأحد، الذي جعل عروق الإيمان تسري في روحه ومنها إلى أحفاده، على الرغم من الظلمات الطاغية التي جثمت على أنفاس الدنيا حتى بدا أنه لم يعد هناك بصيص من نور.

عند إشراقة أول خيط للشمس، شمعت همهمات الأفواج العائدة إلى المدينة، يترأسهم الكهنة الذين نزلوا للتو من السفينة المقدسة، وقصد الكل المعبد، لاستكمال الطقوس. حتما قد باركت الآلهة في الطعام بعد أن أكلت منه، سيجدون أصنافا شهية من الزاد وسيشربون النبيذ، ما أجمل هذا العيد. سرور لحظي، ما لبث أن انقلب إلى فزع كبير، حين وقفوا عند أقدام الآلهة المتكسرة.. رفع الكاهن الكبير بصره متفحصًا الإله مردوخ، فإذ بالفأس متدلية من عنقه!

سرعان ما لحق الملك بهم ليشهد الطقوس المتممة للعيد، فأبصر ما أبصر الآخرون، وتناهت إلى مسامعه أصوات الكهنة الذين يهمهمون في وجلٍ عظيم متسائلين: مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ

صرخ فيهم الملك غاضبًا، فساد الصمت للحظات، حتى خرجت أصوات من بين الحشود

المجتمعة في المعبد تجرّؤا وقالوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ

هدأ النمرود قليلًا، ونادى طالبًا ممن شهدوا بذلك أن يتقدموا إليه، فتقدم بضعة رجال بين يدي الملك، يخبرونه عما سمعوه من إبراهيم وهم يخرجون من المدينة..

«أيها الملك العظيم، لو فطنّا إلى مقصده، ما كنا لنتركه يعود إلى المدينة.»

maktabbah.blogspot.com

«أحضروا إبراهيم فورًا، لنحقق معه على أعين الملأ من الناس، وليشهد الجميع.» صاح الملك آمرًا وزراءه

امتقع وجه آزر، الذي كان يقف عند باب المعبد يشهد الأمر مع الشاهدين، وكان قد أوجس في نفسه خيفة منذ تعلل ابنه بالسقم وتخلف عن الجموع، وعاد أدباره إلى المدينة. شاعرًا في قلبه خوفًا عظيمًا، لم يحس بنفسه إلا وهو يعدو ليمتطي حصانه، ويسبق الجنود إلى دار ناحور، ليحثُّ ولده على الفرار.. سيقتلونه حتما.

وصل إلى دار أبيه ناحور.. عند باب الدار، وعلى حصيرة امتزجت بتراب أديم الأرض، جلس إبراهيم في سكينة تامة، إلى جانبه لوط. ركض آزر إليهما لاهثًا، يتصبب وجهه عرقًا، ويبادرهما بكلماته الممتلئة بالذعر:

«يابني، لقد اقترفت إثمًا عظيمًا، اخرج من المدينة على ظهر هذا الفرس، لقد عبثت بالآلهة، سيقتلونك، إنه أمر لا يغتفر، أسرع يا بنـ.....»

قاطعه إبراهيم في حلم وأناة من لم يرتكب ذنبًا ولا يخشى شيئا،

-«يا أبت لا تخف، إن الله معي...»

-«أينقذك إلهك من بطش القوم؟»

نهره آزر في حنق، ولكن تناهت إلى مسامعهم أصوات الأحصنة تضرب بحدواتها على الأرض، فلم يعد لدى آزر وقت لإقناع ابنه بالفرار. نظر في الأفق القريب، فرأى الجنود يقتربون بخيولهم، يثيرون غبارًا كثيفًا على الطريق. لم يختبئ إبراهيم، بل تقدم فوقف أمام أبيه، موجها وجهه نحو العسكر، وآزر يكاد أن يبكي وهو يوقفون ابنه ويوثقوه، ثم امتطوا ظهور الخيل وأحدهم يمسك بزمام الحبل الذي أوثِق به إبراهيم، وساروا به إلى المعبد الكبير. وقبل أن يختفي الركب عن الأنظار، رمق «تارت» كبير الجند آزر بنظرة يملؤها التشفي.

هذا الطريق أيضا سيؤدي إلى الله، هل يوجد طريق لا يؤدي إليه؟ فكر إبراهيم وهو سائر خلفهم. مربوطتان يداه، لكن قلبه حر طليق، كطير حلّق في السماء وابتعد ألف ميل عن

اليابسة، التي دنسها التيه. أسقطت عنه قدرته، فهام وسبح في ملكوت السموات، ولم يعد لأحد عليه سلطان، إلا الذي خلق الأرض والسماء وما بينهما، وما ومن فيهما.

«سيفعل ربي بي ما يشاء» تمتم في سلام تام، وارتسمت على وجهه ابتسامة راضية مطمئنة.

عند المعبد الكبير، احتشد أهل المدينة أجمعون، وما إن أبصروا إبراهيم موثقًا حتى انهالوا عليه باللعنات والسب. شق الجنود صفوف الجماهير ومن خلفهم إبراهيم، الذي أبصر جده وابن أخيه، بينما جرّه الجند بقسوة إلى داخل المعبد، وألقوه أمام الملك.

maktabbah.blogspot.com

متقلدًا أغلى الجواهر، ومرتديًا ثيابه المزركشة، وتاجه المرصع بالماس والياقوت، تقدم النمرود ناحية إبراهيم، وصاح ملوحًا بيده في الفراغ، فصمت الجميع فجأة، ولم يتبق إلا الفتى في مواجهة الملك، الذي رفع بصره إلى مردوخ بأسى، ونظر إلى بقايا الآلهة المتناثرة على الأرض، ثم توجه إلى إبراهيم بالسؤال:

-أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم

-نظر إبراهيم في عيني الملك مباشرة، وأشار إلى مردوخ، قال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون

وكأن صفعة قوية قد انهالت على وجه الملك.. تراجع إلى الخلف خطوات قليلة، جال ببصره بين الكهنة والوزراء، بينما تردد صدى همهمات الورى في جنبات المعبد، يراجع القوم بعضهم بعض. يتناهى إلى مسمع الملك همس بعضهم: «إنكم أنتم الظالمون...»، «كيف لم يستطع الإله الأعظم أن يدفع عن الآلهة الأخرى ولا عن نفسه الضر؟»، «أهذا الذي نرتجي منه النفع ونلجأ إليه عند الضر؟». أحس الكهنة بهول ما يحدث وتبادلوا النظر مع الملك، الذي صاح في الجموع مرة أخرى ليلتزموا الصمت.. سرى الخوف في أوصال الجموع الغفيرة، فقال أحدهم مجادلًا إبراهيم:

-«لقد علمت أن هؤلاء لا ينطقون...كيف تطلب منا أن نسألهم؟»

اختلط الأمر على الجميع، من مراجعة النفس إلى المجادلة المبنية على الخوف من بطش الملك وجنده، هكذا فإن المخافة من البشر تُبطل من عمل العقل. شهد إبراهيم الأمر كله ما بين مراجعة ومجادلة، رهبة وتراجع عن الحق، الذي كان يعلم يقينا أنه قد ألقي في قلوب الكثير من المحتشدين، قال لهم كلمته الأخيرة في صلابة وثبات:

-أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم.. أف لكم ولما تعبدون من دون الله

أفَلَا تَعْقِلُونَ

واصل كلماته في غيظ مكتوم تشوبه شفقة عليهم وجلم بهم، لعلهم يهتدون:

«إن أردتم الذهاب لمن ينفعكم ويدفع عنكم الضر، يميتكم ويحييكم، يبرئكم من السقم، يعطي لكم الرزق، فاكسروا أصنام أنفسكم وحطموا شهواتكم بهذا الفأس الذي في عنق من لا يضر ولا ينفع، كونوا ربَّانين، غيّبوا أنفسكم عن أنفسكم حتى الفناء في الرب.. ثم عند ذلك، ليعطكم الله كل ما أردتم.»

ألقى إبراهيم بسهام كلماته في قلوب الناس، ولكن العقل مَفسدةٌ إن كان وسيلة للشر. تقدم رجل من أعراب فارس إلى الصفوف الأولى، واستأذن الملك في الكلام، فأذن له:

«هذا الرجل يريد أن يصدنا عن آلهتنا التي عبدناها لسنوات طويلة، ولم يكتفِ بذلك، بل جعلهم جذاذًا، أقول - والحكم لك يا أيها الملك العظيم - حرقوه وانصروا آلهتكم، وإلا تكونوا قد فرطتم في نصرتها.»

ارتفعت الهتافات تؤيد مشورة هينون، وسر الملك بالفكرة، وانفرجت أسارير الكهنة، وصدر الحكم الأخير على إبراهيم..

الحرق لمن أذل الآلهة.

المحرقة

انبلج الصبح، وكسا نور النهار زوايا وأطراف المدينة الظالمة. خرج حفنة من الرجال إلى قرية كوثى، وانهمكوا في بناء حظيرة من جذوع شجر السنط.. خرجوا بأمر من الوزير الكبير، بعد استشارة الملك للكهنة والوزراء، أجمع الجميع أن المحرقة يجب أن تكون عظيمة لم يُر مثلها من قبل. احتاروا في مكان آمن، لا يأتي منه ضرر على أهل المدينة، فاقترح أحد الوزراء أن تكون على أطراف المدينة. قال لهم الملك إنه لا يحتمل وجود إبراهيم في سجن القصر، فأشاروا عليه بوضعه في حظيرة بالقرب من مكان المحرقة.

تواصل العمل على قدم وساق، وقد أمر كبير البنائين بأن يُترك السقف عاريًا، ولتأكل الشمس رأس الفتى ويُترك في الطل فيموت ألف مرة قبل أن يُحرق. على مرمى البصر من مكان البناء، تبادر جمع من أهل المدينة بالمجاريف، وشرعوا في الحفر، يحثهم كبيرهم على الهمة، ويأمرهم بجدية قائلا:

«لابد أن نحفر حفرة عميقة، سيستغرق الأمر وقتًا... إذا نال منكم الجهد تذكروا عزة الآلهة، التي ستكافئكم حتما على هذا العمل العظيم.»

فى مدينة أور، انزوى آزر في ركن قصي في الدار، حزينًا مضطربًا، يتناهى إلى مسامعه صوت بكاء أميلة صادرًا من حجرة ولدها إبراهيم. لم يذهب إلى مجلس الملك منذ يومين، ولم يستدعه هو. لقد تهدم كل ما بناه، فقد صيته وسمعته واحترامه عند الملك، وصار الولد على وشك الهلاك.. انحسر الزائرون عن الدار، لم تأتِ النساء اللواتي كن يترددن على زوجه دوما، فقط سارة جلست إلى جانب خالتها تواسيها وتبكي هي الأخرى، لا شيء سيجدي الآن، وما يملكون إلا انتظار وقوع البلاء في حينه. أطل ناحور من بعيد على ابنه آزر، لم يره على هذا الحال من قبل، إنها مصيبة كبيرة.لم يكن بيده شيء، الأمر الآن بيد الله، وهو يعلم أنه موجود، وأن ما يريده سيكون، ولكن ضاق صدره ولم يعد يستطيع أن يحتمل الجلوس. انطلق متكئا على عصاه، يرافقه لوط، يسيران في شوارع المدينة بلا هدف. لم يخشَ ناحور من النظرات النارية التي رمقه بها الناس، لقد تعوَّد على ذلك، هم قوم عاصون منافقون، لكن في ذلك اليوم كانت الحركة على غير المعتاد في السوق وفي الأزقة المؤدية إلى البيوت.. سمع امرأة تتحدث إلى جارتها قائلة « لئن تحقق الذي في خاطري، لأحطبن حطبًا في محرقة إبراهيم»، أجابتها الأخرى قائلة «وأنا أنذر حطبًا إن شُفيت من دائي».

سارا ناحور ولوط، حتى أصبحا بمحاذاة النهر، فأوى ناحور إلى صخرة ليستريح من المشي. جلس يتأمل صفحة النهر المنساب في اتجاه الشمال، وإلى جانبه تربع لوط، يتبادلان

الصمت لبرهة من الوقت، حتى كسره تاحور قائلا:

«الرياح تهب من الجنوب يا بني، الماء يُطفئ النار، والريح تذكيها، والأمر كله لله.»

أربعون يوما، يمر اليوم منها كألف عام على آزر وأميلة وسارة وناحور ولوط، الأسرة المنبوذة. لم يرسل الملك في طلب آزر منذ اليوم المشهود، وفي السوق لم يشأ أحد أن يبيعهم الطعام، وحين خرجت سارة لقضاء بعض الطلبات للدار، سبّتها النساء في السوق، فعادت إلى خالتها باكية، فاحتضنتها وهدأت من روعها، قالت لها مطمئنة إياها:

«لدينا ما يكفي من الخزين يا سارة، سنتدبر الأمر.»

تماسك الجميع، حتى بدأ الناس في الخروج إلى كوثى، ليشهدوا حصيلة نذورهم. لم تقو أميلة ولا سارة على البقاء في الدار، فانطلقتا سويا إلى الحفرة تتفقدان، فوجدتا ناحور ولوطًا يقفان عند الحافة، يشاهدان بأسى وحزن العمق الممتلئ بصلاب الحطب من أصناف الخشب المختلفة، والرجال والنساء يصلون للآلهة كي تقبل نذورهم. ثم تقدم بعض الرجال يمدون أيديهم بالمشاعل لإضرام النار في الحطب المتكومة بعضها فوق بعض في الهوة العميقة.. فزعت أميلة، التفتت بوجهها تجاه الحظيرة التي سُجن فيها ابنها، شقت الصفوف مبتعدة عن حافة الحفرة تهرول إلى الحظيرة، فتبعتها سارة تحاول أن تدركها قبل أن تقدم على ما يضرها..

«يا خالة ما أنت بفاعلة؟»

«أرغب في التحدث إلى ابني.»

حاولت سارة أن تثنيها عن عزمها، سألتها إن كانت لا ترى الجند الواقفين حول الحظيرة.. لم تسمع أميلة شيئا مما قالته سارة، أرادت فقط أن تكون إلى جانب ولدها، حتى لو كلفها الأمر حياتها، فلتكن معه في الموت كما كانت معه في الحياة، أو ربما تهبه كلماتها الحياة، فهي التي وهبته الحياة من بطنها..

«يا ليتني ما ولدته...أولدته ليموت كما مات أخوه؟ إبراهيم يا قلبي، إن نزعوا منك الحياة فقد نزعوا مني الروح.. أيعيش أحدٌ دون قلب يا سارة؟»

أوقفتها سارة قائلة: «دعينا نفكر قليلًا فيما سنفعل، دون أن يصيبك ضرر يا خالتي.. لا تُحزنيه بضررك يا خالة.»

حول الحظيرة داراتا المرأتين، أبصرتا العسكر عند مدخل الحظيرة، بينما ترك الحرس الآخرون أماكنهم حين علت ألسنة اللهب من الحفرة، يريدون أن يشهدوا الأمر في بدايته.

اقتربتا المرأتين من الجدار الخلفي، والتصقت أميلة على الجدار بخدها، الذي تساقطت عليه الدموع حارة غزيرة، وهمست في صوت متحشرج:

«يا ولدي.. إبراهيم... مهجة قلبي...»

«أمي... ما الذي أتى بك إلى هنا يا سيدة نساء بابل؟»

«أأتركك هنا وحدك يا قرة عيني؟ فداك روحي يا ولدي، إن أحرقوك يحرقون فؤادي.»

« لا تخافي ولا تحزني يا أماه، واعلمي أن الله معنا، إن رحلت أنا يا أمي فإن الله باقٍ لا يرحل ولا يموت...لا تعبدي إلا إياه من بعدي.»

أجهشت أميلة بالبكاء، فهرعت إليها سارة التي رأت نفرًا من الجند عائدين..

«هيا يا خالتي، سيرانا الجنود...»

«اذهبي يا أمي الآن، ولا تبكي إن كنت تحبين ابنك.» أضاف إبراهيم في حنان: «عديني إن نجوت أن تزوجيني بسارة.»

«أعدك يا قطعة من روحي، فلتعش أنت، ولتكن سارة قدرك ونصيبك.»

انصرفتا المرأتان مسرعتين في حذر حتى ابتعدتا وذابتا في وسطٍ زحام الجموع، بينما تصاعدت ألسنة اللهب فلفحت الوجوه فبدأ الناس في التراجع إلى الوراء. شهقت أميلة شهقة رعب من ارتفاع ألسنة اللهب، صرخت من الألم الذي يعتصر قلبها، وضمتها سارة بين ذراعيها وسارت بها عائدتين إلى المدينة منهارتين. عند خروجهما من القرية، تناهى إلى مسامعها حديث أحد الجنود مع رفيقه وهو يتأمل من بعيد في ألسنة النار المتزايدة، «يومان بالكثير ويحرقون الفتى، اللهب ينمو بسرعة كبيرة»....

لطمت أميلة خديها، بينما تدفعها سارة بعيدًا عن الجند، ترفعان رأسيهما في السماء تتمتمان بالتضرع لإله إبراهيم أن ينجيه. مر فوقهما سرب من الطير يسبح في الفضاء مجتازا اللهب، فاحترقت بعض الطيور وسقطت في النار، وتفرق السرب وطار ما نجا من النار بعيدًا. تابعتها أميلة في جزع، فوقفت مكانها والتفتت وراءها.. صهد الحريق صار يلفح وجوه القوم، فيتراجعون إلى الوراء بعيدًا عن حفرة النار.

في الدار الكبير، بيت آزر، جلس ناحور واضعًا رأسه بين كفيه. ما إن وقع بصره على أميلة الشاحبة الوجه، فأشاح ببصره عنها؛ لكنها اقتربت منه بأسارير متوسلة، لربما يزد قوله نار قلبها.

«يا شيخي، أحقا يحرقون إبراهيم عند شروق شمس الغد؟.. لن يقدروا على فعل ذلك، أليس كذلك؟.. لقد أشعلوا نارًا لا يمكنهم حتى الاقتراب منها...»

نظر إليها ناحور مترددًا، ماذا يقول لها؟ أيخبرها أن الشيطان قد أوحى إليهم بوسيلة للزج بابنها في أتون اللهب؟ أيخبرها أنهم صنعوا منجنيقا وأن ولدها غدا شيطير في الهواء ويهوي في السعير المشتعل؟ لا يمكن أن يحرق قلب أم على ولدها قبل أن يحترق الولد، لتشرق الشمس ولتفعل الأقدار ما تشاء. أجابها بصوت هادئ مستسلم:

«سيفعل رب إبراهيم بإبراهيم ما يشاء.»

لم يغمض لأحد جفن في تلك الليلة، أوى أهل البيت المنكوب كُلّ إلى زاوية، ملتحفًا بحاله وما حوى القلب من خوف وحسرة، وأمل في ألّا تطلع الشمس، وأن يسود الليل حتى أبد الدهر، فلا يموت إبراهيم.. خطب عظيم ذلك الذي ألمّ بدار آزر، أنّب نفسه كثيرًا في وحدته أن كان يجب عليه إدراك أن ابنه هو الولد الذي ذبح الملك مئات الأطفال من أجل ألّا يولد، كان عليه أن يعي منذ اللحظة الأولى التي جادله فيها إبراهيم أن هذا هو الولد المنشود، ألم يُحاججه مرات ومرات في شرف الآلهة وعزتها؟ ألم يتوعده بالهجر؟ ألم يطرده من الدار؟، «لقد فعلت كل ما يمكن أن تفعله يا آزر.» تمتم لنفسه ودموعه تتساقط على قدم صنم الإله مردوخ.

أوشك نور الصباح على البزوغ من شرنقة الليل الحالك، مر الوقت سريعا على آل ناحور، فهمُّوا جميعا بالمسير في الهزيع الأخير من الليل نحو الحفرة الملتهبة، يهرولون بخطى سريعة، حتى أميلة التي خارت قواها ولم تقوَ قدماها على حملها تتعجل خطاها وتأبى أن تتعكز على ذراع سارة. في الليل البهيم، كسا الحزن وجوه ناحور وآزر ولوط، لكن تماسك الرجال عن البكاء كي تقوى قلوب النساء.

بدت لهم ألسنة اللهب من بعيد، وجموع غفيرة تقف على مبعدة من الحرارة اللاهبة. على الجانب الآخر من الحفرة، أبصرت أميلة بنيانًا شاهقا من الخشب، تحده عجلتان على جانبيه. لم تفهم شيئا، التفت إلى آزر هامةً بسؤاله، لكن علت أصوات الجموع حين شق الجنود زحام الناس، ممسكين بزمام حبل إبراهيم الذي أحكم وثاقه، فينزاح الناس إلى الجانبين ليسمحوا لهم بالمرور، وتتعالى الهتافات المنكرة للفتى الذي فسق عن آلهتهم وأسقط عزتها.

وفي الملكوت، صاحت السماء والأرض ومن فيهما من الملائكة والطير والدواب والهوام، مُحدثين الإله الواحد الأحد مناجين:

«يا ربنا، إن إبراهيم ليس في الأرض أحدٌ يعبدك غيره يُحرق فيك، فأذَن لنا بنصرته.»

قال لهم الله تعالى «إن استغاث بواحد منكم فأغيثوه»

تشاور الملائكة فيما بينهم، فتقدم نحو إبراهيم مَلك المياه وخازن الريح، وأحاطوا به يمنة ويسرة.. قال له ملك المياه: «إن أردت أخمدت النار، فإن خزائن الأمطار والمياه بيدي.»

وقال خازن الريح «إن شئت يا إبراهيم طيّرت النار في الهواء.»

نظر لهم إبراهيم قائلًا في استسلام تام: «لا حاجة لي إليكم.» ثم رفع بصره في السماء مناجيا ربه «اللهم إنك في السماء واحد، أنا في الأرض واحد أعبدك.»

maktabbah.blogspot.com

توجه الجند رأسا نحو الآلة الخشبية، فجرّدوا إبراهيم من ملبسه، وربطوه في ساريتها، ثم بدأوا في رفع الحبال، فارتفع الفتى حتى وصل إلى رأس البنيان. أعطى كبير الكهنة إشارته لكبير الجنود، فانهال على الحبل المربوط في سارية المنجنيق، فقطعه بضربة سريعة، فطار إبراهيم في الهواء. صاح في علياء السماء قائلا: «حسبنا الله ونعم الوكيل....»

هللت الجموع، فلم يسمع أحد صرخة أميلة المدوية التي شقت عنان السماء.. طار إبراهيم في الهواء مسافة عالية، أبصر - في رحلته القصيرة من رأس البنيان إلى عين النار.. أبصر الفلك والملكوت، حفته الملائكة، وهرع إليه الملك جبريل ليدركه سائلا إياه

«ألك مني حاجة؟»

أجابه إبراهيم قائلا «أما لك فلا»

قال له جبريل «فسل ربك»

أجابه إبراهيم «حسبي من سؤاله علمه بحالي»

قال الله تعالى: يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

هوى إبراهيم في قلب النيران المشتعلة.. تعطلت النار في هذا اليوم في كل أركان الأرض، من شرقها لغربها وشمالها وجنوبها.. لم تبق يومئذ نار إلا انطفأت، ظنت أن خطاب المولى عز وجل توجه لها، فما انتفع أحد من أهل الأرض يومئذ بنار، ولم تبق دابةٌ إلا أتت تطفىء النار، إلا الوزغ. أمرت ألسنة اللهب بأن تكون بردًا بلا زمهرير، أمرت أن تفك وثاق إبراهيم، فانفك الوثاق ولم تمس جلده النار.. تلقفته الملائكة، وأقعدوه على الأرض، ذهب الجميع ولم يبق إلا مَلك الظل. نظر إبراهيم حوله، فوجد عينا من الماء، وروضة من الورود والنرجس.. اقترب منه ملك الظل حاملًا قميصًا حريريًا أبيض، فألقاه على كتف إبراهيم قائلا:

«أرسل الله إليك قميصًا من الجنة يا رسول الله.»

انفرجت أسارير إبراهيم، ومد يده في عين الماء، ليغتسل من وعثاء التنكيل الذي ألم به أيامًا طوالًا، رشف رشفة من ماء العين، فبعثت في أوصاله الحياة، فأتى جبريل ودنا منه قائلًا «إن ربك يقول: أما علمت أن النار لا تضر أحبائي؟!».

جثت سارة على ركبتيها من الألم الذي اعتصر قلبها، لقد انتهى الأمر، لقد رحل إبراهيم، ألقوه في النار.. دفنت رأسها بين كفيها وبكت كثيرًا، حتى أحست بيد تربت على كتفها ثم تهزها، وصوت خالتها أميلة مبشرًا:

«ابن عمك حي.. لا تبكي يا سارة، ارفعي رأسك وانظري، مازال ابن عمك حيًا!»

لم تصدق سارة ما سمعت، رفعت رأسها تنظر عبر دموعها إلى النار المضرمة، فلم تر في الأول شيئًا، من أثر السحابة التي خلفها انتحابها، ثم بدا لها إبراهيم خلف ألسنة النار جالسًا وعليه قميص أبيض، وإلى جانبه رجل يتحدث معه!.. لم تكن هي فقط التي رأت ذلك، ولكن رآه الجميع.. لم يصدق الملك ما قالوا، هذا ضرب من الجنون، لقد أصاب الكهنة مسّ، لابد أن أبصارهم قد خانتهم ولم يروا جيدًا عبر اللهب الشديد.. أمرهم أن يبنوا له صرحًا، حتى يصعد فيرى بنفسه، فلما صعد وأشرف على ما بداخلها، وجد إبراهيم يجلس ومعه رجل يشبهه، فنادى عليه قائلا:

«يا إبراهيم، كبيز إلهك الذي بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار حتى لم تضرك، فهل تستطيع أن تخرج منها؟»

أجابه إبراهيم بأن نعم، فقام ومر عبر ألسنة النار المتصاعدة، وخرج منها لم يصبه شيء.

وقف القوم في حال صمت وذهول تام، فما رأى أحد مثل ذلك من قبل، النار لم تحرق إبراهيم، خرج منها وقد خل وثاقه وألبس قميصا حريريا يخطف الأبصار. نزل الملك من صرحه مسرعًا مصعوقًا بما حدث، توجه نحو إبراهيم الخارج من النار فاستقبله متسائلًا:

«يا إبراهيم، من الرجل الذي رأيته قاعدًا إلى جنبك في عين النار؟»

«إنه ملك الظل، أرسله ربي إليّ ليؤنسني فيها.»

تعجب الملك، ولكنه أدرك أنه أمام إله قوي، دنا من إبراهيم قائلا له:

«يا إبراهيم، إني مقرب إلى إلهك قربانا لما رأيت من قدرته، إني ذابح له أربعة آلاف بقرة.»

قال له إبراهيم أن لا يقبل الله منه شيئا، طالما كان على دينه هذا، حتى يفارقه إلى دين الله الواحد الأحد.

«لا أستطيع ترك ملكي، ولكني سوف أذبحها له.»

بهذه الكلمات من الملك انتهى لقاء الملك مع إبراهيم.. ولّى منصرفًا هاربًا من لفح النيران، التي لم تكن قد انطفأت بعد. انتظر الناس ابتعاد الملك، وانسابوا كأسراب الجراد المنتشر نحو إبراهيم، ليروا معجزة الرجل الذي خرج لتوه سالمًا من النار ، بينما تقدم ناحور وآزر وأميلة وسارة صفوف الناس السائرة نحو إبراهيم، حتى وصلوا إليه، فضمته أمه إلى صدرها بشدة، اعتصرت جسده القوي بين ذراعيها وهى تبكي من شدة الفرح.

«لقد عرفت اليوم قدرة إلهك يا ولدي، إنه إله قوي رحيم.»

وقعت عيناه على عيني سارة، فتبادلا النظر، فابتسمت له ابتسامة مملوءة بالسعادة والخجل، بينما تلقاه آزر بين ذراعيه في حنان، قائلا في فرحة شديدة:

«نعم الرب ربك يا إبراهيم.»

هكذا، فقد رُمي الولي بمنجنيق الابتلاء، وألقي في نار الجلال، وتعرضت له الأكوان: ألك حاجة؟ فقال وقد كان مؤيدًا: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى، فقيل له: سل ربك إذًا فقال: علمه بحالي يغني عن سؤالي، فقال الله سبحانه وتعالى لنار الجلال «يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم... لم ير المتوجه الصادق أياما أحلى من تلك الأيام التي ابتلي فيها، كان لابد أن يُبتلى إذ أراد الوصول إلى حضرة الرحمن.. أن يبتلى قبل أن يُمكّن، ويمتحن قبل المصافاة.

سار إبراهيم مع أبيه وأمه وجده وابنة عمه وابن أخيه عائدين إلى البلدة، لقد أقام لتوه الحجة الثانية على قومه، ها هم قد بهتوا لما أثبت لهم أن عبادة الكواكب باطلة، إذ كيف يُعبد الفاني والآفِل، والآن - وبعد أن لم تحرقه النار - فقد علموا أن هناك إلهًا أعظم من كل آلهتهم، فماذا عساهم فاعلون؛ أيؤمنون لربه؟ أيقلع أبوه عن صناعة الأصنام والتجارة فيها؟ أيتوقف عن عبادة الجاه والمال؟ لا يدري، كل ما يعلمه الآن أنه سيستمر في دعوته، حتى لو كلفه الأمر حياته، فأي حياة تلك التي يشعر الإنسان فيها بالعجز ويصاب بداء الاستسلام؟ لم يكن ليستسلم أيا كانت النتائج.

مرت سبع ليال وثمانية أيام منذ ذلك اليوم، آمن لإبراهيم لوط ابن أخيه، أخبره حين عادا أنه معه قلبًا وقالبًا، قال له «أينما ذهبت أذهب معك، وأنا متوجه معك إلى الله ما حييت.».
أما سارة، فقد صرحت بإيمانها التام برب إبراهيم، وباح هو برغبته في الزواج منها، كانت تلك أسعد اللحظات على قلبه، فقد وهبه الله امرأة مليحة الطلعة بهية القلب، يرى في عينيها لمعة الحب فيشعر بالقوة والقدرة على مواصلة المسير، وتزوجا في ليلة مقمرة بمباركة أبيه

وأمه. قبَّل ناحور رأس حفيده وعانقه عناقا حارًا، وقال له في ليلة زفافه: «لقد قرت عين جدك العجوز بك يا ولدي، الآن قد تم تكليفي وانتهت رسالتي.»

علم ناحور أن أيامه قد صارت معدودة في الحياة، وعرف ما لا يعرفه الآخرون، أن هذا الفتى هو رسول من الله وقد كُلف بأمر عظيم. كتم إيمانه، إذ صار جسده هزيلًا لا يقوى على المقاومة، وعلِم إبراهيم بما في قلب جده، فقبّل يديه في تلك الليلة وأدمعت عيناه.

حان وقت الخروج، فقد قاومه الجميع، وحتى تلك اللحظة لم يؤمن له أحد إلا سارة ولوط، حتى بعد أن شهدوا الآيات وأبصروا المعجزة، حتى بعد أن دحض حجة الملك وكسر كبرياءه وغروره أمام الناس، الملك الذي لم يكتفِ بما شاهد ورأى رأي العين ولم يتوقف عند هذا الحد. تصور أنه إله لأنه أوتي المُلك، ونسي أنه بشر، طمس السلطان على بشريته فلم يعد يبصر شيئا، ذلك الملك لم يتوقف، أحس بالكثير من القلق على سلطانه فقرر أن يجادل إبراهيم جدالًا كان هو الأخير والفيصل في قرار الخروج.. دعاه إلى مجلسه، فحضر إبراهيم بين يديه.. سار نحو الملك واثق الخطوات، تقطر عيناه بالمحبة والحلم، ويصدر من قلبه موجات من القوة والصلابة. وقف الكهنة على يمين ويسار كرسي الملك، ووقف الناس ليشهدوا الأمر، إذ دعاهم الملك ليشهدوا على ألوهيته وسقوط الحجج التي صار إبراهيم يصدرها للناس مؤخرًا. صدرت همهمات خافتة من الواقفين عند دخوله ومثوله بين يدى الملك، فرفع كبير الكهنة يده مشيرا إلى الناس بالتزام الصمت، فصمتَ الجميع. جلس الملك منفوشا كالديك مزهوًا بنفسه وملكه العظيم، ثبت بصره على إبراهيم وقال له:

«يا إبراهيم، لدي بعض الأسئلة، عليك أن تجيبها الآن وهنا، على أعين الناس.»

أومأ له إبراهيم برأسه أن سَل ما تريد..

«علمت أنك تدعو بين الناس إلى إله جديد.»

قال له إبراهيم: «وهل هناك إله جديد وإله قديم؟ ليس هناك غير إله واحد أيها الملك، هو الله.»

قام الملك من مكانه، ودنا منه مستجوبا إياه في علو واستكبار:

«ما الذي يستطيع ربك أن يفعله ولا أفعله أنا؟»

قال له إبراهيم: «ربي الذي يحيي ويميت.»

رفع الملك رأسه في غطرسة قائلا «أنا أحيي وأميت...»

صمت إبراهيم، فظن الملك أنه قد كسر شوكته، فواصل قائلا في ثقة:

«أترى أني قد أحضر رجلا يسير في الطرقات وأقتله، وأستطيع أن أعفو عن محكوم عليه وأنجيه من الموت، وهكذا فإنني قادر على أن أحيي وأميت.»

ابتسم إبراهيم لسذاجة ما يقوله الملك، بينما أمر الملك بإحضار رجلين استحقا القتل، فأمر بقتل أحدهما والعفو عن الآخر، ثم التفت إلى إبراهيم قائلا: «أرأيت كيف أحيي وأميت؟»

علم إبراهيم أن المجادلة لن تُجدي مع هذا الرجل ذي العقل الصغير، فقرر أن يلقي آخر وأقوى الحجج، لينهي ذلك الجدل العقيم، قال للملك بصوت هادئ واثق:

«إن الله هو خالق هذا الوجود وسخر الكواكب، وهذه الشمس يأتي بها الله من المشرق، فأتِ بها من الغرب.»

خيم صمت مطبق على القاعة الملكية، عندما بدت علامات الذهول على وجه الملك إذ علم بعجزه.. بهت واكفهر وجهه، لم يدر ماذا يقول، رفع يده في انفعال مشيرا إلى إبراهيم بالانصراف، وانصرف من ورائه الناس.. انصرف بعد أن أخرس الملك بالتحدي، وبُهت الذي كفر.

خرج الجميع من مجلس الملك، وتناثروا على الطرقات متحدثين عما فعل إبراهيم مع الملك، وكيف بُهت ولم يعرف ماذا يقول، بينما انطلق إبراهيم إلى البيت ورافقه لوط. وفي الطريق، أخبر ابن أخيه أنه نوى الهجرة، فلم يعد هناك أمل في هؤلاء القوم، ها هم بعد كل ما شهدوه، حجة تليها الأخرى، يرفضون أن يتخلوا عن الأصنام التي تعشش في عقولهم، كعنكبوت قد نسج خيوطه لمئات السنين، فلم يعودوا قادرين عن التخلي عن هذا السفه. قال له لوط مؤازرًا إياه:

«لقد قلت لك يا عمي من قبل، أينما تذهب أذهب معك...»

توجه إبراهيم إلى بيت أبيه ليدعوه إلى الله مرة أخيرة، لكنه أدرك أنه عدو لله، وأن هذا حال لن يتبدل، قال له إنه سيستغفر له الله، وأخبره أنه مهاجر من هذه الأرض. سمعت أميلة ما قال ولدها لأبيه، فاستقبلته بالدموع وهو خارج من ورشة أبيه..

«أتذهب يا إبراهيم؟ أتتركني هنا وحدي؟»

«لم يعد يمكنني البقاء هنا يا أمي، يا ليتني كنت أستطيع أن أصطحبك معي، لكن في الطريق مشقة كبيرة عليك.»

في صبيحة اليوم التالي، عند أطراف المدينة، أتي ناحور متوكئا على عصاه، مهرولًا يدفع قدميه بصعوبة ليواصل المشي نحو حفيده. وقفت أميلة إلى جانب سارة وإبراهيم ولوط

وقد تجهزوا للسفر، ووضعوا مؤونة الطريق على ظهور النوق الثلاثة. أحاط إبراهيم أمه بذراعيه وقبّل رأسها، ثم انحنى على يد جده ناحور فقبلهما.. نظر إلى أمه قائلًا:

«يا أماه، لا تتركي عبادة الله الواحد الأحد، فهي التي ستجمعك بإبنك يومًا ما، في هذه الحياة، أو حياة أخرى.»

بكى الجميع، حتى آزر، الذي لم يخرج لوداع ابنه ومكث في ورشته يصنع مزيدًا من الأصنام، انتحب هو الآخر لوقت طويل، بينما المهاجرون ينطلقون في طريقهم إلى الله، متوجهين إلى الأرض التي بورك فيها للعالمين.

الصُحف الأولى

قد يكون الطريق شاقًا ومضنيًا، وفراق الأرض التي نمُوت في ربوعها أمرًا عسيرًا على النفس، ولكن ها أنت ذا يا إبراهيم قد خرجت مهاجرًا إلى الله، ومن يهاجر إلى ربه يترك خلفه كل شيء، دون أن ينظر إلى الوراء.. تواردت الأفكار إلى ذهنه، وهو على ظهر الناقة التي تمخر عباب الصحراء، على يمينه سارة وإلى يساره لوط، ومن ورائه بضعة من الرجال الذين آمنوا به وآثروا الخروج معه، إذ لن يقبل أحد في «أور» أمر خروجهم عن عبادة الآلهة. مالت الشمس إلى الغروب، وبدا الإنهاك على وجوه الجميع، بعدما قطعوا قرابة المائة ميل، وأخيرًا أشار لهم إبراهيم بالتوقف للراحة، قائلا لهم:

«حين تشرق الشمس، سننشد الرحال إلى لجش، نصل إلى الفرات، نسقي البعير ونتزوَّد بالماء، ثم نعبر النهر.. وتكون قد وصلنا.»

سأله لوط: «هل نستقر هناك؟»

«بل ننزل بحران، ولكن يا ابن أخي سنمر على المدن ندعو الجميع إلى عبادة الله؛ لن نترك مدينة إلا ونعبرها.»

تفحص وجه ابن أخيه، ليتأكد أنه لم يفقد عزيمته بعد، وأن همته لم تفتر من وعثاء الطريق، وراقبه وقد بدأ في نصب الخيام بمعاونة الرجال. كان فتى قوي البنية، ولكن أراد عمه أن يتأكد من قوة قلبه أيضا، فعزم أن يقرّبه إليه في كل ما يخص دعوته من رحيل وترحال ومجادلات، وغير ذلك من أمور تقوّي بنية العقل وتوقر الإيمان في القلب. في تلك الليلة، سمع إبراهيم صوتا يناديه أن اخرج من خيمتك!.. نهض تاركا سارة تغط في نوم عميق، وتبع الصوت الذي كان يعلم لمن هو؛ فقد أصبح رفيقه على الدرب، والآتي إليه بالرسالات، الملك جبريل. تعمق قليلًا في الصحراء، حتى لاح له الملك الكريم على هيئة رجلٍ أضاء وجهه عتمة الليل، وكسا النور عباءته البيضاء. تقدم إليه جبريل، وناوله قطعتين من الحجر الأملس، على سطحهما كتابات لم يستطع قراءتها في الظلام.. أخبره جبريل بأن هذه هي أول الصحف، وأنه سيأتي له بثمانية أخرى، يقرؤها عليه ويقرؤها إبراهيم على قومه بعد ذلك. شرع الملك الكريم في إلقاء التعاليم والأوامر الربانية على إبراهيم، وواصل يقول:

«أخبرك ببعض ما فيها.. هذه رسالة إلى الملوك في أي قرية تحل بها: أيها الملك المُبتلى المتسلط المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها ولو كانت من كافر.»

واصل جبريل: «على العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه، مُقبلًا على شأنه، حافظًا للسانه؛ ومن

علم أن كلامه شر من عمله، قل كلامه فيما لا يعنيه، والله عن كل محظور يغنيه..»

انتهى لقاء إبراهيم بالرسول، فضم الصحف إلى صدره وأحكم عليها كفوفه، وعاد أدراجه إلى الخيمة.

في الصباح، جمع الرجال الأغراض، وشُد الرحال مرة أخرى. لجش مدينة صغيرة، مثلها مثل مدينة أوروك، يسكنها أقوام لا يعلمون شيئا عن الله. لم يشعر إبراهيم عند وصوله إلى لجش أو أوروك أنه خرج من أور، كان عدد سكانهما أقل بكثير من أور، ولكن بيعت الأصنام في الأسواق، وانتشر درك الحاكم، وهكذا فإنه - وبعد أن آوى سارة إلى خيمة على طرف المدينة، اتخذ في منتصف السوق مجلسًا له، وشرع في الحديث مع الذاهب والآتي، يخبرهم بكل ما كُتب في الصحف وما أملاه عليه جبريل. سأله أحد الرجال عمن يكون، فأخبره أنه إبراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. انبسطت أسارير الرجل قائلا له:

«أأنت الفتى الذي لم تحرقه النار؟»

التف الناس حوله ليروا المعجزة التي عبر نبأها من شرق اليابسة إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها. لم يكن الأمر يسيرًا، لقد اجتمع الناس ليروا إبراهيم، ذلك الغامض الذي لم تحرقه النار، فأراد أن ينتهز تلك الفرصة ويدعوهم إلى الإله الواحد الأحد، فإذا بوجوه الناس تغيرت، وصد عنه الكثير، لا يريدون أن يسمعوا منه ما ينفعهم من الصحف في دنياهم، وما بقيت إلا قلة قليلة تستمع إليه حتى أتم كلامه.

بتلك القلة رحل من لجش وأوروك، قاصدًا بابل، المدينة الكبيرة ذات الأبواب العظيمة، والتي بلغ صيت حضارتها وتقدمها أقصى دروب الأرض...

عند الأسوار المنيفة للمدينة الكبيرة، وقف إبراهيم وأصحابه مطلين عبر باب ضخم مفتوح على مصراعيه، على حركة الناس في الساحة الكبيرة المؤدية إلى السوق. تدرجت البيوت في البناء من مرتفع لآخر، وعلا المدينة قصرٌ شامخٌ أطل على كل بيت، وكل حركة وسكنة في البلدة.. امتزج الجمع مع الناس، حتى وصلوا إلى السوق، وبدأ لوط البحث عن مكان للسكن، فدلّه أحد التجار على أحد البيوت الكبيرة التي يسكن المسافرون غرفها.

أسكن إبراهيم سارة إلى إحدى هذه الغرف، وابتاع لها الطعام، ثم عرج على السوق مع ابن أخيه وأصحابه. في السوق، كانت التماثيل أكثر زخرفة وبهاء، ابتاعت امرأة إحداها قائلة للبائع إنها لم تر أجمل من هذه الألوان في إله: «هذا إله يمكنني عبادته» قالت وهي تحييه منصرفة، بعد أن دست التمثال في جيب ثوبها الفضفاض. انتبذ إبراهيم مكانا شرقيًا في

السوق، مفكرًا.. هذه مدينة كبيرة، من الصعب الدعوة فيها...لا أحد هنا ينظر إلى أحد، فماذا عليه أن يفعل؟ أتاه صوت جبريل في أذنه قائلًا «إن الله معك...».

شرع من مجلسه القصي في جذب الرائح والذاهب من الناس.. سأله أحدهم مرة أخرى - كما حدث في لجش وأوروك - عمن يكون، فأجابه إبراهيم، وقد صار يعلم أن خروجه من النار سبيل ووسيلة ليستمع إليه الناس، فهم لا يؤمنون إلا بالمعجزات، ولا ينتبهون إلا للخوارق. قال له أحدهم إن مردوخ تضيء عينه في الظلام، وأنه قد قرّب له قربانًا ذات يوم ليُرزق بولد، فحملت زوجته بذكرين في بطن واحدة. تحلى إبراهيم بالكثير من الصبر، وجادلهم بالحلم، وألقى عليهم ما جاء في الصحف الأولى، ثم أوى إلى مهجعه دون أن ينتظر ليعلم من آمن بالله ومن لم يؤمن، فما عليه إلا البلاغ، وليس بإمكانه أن يُكره أحدًا على الإيمان. سكن أخيرًا بين ذراعي سارة، وأغمض عينيه، وراح في نوم عميق.

maktabbah.blogspot.com

في صبيحة اليوم التالي، صحا على أصوات متداخلة في ساحة البيت الكبير، فخرج ليتفقد الأمر، فوجد جنودًا!.. همس له صاحب البيت قائلًا: «هؤلاء جنود حمورابي.»

«هل يتزل هنا رجل يقال له إبراهيم؟»

سأل كبير الجنود صاحب البيت، فتقدم إبراهيم من الجندي وقال له «أنا هو.»

جذبه الجندي من ذراعه قائلًا له: «ستأتي معي، الملك يطلبك للمثول بين يديه.»

حمورابي سادس ملوك بابل، ذلك القوي الذي أوتي ملكًا أخضع كل المدن تحت إمرته: لجش وأوروك وأشور ونينوى وغيرهم.. الملك الحكيم الذي أراد أن يوحّد بلاد النهرين، ففعل، وصارت مملكة عظيمة لحمورابي من العراق إلى الشام وما بين ذلك.

maktabbah.blogspot.com

اصطحب الجنود إبراهيم صعودًا إلى قصر حمورابي، وهو معهم يتساءل في نفسه لماذا يطلبه الملك، وفي نفس الوقت يجدها فرصة ليدعو هذا الملك إلى الله.. حتى وقف في صدر مجلس الملك وأمامه يجلس حمورابي العظيم.

تفحصه حمورابي مليا، أهذا هو الفتى الذي ظهرت له كرامات جليلة؟ هذا الذي يعظ الناس في المدينة، ويدعوهم إلى إله أكبر من كل آلهتهم، بل وأيضا يدعوهم ألّا يعبدوا إلا هذا الرب، وأن يذروا آلهتهم الأخرى..

«شوهدت تدعو الناس إلى تعاليم غريبة علينا، فمن أين أتيت بهذه العبر والمواعظ التي تمليها على القوم؟»

«أيها الملك، هذه تعاليم الله الواحد الأحد، أنزلت في الصحف.»

بدا على وجه الملك الإهتمام بما يقول إبراهيم، وسأله: «وما الصحف.؟»

«هي التشريعات الإلهية المُنزلة لصلاح الدين والدنيا، فكيف تصلح حياة العبد دون صلاح علاقته مع ربه، وكيف تصلح شؤون دنياه إن لم يتبع ما نص عليه الله؛ هو وحده أعلى وأعلم بما يُصلح العباد.»

أحس حمورابي بالمزيد من الفضول والرغبة في معرفة ماذا تحوي تلك الصحف، فقد كان رجل قانون، وكان قد بدأ في جمع التشريعات من المدن المختلفة التي أخضعها، وبصدد إصدار تشريعات عامة تسود على كل مُلكه ويحكم بها الناس. سأل إبراهيم إن كان يمكن أن يرى هذه الصحف، فأجابه إبراهيم أنه سيخبره بكل ما حوته الصحف؛ فقد كانت هذه فرصته لنشر التعاليم الإلهية. مكث في ضيافة الملك في ذلك اليوم، وقضى الليلة في قصره. بين يدي الملك، جلس إبراهيم يملي كتبة الملك، وهم يدؤنون كل ما يمليه عليهم. لم يكن يعلم سر اهتمام حمورابي بهذه الصحف، ولكنه شر به وبتدوينه لها، فقد تكون سببًا في هداية الناس.

ترك القصر في اليوم التالي، بعد أن أهداه الملك مائة رأس من البعير. انصرف إبراهيم ولم يؤمن له الملك، ولم يتجادل مع إبراهيم حول إلهه الجديد. عاد إلى سارة في اليوم التالي، فوجدها شاحبة الوجه، فلم تعلم عنه شيئا ليوم كامل، وخشيت أن قد أصابه مكروه، لكن اللون والسرور عادا إلى وجهها ما إن وقع بصرها على إبراهيم وأتاها سالمًا غانمًا.

في بابل الجميلة، مكث هو وسارة لأشهر عديدة. أحس بعد لقائه بالملك أن بإمكانه أن يتحرك بحرية أكبر في نشر الدعوة، لكن أخذ الناس من دعوته ما أرادوا لدنياهم، وتركوا ما أراد لهم إبراهيم من الدين. أخذ حمورابي من الصحف في سن تشريعاته الحاكمة، حتى أتى صباح أحد الأيام، فخرج المنادي ينادي في المدينة أن القوانين قد سُنت. سار وراء المنادي عدد من الرجال، يحملون حجرًا مسطحًا كبيرًا، كتبت على سطحه التشريعات الجديدة، وعلى رأس هذه الكتابة في أعلى الحجر كتبت: «قوانين حمورابي» تجمّع الناس حول الناموس، الذي تم تثبيته في الأرض على مقربة من السوق، واقتربوا ليعلموا ما هي تلك القوانين الجديدة. نادى المنادى في الناس قائلا:

«اعلموا أن هذه هي قوانين الملك حمورابي العظيم، من خرج عنها فعقابه القتل رجمًا.»

وقف إبراهيم وأصحابه ومعهم سارة وسط الناس، الذين أصابهم الخوف والخضوع لما قال المنادي لتوه. بدأ الرجل في إملاء التشريعات على الناس، فانفرجت أسارير إبراهيم لمّا سمع أول تشريع، وهو مطابق لما أُنزل في الصحف. تلا المنادي باقي بنود التشريعات،

فتحولت غبطة إبراهيم إلى شعور غريب، حار أيغتبط لأن حمورابي قد استقى جزءا لا بأس به من التشريعات من الصحف، أم يحزن لأن ما اقتبسه الملك كان لخدمة الأهداف الدنيوية وتنظيم شئون الناس، دون أن يتطرق إلى عبادة الله الواحد الأحد. انصرف من الساحة بعد أن انقض الناس رويدًا رويدًا، لا يدري هل أصاب هدفه في الدعوة أم أخفق في مهمته.. لم يكن يملك من قلوب الناس شيئًا، فالله هو الوحيد المتحكم في أفئدة الناس، لقد خاطب عقولهم وحاول أن ينفذ إلى قلوبهم، ولكن في باطن الأمر فإن الهدى هدى الله. في تلك الليلة، أتاه جبريل مبلغًا إياه أن عليه أن يخرج من بابل، فقد انتهت مهمته في هذه المدينة.

وبالفعل، عند شروق اليوم الذي تلاه، سرج الرجال النوق وجمعوا البعير، متوجهين إلى خارج أسوار بابل. وعلى أعتاب المدينة التي خرج من قلبها شعاع الحضارة، وقف إبراهيم ملقيًا نظرة أخيرة على الصروح العظيمة، والناس المتناثرين كأسراب النمل في طرقات البلدة. دعا لهم بالهداية، وتوجه قاصدًا وجهةً جديدة من وجهات التيه.

عودة إلى الدرب الأحمر

في هذه الغرفة المعتمة، لا يُعرف متى ذهب النهار ولا متى أتى الليل.. ثقلت جفوني وأنا أقرأ، سقطت رأسي على المكتب، فزحت في غفوة قصيرة، أيقظني منها صوت جرس الباب. صحوت من غفوتي غير عالم بالوقت، رأيت من النافذة أن الظلام قد حل، أضيئت المآذن وألقت بأنوارها على قباب المساجد؛ لا أدري كيف مر الوقت بهذه السرعة، فتحت الباب فوجدت أمامي الشيخ عبد الباري الذي التقيته بالأمس في العزاء ولم أتعرف عليه، ولكن الآن، وقد سقطت على وجهه أنوار المآذن الخضراء، فقد تذكرته.. الشيخ عبد الباري وجه لا يمكن أن ينسى، فهو من أوكله أبي بمهمة تحفيظي القرآن، فحفظت نصفه، ثم بلغت فأصبحت أتهرب وأتعلل وأعتذر، وكان قد بدأ البعد بيني وبين أبي، فلم أتم حفظ كتاب الله. الشيخ عبد الباري كان هو الصدر الحنون، حسن الاستماع وكاتم الأسرار، وإن لم يكن لديّ الكثير من الأسرار على أي حال، ولكن مجرد حديثي عن مشاعري تجاه والدي كان سرًا لا يمكن التفوه به، فقد كنت أحب أبي كثيرًا، أو أخشاه، لا يهم، المهم أني لم أرد أبدًا أن أجرح مشاعره أو أن أتجاوز أوامره.

وقف الشيخ عبد الباري على الباب بابتسامته المعهودة.. تغيّر كثيرًا، كسا البياض شعره الذي ظهر من تحت طاقيته ذات اللون الأخضر الداكن، وزحفت التجاعيد إلى وجهه، وامتلأ قليلًا، ولكن ظلت ابتسامته المعهودة لم تتغير، ولم ينطفئ النور في وجهه. لم أدر بنفسي إلا وأنا ألقي نفسي بين ذراعي شيخي القديم وأحتضنه وأقبل يده، أحسست أني قد فقدت الكثير من الوقت، لم أتنعّم لا بنعيم وجود أبي، ولا بأشياء غير مادية أثمن من كل ما قضيت عمري أطمح إليه.. سقطت دمعة من عيني، فأحاط الشيخ عبد الباري كتفي بذراعه، وجذبني إلى الداخل بحنان..

«أوحشتني يا ولد.»

ابتسمت، وقلت بصوت مازالت تملؤه الدموع:

«مازلت تقول لي يا ولد، لقد كبرت يا شيخ.»

رد الشيخ عبد الباري يمازحني: «لم ولن تكبر على شيخك أبدًا.» «هيا بنا، غيّر ملابسك، سنخرج سويا»

«إلى أين؟»

«ومنذ متى تسألني أين وكيف ولماذا؟ ألم أعلمك أن تتبعني فقط حتى تعرف؟»

ابتسمت، وقد أعادت لي كلمات الشيخ عبد الباري صور الماضي وطفولتي البريئة. كان الشيخ عبد الباري دائما يقول لي إن السؤال لمن يريد أن يفهم، أما من يريد أن يعلم لمجرد العلم دون أن يفهم فهو شخص فضولي. «أتريد أن تفهم أم أن تعلم؟» أتذكر هذا السؤال جيدًا، ولأني فهمت، كنت دائما أجيبه بقولي «أفهم يا شيخ، أريد أن أفهم»...

استأذنت، الشيخ وذهبت لتغيير ملابسي، وعند خروجي من غرفة النوم، ألقيت نظرة على دفتر أبي والمخطوطة، قبل أن أغلق باب المكتب، وذهبت مع الشيخ إلى حيث لا أعلم.

فى الدرب الأحمر، وعلى الرغم من أن الكثير من الأشياء لم تبق على حالها، فقد تغيرت واجهات الدكاكين فأصبحت محلات حديثة، لم يتبق إلا دكان الحاج أعلى، الذي كان يصنع الموز الحلاوة، وكنت أذهب إليه دائما لأبتاع منه حلوى الموز المسكرة وهي طازجة، قد خرجت لتوها من الفرن ومازالت دافئة على الصاج. بقى الدكان على حاله، ورحل الحاج أعلى الطيب البشوش، فأدار ابنه الدكان وأبقى على صناعة الموز الحلاوة، وأصبح يرسل منه طلبيات للمحال الكبيرة، تجارة حلال خرجت من صلب رجلٍ ربى ابنه بالحلال. وقفت أمام الدكان أتأمله:

«إدينى كيس يا عماد...» أتى صوت الشيخ عبد الباري من خلفي، وقد قرأ الشوق في قلبي إلى رائحة الماضي. تناول الشيخ الكيس من عماد، وأعطاني إياه قائلا بخفة دم وحنان أبوي:

«خد يا ولد، أنا عارف إنك كنت بتحبه وإنت صغير»

تناولت كيس الحلوى الملونة من الشيخ، وانفرجت أساريري وابتهجت كطفل صغير. عند زاوية الشارع، ظلت قهوة المعلم سعد كما هي، ولكن أدخلت عليها بعض التحديثات، اكتست حوائطها بالقيشاني، واستبدلت الطاولات الخشبية والكراسي من مصنع العفي بطاولات وكراسي بلاستيكية مختلفة الألوان. تقدم المعلم سعد كثيرًا في العمر، ولكنه مازال يجلس عند طاولة الحساب، يعاونه ابنه الذي كبر وقرر أن يحافظ على إرث أبيه. لوّح المعلم سعد بكلتا يديه، بينما مررت مع الشيخ عبد الباري

«السلام عليكم يا شيخنا، اتفضل يا دكتور.»

وضع الشيخ عبد الباري يده اليمنى على الجانب الأيمن من صدره محييا المعلم، ومضينا في طريقنا..

لقد أصبح الشيخ عبد الباري إمام مسجد من مساجد المنطقة، واصل دراسته في مشيخة الأزهر، وأصبح خطيبًا وإمامًا في المسجد، ثم كبير أئمة. أحسست بشيء من الفخر وأنا أسير إلى جانبه، لقد سرت إلى جانب الكثير من الشخصيات المهمة في مجال عملي لكن لم أشعر

بمثل هذا الإحساس، كنت أشعر أني ولد صغير يفتخر بأبيه، فمشيت معه دون أن أسأل، فأينما يأخذني الشيخ عبد الباري هو خير لي.

من منطقة المغربلين إلى أزقة الباطنية عرجنا، وما بين المنطقتين لاحت الأضرحة والمساجد والأبنية الأثرية تحاول أن تبقى صامدة رغم تغير الأيام، تطل شامخة على أصحاب الحرف الذين مازالوا - في ورشهم الضيقة - صامدين في وجه الزمان، يعملون بحرفية شديدة، فترى الزخارف الخشبية المتراصة على جدران الدكاكين، والأعمال اليدوية، والفوانيس المبشرة باقتراب شهر رمضان. نظرت بإعجاب إلى أحد الفوانيس قائلا للشيخ عبد الباري

«أهل الدرب مازالوا قادرين على محاربة الصين في دكاكينهم الصغيرة.»

maktabbah.blogspot.com

ابتسم الشيخ عبد الباري، وتأبط ذراعي وجذبني لنواصل المشي، فمررنا بالعديد من الأزقة حتى وصلنا إلى كنيسة العذراء المغيثة، ثم انحرفنا إلى حارة صغيرة، قال لي الشيخ:

«أتعرف اسم هذه الحارة؟ لقد جئت بك هنا وأنت صغير.»

قلت له «حيضان الموصلي.»

قال الشيخ وهو يسير شاردًا «أتذكر شيئا آخر؟»

أشرت إلى ناحية ما متهللًا: «عربية الفول بتاعة عم إبراهيم.»

ضحكنا نحن الاثنان، وقال لي الشيخ عبد الباري «يبدو أنك جائع، هيا لنذهب إلى عربة الفول.»

على ناصية الحارة، وقف عم إبراهيم خلف عربة الفول.. تقدم في العمر كثيرًا وزحف الشيب إلى رأسه، إلا أن صوته مازال يجذب الذاهب من الحارة والقادم إليه،ا ورائحة الفول المنبعثة من القدرة النحاسية تعبئ المنطقة بأكملها، فلا يمكن لأحد أن يقاومها، وقد امتزجت بعبق المكان وأصله وجذوره، فجعلت للفول الذي يأتي من قدرة عم إبراهيم مذاقًا عجيبًا لا يوجد في أي مكان آخر في الدنيا، ويعود من تذوقه إليه مرة أخرى.

فى اللحظة التي أبصر فيها عم إبراهيم الشيخ عبد الباري، ترك مكانه وراء عربة الفول وركض ناحيته مهللًا مرحبًا بابتسامة عريضة تملؤها المحبة ويشوبها بعض الشجن..

«الشيخ الجليل، نورت الدنيا كلها..»

أشار الشيخ إلي وسأل عم إبراهيم:

«هل تتذكر هذا الشاب الوسيم؟»

قال عم إبراهيم إن «ذاكرته أصبحت بعافية» ونظر إلى خالد قائلا «لا تؤاخذني يا ابني...»

«خالد يا عم إبراهيم، خالد الإكيابي، الذي كان يلتهم عشرة أنصاف وتقول له بطنك سينتفخ، ابن الأستاذ.»

«الدكتور؟»

وضع عم إبراهيم يديه على كتفي مرحبا بي في حرارة، كبر الولد، نظر إليّ محتارًا، أيتكلف معي أم يكون على طبيعته؟ لقد صار الفتى أستاذًا في الجامعة. نظر إليه الشيخ عبد الباري نظرة مطمئنة، تخبره أنني مازالت ابنهم الصغير الذي لا يكبر على من ربّوه، هكذا كانت الأمور دائما بين عم إبراهيم والشيخ عبد الباري، يفهمان بعضهما البعض بالنظرة دون الحاجة إلى الكلام. جذب عم إبراهيم كرسيين بلاستيكيين، ووضعهما بجانب العربة، وأجلسني أنا والشيخ، وعاد إلى موقعه خلف العربة ليعد طلبات الزبائن، وناداني في مرح:

«أحضرلك العشر أنصاف يا دكتور؟.»

ضحكنا، ثم غرق الشيخ عبد الباري في أفكاره، كمن ذهب إلى عالم آخر ولم يبق إلا جسده بجانبي. أخرجته من استغراقه قائلا:

«يا شيخي، أين ذهبت؟ أنت لست معنا هنا.»

نظر الشيخ إلى الجهة الأخرى من الحارة، وأشار إلى مبنى أثري متهدم وقال لي:

«لا أظن أنك ستتذكر هذا المسجد، كنت صغيرًا جدًا حين كنت آتي بك إلى هنا؛ لم تستطع أن تقاوم رائحة فول عم إبراهيم، فلم تكن ترى شيئا آخر.»

نظرت إلى المسجد، فلم أتذكر شيئا.. صمتنا قليلًا، حتى أحضر عم إبراهيم الطعام، فقال له الشيخ عبد الباري:

«لقد خفّ الزبائن، اجذب كرسي واجلس معنا، ولتحكِ لخالد حكاية هذا المسجد.»

«وهل أنا مرشد سياحي؟» قال عم إبراهيم ممازحا

نظر إليه الشيخ نظرة ذات مغزى، فهمها عم إبراهيم فشد كرسي من الدكان المجاور، وجلس أمامنا موجهًا كلامه إليّ وقد بدأت في التهام الأكل أمامي.. أخبرني عم إبراهيم أن هذا المسجد بناه أحد أمراء المماليك في القرن السابع عشر، أما لماذا لم سمي بمسجد الدعاء، فذلك لأن المصريين اتخذوه مكانا للدعاء أثناء وجود الحملة الفرنسية في مصر، في

هذا المسجد دُفن الشيخ محمد شهاب الدين والخربوطلي باشا، وهذا أيضا مقام سيدنا بنيامين شقيق سيدنا يوسف عليه السلام. توقفت عن الأكل، وانتصبت بكامل أوصالي منتبهًا إلى ما يقوله، لوهلة ظننت أني أمام معلومات تاريخية فقط، لكن الأمر اختلف الآن..

«لقد سرق الكثير من هذا المسجد.. أحد المقاولين كلف بترميم المسجد منذ خمسة عشرة عامًا، لكنه سرق الكثير، وكان على وشك أن يسرق المنبر، إلا أن أهل الحي - والعبدلله كان معهم- تصدُّوا له. ذهب المقاول، وسلمنا ما ظننا أنه قيِّم لوزارة الآثار، ولكننا لم نتوقف عن الشكوى. وحين لم تُجدِ شكايانا، قرر أهل الحي ترميم المسجد بجهودهم الذاتية، وكان أبوك على رأس هذا الأمر لأعوام طويلة، وعرض مبلغًا كبيرًا لترميم المسجد.. ولكن قيل لنا إن مصير من يقترب من المكان دون تصريح سيكون الحبس. وقفنا وقفة عند الجامع الأزهر، مطالبين بإعادة المسجد لما كان عليه، لكن لم يحدث شيء.. مسجد الدعاء يا ولدي، بالنسبة لأهل هذا الحي، كان هو الأزهر الثاني.»

نظرت إلى الشيخ عبد الباري مستغربًا وقلت له في صوت يملؤه الدهشة:

«لم أسمع شيئا من أبي عن هذا الأمر!»

صمت الشيخ عبد الباري، لم يشأ أن يقول لي إني لم أكن أزور أبي إلا قليلًا في السنوات الماضية، فكيف أعرف، وبدا أنه قد فكر الآن أنه قد آن الأوان لي أن أعلم ببعض الأمور.

maktabbah.blogspot.com

قال الشيخ عبد الباري: «لم يُذكر سيدنا بنيامين كثيرا في الكتب، أُشيرَ فقط في القرآن الكريم إلى اجتماعه بعد أعوام طويلة من الفراق مع أخيه يوسف.. ولكن بنيامين سر كبير يا بني، وبركة مخفية لا نعلم قيمتها حتى الآن، لا يمكن لمقامه أن يبقى على هذا الحال.»

تنحيت عن الطعام تماما، لقد قرأت لتوي ما حوته تلك المسماة بمخطوطة بنيامين، لم أكن أعلم إن كان أبي قد أخبر الشيخ عبد الباري عن أمرها، فآثرت الصمت، ولكن تشابكت الأمور وتعقدت في رأسي، فقد تركني أبي مع هذه الأسرار لأحل شفرتها وحدي، ولكن ها هو الشيخ عبد الباري معي يكشف لي بعض الأمور.. لم أشأ أن أتحدث حتى أفهم المزيد.

رغم ملاحظة الشيخ عبد الباري أني لم أكمل طعامي لكنه - على غير عادته- لم يلح عليّ، هذه المرة أراد لي أن أترك عالم الحس قليلًا، وأن أنشغل بشيء غير نفسي، التي طمحت إلى الكثير فحققته، وفي خضم هذا الطموح نسيت أن أفهم كنه العالم من حولي. كانت ساعة الفجر قد دنت، وانسابت الآيات القرآنية بأصوات مختلفة عذبة من مآذن المساجد المحيطة، فقطع الشيخ عبد الباري شرودي فيما سمعت وسألني:

«ما رأيك، نصلي الفجر في الجامع الأزهر؟»

لم أكن أداوم على الصلاة في الأعوام الماضية، ربما شغلتني الحياة، أو ربما انشغلت أنا بها كثيرًا.. للمرة الأولى، حينما وطأت قدماي ساحة المسجد الأزهر، شعرت بأني قد قصرت في حق ربي وحق نفسي. لم تكن نفسي تهدأ، لم أكن أنام جيدًا، كنت مجرد مشروع إنسان لا يكتمل، هكذا كنت أقول على نفسي دائما. لامست قدماي رخام الساحة البارد، فسكن قلبي وخشع عند رفع الآذان، واستسلمت للصلاة وزهد فؤادي - لأول مرة - في كل شيء في الحياة، إلا الوقوف بين يدي الله. بعد الصلاة والتسليم، هرع المصلون إلى خارج المسجد - بعضهم في ملابسه الأزهرية، يستعد كل منهم للتوجه إلى رأس عمله. حيا الكثير منهم الشيخ عبد الباري، الذي ابتسم ابتسامة دافئة في وجه الناس، وتوجه بي إلى ساحة المسجد، فأجلسني على الرخام البارد، تحيطنا نسمات الصبح وقد هبط الندى على الأرض الملساء، وحط بعض الحمام على سطح بواكي ساحة المسجد.

تبادلنا الصمت لبرهة من الوقت، أحسست بالخدر في روحي والسكينة في أعماق قلبي فأعرضت عن الكلام، أردت فقط أن أغترف من هذه اللحظات النادرة في حياتي. تركني الشيخ عبد الباري للصفاء، لا يقول شيئا، فقط قبل أن ننهض من مكاننا، قال لي إن عليّ النظر جيدا فيما ترك أبي، وألا أدع وصيته تذهب هباء؛ فعلمت أنه يعلم بأمرها.

لم أصحب الشيخ في رحلة العودة إلى الحي، قلت له:

«اسمح لي يا شيخ، سأذهب إلى مشوار صغير وأعود.»

ودعت الشيخ، وذبت في زحام الصباح.. للمرة الأولى أترجل ولا آخذ سيارتي، عرجت من شارع بورسعيد إلى مديرية الأمن، ثم دخلت في الأزقة المؤدية إلى حي الباطنية مرة أخرى، أريد العودة إلى مسجد الدعاء، أو بالأخص إلى مقام بنيامين. من هو بنيامين، الذي استأثر بأيام من عمر أبي، والآن يشغل عقلي ويأسره؟ وصلت مرة أخرى إلى عربة الفول، ورأيت عم إبراهيم يقف على رأس عمله، لم أضل الطريق، فأحسست أن هذه الحواري التي لعبت فيها وأنا صغير تعرفني جيدًا، وأنا أعرفها حتى لو بدا أنني نسيت. حيّيته بابتسامة قائلا:

«ألا تنام يا عم إبراهيم؟ تركناك بالأمس في ساعة متأخرة من الليل، وها أنت ذا في الصباح الباكر مستيقظ ونشيط.»

«من يَنم يقع يا دكتور، لماذا عدت مرة أخرى.؟»

أرسلت ببصري إلى المقام وقلت له:

«لدي الكثير من الأسئلة يا عم إبراهيم.»

أشار لي أنْ أقترب منه، فدنوت منه، همس لي في أذني متوجها بسبابته إلى لافتة خضراء على يسار باب المسجد المغلق..

«اذهب عند هذا الشباك وانظر..»

سرت ناحية اللافتة، وقفت عند باب المسجد الخشبي المرتفع، متأملًا ما نُقش على جدران المسجد الخارجية من كتابات عربية، طُمست بأتربة الحارة وغبار الأزمنة المتوالية.. على الباب، وُضِع قفل صغير علاه الصدأ، وعلى يساره شباك خشبي صنع بطراز عهد المماليك، تعلوه لافتة خضراء كتب عليها باللون الأبيض: «مقام سيدنا بنيامين شقيق سيدنا يوسف عليهما السلام.»

اقتربت من الشباك الخشبي المصمم بفتحات مربعة يمكن النظر من خلالها، دنوت برأسي حتى استطعت أن أرى ما بالداخل.. غرفة مسدسة ذات قبة عالية، تحت القبة شاهد قبر حجري كبير من الرخام، علته طبقات من الأتربة فأخفت ملامحه، وعلى الجدران بعض المشاكي المعلقة. من الشباك المجاور، أبصرت الأخشاب المتراكمة في ساحة المسجد، الحطام والركام، فأدرت رأسي وعدت أدراجي إلى عم إبراهيم حزينا مطأطأ الرأس، لم أنطق بكلمة واحدة ولم آكل لقمة من الطبق الذي وضع أمامي. مر بعض الوقت وأنا على هذا الحال، ثم ألقيت عليه السلام، وابتلعتني الحارات العريقة في طيات أسرارها، فلم تبرح فكري منذ ذلك اليوم.

آويت إلى مستودع أسرار أبي مرة أخرى، المكتب الذي لا تدخل إليه الشمس، ولربما ستشرق منه شمس أخرى لا يعلم أحد عنها شيئا حتى الآن، ولا أنا نفسي. ما مغزى المخطوطة؟ ولماذا بنيامين الذي انطوى في التاريخ؟.. لماذا اليوم يأخذني الشيخ عبد الباري إلى مقامه، هل طلب منه أبي أن يفعل؟، في ركن على سطح المكتب، وقع بصري على الرقم الذي تركته لي سليمة، فأحسست أنها من يمكن أن تكون لي طوق نجاة. هممت بأن أهاتفها، ولكن توقفت، فمازالت المخطوطة لم تكتمل، ومازلت لم أقرأ من دفتر أبي إلا عدة وريقات، وربما أجد الإجابة بين السطور إن واصلت القراءة. وبما أنه قد تساوى الليل والنهار في هذه الغرفة، فقد قررت ألا أعبأ بالوقت، وفقط سأواصل سبر أغوار الأمر الذي أمامي. تمعنت طويلا في الدفتر الأسود والمخطوطة، بأيهما أبدأ؟.. قررت سريعا.. ومددت يدي إلى الدفتر.. وشرعت في القراءة.

مجتبى الراعي

لم يمهلني ليل الصيف الكثير من الوقت لإكمال المخطوطة، تسلل خيط من النور إلى الغرفة الصغيرة عبر الكوة المطلة على الصحراء، سمعت همهمات في البيت، وأصوات أقدام قادمة نحو غرفتي، أخفيت المخطوطة سريعا في حقيبتي الجلدية، رفع منصور بحياء ساتر القماش الذي انسدل على الباب فوجدني مستيقظا، قال لي إن أباه يدعوني لصلاة الفجر معهم

«الحمدلله أني وجدتك مستيقظا، لم أشأ أن أزعجك...» قال لي وهو يصب لي الماء للوضوء، سألته بعد أن فرغت من وضوئي

«هل تعرف راعيًا اسمه مجتبى؟»

خطر لي أن أسأله، فهو في نفس عمر مجتبى وربما كانا صديقين، لم أشأ أن أركن كثيرا إلى اللقاء غير المرتب الذي اتفقت عليه مع مجتبى، فقد لا يأتي حين أذهب إلى هناك. نظر إلى منصور متعجبًا..

«من أين تعرف مجتبى؟»

«قابلته على الطريق، كان يرعى خرافه، أترعى الخراف أنت أيضا يا منصور؟»

قال لي إنه يعاون أباه في تجارته، تصنع أمه الزبد والجبن ويبيعها أبوه في السوق، ولكن مجتبى قد أجبره والده على رعي الشياه.. أخبرني أنهما يتقابلان كل صباح عند العين ليملئا الماء، ثم يتجه كل منهما إلى عمله، وهكذا فقد عرفت أين ومتى أجد مجتبى، إنه فتى صغير ولكن يبدو أنه حاد الذكاء وطموح، أراد المال فلم أعطه شيئا لأحثه على أن يجد المزيد من المخطوطات، هذه ليست مخطوطة وحيدة، كنت متأكدًا أن هناك المزيد، ولا يعلم الدروب هنا إلا أهل البادية وصغارها بالتحديد إذ تطأ أقدامهم كل شبر من هذه الأرض.

فرغنا من صلاة الفجر، وانبعثت رائحة الخبز الطازج إلى خارج الدار، وضعت أمامنا أم منصور خبزًا طازجًا وجبنًا، وجهزت لنا الشاي. اصطحبني بعدها أبو منصور إلى الموقع، بدأ في الإشارة إلى بعض الصخور بينما امتطينا الجمال، قال لي إنني إذا رأيت صخرة عليها علامة زهرة الأقحوان فأنا إذا على الطريق الصحيح..

«هذه علامات على الطريق، نحن، أهل الوادي نعرف الطرق مغمضي العين، ولكننا نعلم أن هناك الكثير ممن يحتاجون للمياه والطعام من أفراد البعثات وغيرهم، لذلك وضعنا هذه العلامات، فاتبعها لا تضل إذا أتيت إلى هنا مرة أخرى.»

«لماذا لم يخبرني علي بذلك؟ ربما كان لا يعرف.» تمتمت لنفسي

مررنا بعين الماء التي اجتمع عليها أمة من الناس يسقون، التفت أبو منصور لابنه الذي كان يتبعنا، فحاد منصور عن الطريق وتوجه ليملأ القرب ويلحق بنا إلى الموقع. على مرمى البصر أبصرت مجتبى يهش على غنمه، موجها إياها نحو العين، استراح بالي فقد عرفت الطريق وعرفت الآن كيف لا أتوه مرة أخرى، هذا إن أرسلوني مرة أخرى إلى الوادي، وتأكدت من ورود مجتبى العين كل صباح.

لاح لنا الموقع على مدى البصر، اقتربنا فوجدت العمال والسير واتسون يعطي تعليماته لبدء اليوم، رآنا علي الأردني فركض نحونا، قال لي وهو يلهث:

«لقد بحثنا عنك بالأمس في كل مكان، لقد أخفتنا كثيرًا يا كمال، حتى أرسل لنا أبو منصور خبزًا ليلة أمس.»

«أضعت الطريق، ولكن الحمدلله وجدت أبا منصور، الطعام معنا والماء قادم في الطريق.» أومأت لأبي منصور في امتنان لاستضافتي في بيته وهرعت إليه أنا وعلي نساعده في حمل الطعام إلى الموقع.

قال لي علي ونحن ننقل الطعام: «لقد أضاعتك سميرة...» ضحك مازحًا

«لو كنت أخبرتني عن علامات الزهرة، ما كنت ضعت.»

«ماذا تعني؟ ما هي تلك العلامات؟ لا أعرف شيئا عنها.»

«ظننت أنك من أهل البلد...» قلت له مداعبا إياه في مرح، ضحكنا كثيرا بعد أن قال لي إنني بالمصري «خلاص بقيت من أهل البلد.»

واصلت العمل معهم في الموقع، ومُنذ أن التقيت بمجتبى الراعي لم أعد مشغولًا بالمدن الحجرية التي كنت أرنو لاكتشافها، أسرني العبق المنبعث من المخطوطة حين فتحتها، وكأنها جلبت لي قطعة ثمينة من زمن سحيق، يعلم عنه الكثيرون بحكم عقائدية الأمر المكتوب في المخطوطة، ولكني أنا كنت على وشك قراءة مختلفة، قد يتغير معها ولها معنى حياتي.

فى الليل حين عدنا، لُذت بغرفتي الصغيرة في الفندق القريب من الموقع، أضأت المصباح الكهربائي الصغير الموضوع إلى جانب فراشي، أخرجت المخطوطة مرة أخرى، وعدت أدراجي إلى الأزمان البعيد...

***

تناول خالد المخطوطة كما فعل أبوه من قبل، وبدأ من حيث انتهى، قبل أن يغلبه النوم.

أشتونا

الموت والحياة

فاعلم يا ابن اليمن أنه لما قصد جدك حران فإنه لم يترك مدينة على الطريق إلا ونزل بها، على هذا الدرب كانت أشتونا، المدينة التي زُف فيها إلى إبراهيم نبأ الخُلة مع ربه، فعندما قارب الجمع على هذه البلدة، وبعد أن عبروا نهر دجلة، كانت الشمس قد قاربت على الزوال، وبات وأصحابه الليلة في بقعة من الأرض القريبة من أشتونا. في تلك الليلة، أتى جدك الوحي مبشرًا إياه ببشرى عظيمة، بُشرى أن اتخذه الله خليلًا. حين أخبره الملك بهذه البشارة، دمعت عينا إبراهيم، ووضع كفيه على وجهه، يتمتم بكلمات الحمد والشكر لله عز وجل، رفع رأسه وسأل الملك:

«وما علامة ذلك؟»

قال له الملك «أن يجيب الله دعاءك وتحيي الموتى بسؤالك...»

انطلق الخليل في الصباح قاصدًا أشتونا، كانت سارة قد أحست بالقليل من التوعك، فأخبرها أنهم على وشك الوصول إلى المدينة، لربما تزف إليهم القابلة نبأ سارًا. نظر إلى سارة نظرة يحملها الأمل والتفاؤل، فقد تاق إلى الأبوة واشتاق لأولاده الذين لم يأتوا إلى الحياة بعد.

لم يفارق ذهن الخليل، منذ أن ترك أور، كيف ادعى الملك أنه يحيي ويميت، هل ترك أحد الأسيرين حيًا إحياء؟! أجاب على خواطره أنه بالطبع لا، الإحياء الحقيقي هو أن يموت المخلوق ثم يعود إلى الحياة مرة أخرى، هل يقدر على ذلك غير الله؟ كان مؤمنا بذلك إيمانا عميقا، لم يستطع أن يمحو من عقله صورة ذلك الحوت النافق الذي رآه عند عبورهم للنهر، كان نصفه في البر والنصف الآخر في البحر، تجمعت دواب الأرض لتأكل النصف الذي كان في البر وهرعت دواب البحر لتأكل من النصف الذي كان في البحر، في تلك اللحظة سمع صوتا يقول له في أذنه:

«متى يجمع الله هذه الأجزاء من بطون هؤلاء؟» نفث إبراهيم على كتفه الأيسر كما علمه جبريل، لقد كانت نزغة شيطان انتبه لها، لكنه - ومنذ أن خرج من أور وفارق أهله وبلدته- كان يفكر كيف يمكن أن تحيي هذه القلوب الميتة.

عندما وصل إلى أشتونا، سأل لوط عن مكان القابلة، وهرع إبراهيم بسارة إلى بيتها، بينما نصب الرجال الخيم على أطراف البلدة الشرقية، كانت بلدة صغيرة ولكنها لم تختلف كثيرًا

عن سابقيها، يمكنك أن ترى حركة الناس اليومية العادية تحت جناح الآلهة المعظمة لديهم. استقبلت القابلة سارة في ترحاب، وأسندتها وأخذتها إلى داخل البيت، مكثت سارة لبرهة بالداخل، خفق قلب إبراهيم سريعا، كان ينتظر البشارة، خرجت القابلة بعد وهلة ومن ورائها سارة التي تبدلت قسمات وجهها من التعب والإنهاك إلى الشحوب وخيبة الأمل، بادرها بالسؤال عن حالها فطمأنته وانطلقا إلى خيمتهما، لم تخبره بشيء حتى الهزيع الأول من الليل حين أويا إلى فراشهما. كانت قد حاولت إخفاء الحزن الذي اعتراها وتأجيل ما يمكن أن تقوله لزوجها إلى وقت آخر، على الأقل حتى يستريح من وعثاء السفر، لكنه لم يطق صبرًا ولم يمهلها هذا الوقت، نظر في عينيها بحب وحنان قائلا لها:

«ما الذي ألم بزوجتي وصفيتي من الدنيا؟»

ترددت سارة واضطربت، كيف تخبره بهذا الأمر، ربما كانت القابلة كاذبة أو لا تفقه شيئا، على أي حال هي لم تعتد أن تخفي عنه شيئا، ستخبره وليحدث ما يحدث، ربما يعيدها إلى أور ويتزوج أمرأة أخرى، كانت تحبه كثيرا لذلك فإن أيا ما سيكون فيه رضاه وسعادته فسوف تفعله، نظرت إليه قائلة وقد قفزت الدموع إلى عينيها:

«أنا عاقر يا إبراهيم، لن يكون لك ولد مني، هكذا قالت القابلة...»

أحاطها بذراعيه وقال لها مواسيا:

«لقد قلتِ ما في الغيب يا سارة، ولا يعلم الغيب إلا الله، لندعو الله سويا أن يهب لنا غلاما زكيا.»

راحت سارة في نوم عميق، بعد مشقة يوم طويل، نهض إبراهيم من الفراش وخرج من الخيمة وجلس على الحصر المنبسطة على الأرض يتأمل النجوم المتناثرة على بساط السماء الحالك تلمع كجواهر مضيئة، ها هو ذا موت آخر قد قطع عليه الطريق، لقد مات الأمل في أحشاء امرأته من قبل أن يحيا، ولكن الأمل لا ينقطع بوجود الله، تمعن في النجوم المتلألأة محدثا ربه قائلًا:

«رب أرني كيف تحيي الموتى...»

أتاه جبريل على الفور، وقف أمامه وقال له:

«يا إبراهيم، إن ربك يسألك: أولم تؤمن؟»

نظر إبراهيم إلى الملك الكريم قائلا له «بلى ولكن ليطمئن قلبي.»

أخبره الملك بأمر ربه قائلا «حين يصبح الصباح يا خليل الله، خذ أربعة من الطير، وتمعن

فيهن حتى تستطيع أن تتعرف عليهن عند إحيائهن، ثم اذبحهن وفرقهن على سبع جبال، ثم ادعهن يأتينك سعيا.»

مر الليل بطيئا عليه بعد انصراف جبريل، عاد إلى فراشه وحاول النوم، فأى عليه النعاس، تشوّق لرؤية ما سيحدث في الغد، وقبل أن تشرق الشمس كان قد انطلق وحيدًا إلى ساحة سوق أشتونا، ابتاع غرابًا وطاووسًا وديكًا وحمامة، ربطهم جيدًا من أرجلهم وعلقهم في ناقته وقصد إلى خارج المدينة، حيث سلاسل الجبال الممتدة في الأفق البعيد...

عند أقدام الجبال أناخ ناقته، وسحب الطيور الأربعة وبدأ يتفقدها، كان في ظهر الغراب خطًا أبيض رفيعًا لا يظهر من شدة سواده ولكنها كانت علامة يستطيع أن يميز بها هذا الغراب، أما الطاووس فقد كان مميزًا بغرف أخضر قاني اللون، مزركشًا بخطوط زرقاء، ورأى أن الديك كان به جرح في قدمه، أما الحمامة فقد كان لها منقار يميل إلى اللون الذهبي لا تشبه الحمامات الأخرى. اطمأن لمعرفته لهذه العلامات المميزة للطيور، وبدأ في ذبحها ونتف ريشها وتقطيعها، جمع إبراهيم الأجزاء في صرة كبيرة، وراح يوزعها على الجبال السبع...

بعد أن فرغ من توزيع أجزاء الطيور، وقف في نقطة في أدنى منتصف الجبال السبعة، وصاح مناديا على الطيور الأربعة

«تعالين بإذن الله...»

أبصر إبراهيم أجزاء الطيور المتطايرة من أعلى الجبال في طريقها إلى الهبوط نحوه، حلقت الأجزاء نحو بعضها البعض حتى تكاملت جثث الطير، ثم بعثت فيها الروح، وتوجهت نحوه طائعة، سجد لله شكرًا وحمدًا أن أراه من الآيات، وإن كان في قرارة نفسه على يقين بقدرة الله ولكنه أراد أن يدحض حجة الشيطان وذلك الصوت الذي وسوس له بالخبث والشر. همّ أن يجمع الطير ويعود بهم إلى أشتونا، لكن في تلك اللحظة هبط جبريل من السماء وقال له:

«يا رسول الله، إن الله يخبرك أن الأمر لم ينتهِ بعد...»

«ولكني رأيت آيات إحياء الموتى، كيف لم ينتهِ، ماذا بعد يا جبريل؟»

«أولم تتساءل في خاطرك من يحيي القلوب الميتة بداء الجهل؟»

قال له إبراهيم «بلى.»

«لقد سمع الله سرّك كما يسمع نجواك يا رسول الله.. فاعلم يا رسول الله، وليطمئن قلبك، أنه من أجل أن تحيي القلوب الميتة، على الإنسان أن يأخذ من قفص الجسم أربعة من أطيار

الغيب، القلب والعقل والنفس والروح، فيضفهن إليه ويذبحهن، يذبح طير العقل بسكين المحبة على باب الملكوت، ويذبح طير القلب بسكين الشوق على باب الجبروت، ويذبح طير النفس بسكين العشق في ميادين الفردانية، ويذبح طير الروح بسكين العجز في تيه عزة أسرار الربانية... ثم يجعل على كل جبل منهن جزءًا، فيجعل العقل على جبل العظمة حتى يتراكم عليه أنوار الربوبية فيصير موصوفًا بها ليدرك الله بعد فنائه، ويجعل القلب على جبل الكبرياء حتى يلبسه الله سناء قدسه فيتيه في بيداء التفكر، ويجعل النفس على جبل العزة حتى يلبسها الله نور العظمة لتصير مطمئنة عند جريان ربوبيته عليها فلا تنازعه في العبودية ولا تطالب بأوصاف الربوبية، ويجعل الروح على جبل جمال الأزل حتى يلبسها الله نور النور وعز العز وقدس القدس لتكون منبسطة في السكر مطمئنة في الصحو عاشقة في الانبساط راسخة في التجليات...ثم يدعهن وينادبهن بصوت سر العشق يأتينه سعيا إلى محض العبودية بجمال الأحدية، واعلم أن الله عزيز يعز الإنسان بعرفانه هذه المعاني وإطلاعه على صفاته القديمة، حكيم في ظهوره بغرائب التجلي..»

خر إبراهيم راكعا أمام هذه التجليات الربانية والمعاني العظيمة، وبكى من خشية وخشوع.. واصل جبريل كلماته إلى إبراهيم:

«هكذا يحيي الله الأموات الأحياء يا رسول الله... أرأيت، فإن الطاووس يشير إلى عجب الإنسان، والديك يشير إلى شهوته، والغراب إلى حرصه، والحمامة تشير لحب الدنيا لإلفها الوكر والبرج، فصرهن إليك وألههن إليك بضبطهن ومنعهن عن الخروج إلى طلب ذواتهن والنزوع إلى مألوفاتهن.»

كانت هذه ليلة تحقق الخلة الإبراهيمية، أعلم الله إبراهيم أنه اتخذه خليلا وأراه الآيات الكبرى للموت والحياة، أرسل الإشارات الربانية، فما الطير إلا رمز مادي يجسد حال الإنسان، الحال الذي يقرر مكانه من العبودية له، الحال الذي يدل على الموت أو الحياة، وهكذا فإن الموت ما هو إلا الفناء عن كل ما دون الله، حتى يحيا الإنسان فيبلغ مراتب العبودية.

عاد إلى سارة عند غروب الشمس حاملًا الطيور الأربع في مخلاته، لم تسأله سارة عما حدث في يومه، فلم تكن تسأل على أي حال إلا إذا أخبرها، استقبلته بحنان بالغ وأعدت له الطعام، بينما كان قلبها يقطر حزنًا على ما أصابهما، فلن تكون أما لابن من إبراهيم...

مكث إبراهيم في أشتونا عدة أشهر، ثم شد الرحال إلى حاران مارا بأشور ونينوى...

أرض الأجداد

امتطى إبراهيم وأصحابه رواحلهم عند أول خيط للفجر، انشرح صدره وأحس أن الكون كله معبد لله، فأينما يولي فثم وجه الله، ها هم الرجال والنساء من بابل الذين انضموا إلى قافلته المهاجرة إلى الله، ساكنون مطمئنون في رفقته، على الطريق أبصر الثيران تحرث الأرض والفلاحين يبذرون الحب، والمياه تلمع في القنوات كاللجين السائل وتسري كما تسري الروح النقية في البدن المؤمن، أشجار النخيل باسقة رائعة الجمال تكاد تنطق بجلال الله...

ضرب المؤمنون في فضاء البيداء الواسع لأيام ولياٍل، ارتقت القافلة جبال آرام ذات الصخور الصلبة، فسارت الرواحل في بطء شديد، وأخذ الرجال والعبيد يدفعون الأنعام والأغنام في شعاب الجبل دفعًا. لمح إبراهيم حملًا صغيرًا يحاول اللحاق بأمه، فهبط من إلى راحلته وأخذ الحمل بين ذراعيه وضمه إلى صدره في حنان وعاد به إلى راحلته. انسابت القافلة مرة أخرى في الأرض الفضاء بين دجلة والفرات، حتى لاحت لهم من بعيد حاران، مدينة القوافل، ولاح معبد الإله سين إله القمر على ربوة عالية، كمنارة في وسط الصحراء.

maktabbah.blogspot.com

توجهت القافلة إلى أقرب بئر عند أطراف المدينة، فنزل الرجال والنساء للراحة والسقاية. أخبرهم إبراهيم أن ينصبوا الخيام قريبة من البئر، فحاران على الرغم من أنها مدينة متحضرة، إلا أنه لم يشأ أن يمكث في الحضر وآثر البادية، أراد أن يكون في وسط الناس ليدعوهم ولكن أيضا رغب في البعد عنهم لتستزيد روحه من نقاء الخلاء وما تهمس به الأرض الفضاء من أسرار. عمل الجميع حتى الغروب ومعهم إبراهيم وسارة، لقد تغيرت سارة منذ أن رحلوا من أشتونا، لم تعد تشرق الابتسامة على وجهها كما اعتاد منها، شحب هذا الوجه قليلًا إلا أنها عملت جاهدة على إخفاء ما تشعر به من كمد ويأس، وشعر إبراهيم بحالها فزاد في محبتها وملاطفتها كلما سنحت الفرصة. أخبرها أن تُعد في خيمتهما مكانا لضيفين، فسألته سارة «ومن الضيفان؟»

أخبرها أنه نذر في سبيل دعوة الله استضافة ضيفين كل يوم في خيمته، ودعوتهما إلى الطعام والشراب، هذا بالإضافة إلى المأكل والمشرب الممتد طوال اليوم للآتي والذاهب على الطريق..

«إنه طريق قوافل يا سارة، سنلتقي بأناس كثيرون من أصواب الأرض وجهاتها الأربع، أدعو الله أن يوفقني لهداية كل من يحل بأرضي وداري.»

عزم في اليوم التالي أن يذهب إلى المعبد.. في الطريق، رمقه بعض الكهنة السائرين إلى المعبد بنظرات نارية، دخل ومن معه إلى معبد الإله سين، انساب الناس إلى داخل المعبد

الكبير وراح الكهنة يطلقون البخور ويتلون صلواتهم ويقدمون القرابين للآلهة، وغنى المغنون الأناشيد وعزفت الألحان المقدسة. لكن خفتت الأصوات حين دخل إبراهيم، وبهتت الوجوه، وبدا الغضب والخوف على وجوه الكهنة. كانت الأنباء قد انتشرت من المدن الأخرى بحلول إبراهيم في أراضيهم ودعوته إلى إله واحد.. في ذلك اليوم، اشتد الجدال بين إبراهيم ومن معه، والكهنة وعبدة الآلهة ،حتى كاد أن يصل إلى حد القتال، حتى انسحب هو والرجال المؤمنون قائلًا: «يا رب إني بريء مما يعبدون.»

عاد إبراهيم والرجال إلى الخيام، قضى الهزيع الأول من الليل يسامر سارة ويلهيها عن حالها الذي لم تبح به، مسلمًا لكل ما قضى الله من أقدار. كان يحب سارة كثيرًا، ويطمع في معجزة ربانية تهبه الولد الذي قالت كل القابلات إنه لا يمكن أن يولد من سارة. في الهزيع الأخير من الليل، جلس أمام الخيمة حتى تبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، فقام يوقظ الجميع للصلاة، وقف الجمع بإمامة إبراهيم، وارتفعت الدعوات حتى لامست عنان السماء، وردد الناس من ورائه: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

قضى إبراهيم نهار الأيام التالية في الحديث مع النازلين من القوافل حول البئر، تقاطر الناس من القوافل القادمة إلى حاران على خيمته، فقدم لهم هو ورجاله الطعام والشراب. وفي أحد تلك الأيام، تجمع بعض الناس من القوافل حول مائدة، يتجاذب الرجال أطراف الحديث، ووقف إبراهيم على مقربة منهم يسمع ما يدور من حديث، إذ قال أحدهم:

«إني قادم من وادي النيل، بلاد العجائب حيث الأهرام وأبي الهول والمعابد والمسلات الشامخة، كتلك التي في بابل.»

سأله آخر: «وماذا يعبد المصريون؟»

«يعبدون إله الشمس، وأوزوريس، وآلهة أخرى كثيرة.»

نظر رجل إلى المتحدثين قائلا: « شيء عجيب، فقد نزلت بالحجاز بواد غير ذي زرع لأستريح، فقابلت رجلًا هناك أخبرني أنه من الصابئة، قال لي إنه كان في هذا الوادي بيتٌ مقدس بناه إدريس للعبادة، وأنه أول من خاط الثياب ولبس المخيط، وأول من علم الناس الزراعة، وأول من نظر في علم النجوم والسحاب، وأنه جاء بقوانين السماء ثم رفع إلى السماء.»

قال رجل آخر: «هل يمكن أن يكون أوزوريس هو إدريس؟

دنا منهم وقد عزم على أن يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، وتوضيح الأمور التي

التبست عليهم، فقال لهم إن إدريس كان صدّيقًا نبيا أرسله الله لهداية الناس، فنظروا إليه مستغربين، وسأله أحدهم:

«أى إله من الآلهة أرسل إدريس؟»

«الله الواحد الأحد الحي القيوم»

«أجعلت الآلهة إلها واحدًا؟ إن هذا لشيء عجيب!»

«وهل يوجد إلا إله واحد لهذا الكون الفسيح!»

قال له أحدهم: «ولكن هناك الكثير من الآلهة التي تُعبد، فكيف تدعونا إلى إله واحد؟»

قال لهم إبراهيم إنه لا يوجد خالق غير الله، هو الذي يرزقهم من السماء والأرض، هو الذي يحيي ويميت وينزل الماء من السماء، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله.. استرسل في الحديث، حتى دمعت عينا الرجل القادم من الحجاز، ونظر في عيني إبراهيم قائلا له: «آمنت بالله رب العالمين، ربك يا إبراهيم ورب إدريس.»

يحس إبراهيم بالغبطة كلما خرج أحدهم من غياهب الظلمات والضلال إلى دروب النور، ضرب القوم بخيامهم على مقربة من خيامه، من آمن منهم بقوله ومن لم يؤمن، وكانت الليلة حالكة بلا نجوم، واشتد البرد وصفرت الريح خارج الخيام، ورغم ذلك جلس خارج خيمته ينتظر أن يأتيه ضيفان اثنان. أبصر في الظلام خيال شيخ عجوز يتقدم نحوه متوكئا على عصاه، فهرع إليه ليستقبله، وقاده إلى خيمته. حفرت الأيام تجاعيدها في وجه الرجل المسن وانحنى ظهره، أجلسه إبراهيم جنب ركوة الحطب المشتعلة ليتدفأ، ودخل إلى سارة التي بدأت في إعداد الطعام، فأخذ وعاء وضع به الماء وذهب به إلى الرجل ليغتسل من وعثاء الطريق. وضعت سارة الطعام أمامهما، فمد الشيخ يده إلى الطعام دون أن يقول شيئا، فقال له إبراهيم:

«سمّ الله قبل أن تأكل يا شيخ.»

تعجب الشيخ قائلا «اسمي الله!»

قال له إبراهيم «قل بسم الله قبل أن تأكل»

«الله! ومن هو الله!»

«رب السموات والأرض وما بينهما.»

«ليس لي رب اسمه الله، أنا لا أعرف إلها إلا النار..قم معي واسجد لإلهي»

قام الشيخ في خفة غريبة على سنه الطاعن، وسجد للنار، فغلى الدم في عروق إبراهيم وثار قائلًا للشيخ المسن:

«لا يُسجد في خيمتي إلا لله.. اخرج الآن، اخرج!»

ذُعر الشيخ وقام من مكان سجوده، وخرج مهرولًا من الخيمة متوكئًا على عصاه، حتى ابتلعه الظلام. جلس إبراهيم أمام المائدة غاضبا، فصارت سارة تلاطفه، حتى هدأ وقام يخرج ليشم بعض الهواء النقي. جلس مرة أخرى أمام خيمته، لا لينتظر ضيفا آخر، ولكنه أحس في صدره بأن الوحي قد أتى. قال له الملك الكريم:

«ماذا فعلت بالضيف يا إبراهيم...»

«أبى أن يذكر اسم الله على الطعام، وقام يسجد للنار ويدعوني للسجود لها معه، فطردته.»

«لقد تحمله الله يا إبراهيم تسعين عاما وهو يعبد النار، وأنت لم تحتمله ساعة واحدة.»

أحس إبراهيم بالذنب الهائل فيما فعله مع الرجل، خاصة أن البرد قد اشتد وأعتمت السماء.. حمل مصباحا وذهب ليبحث عن الرجل ويصلح ما بدر منه في حقه، هام على وجهه في الليل البهيم حتى عثر على الرجل وقد تجمدت أطرافه من برودة الصحراء، فأعطاه إبراهيم ذراعه ليتوكأ عليه، وعاد به إلى خيمته مرة أخرى، بسطت سارة الطعام الدافئ مرة أخرى، وأعدت له فرشًا ليتدفأ به ويقضي الليلة في خيمتهم حتى يحل الصباح.

قضى إبراهيم بضعة أعوام في حاران، وازداد الرجال معه، آمن له الكثيرون وانضموا لدعوته وازدادت قبيلته، وأثار هذا الكهان ورجال الدولة، وأحسوا أنه بدأ في سلب قوتهم فأئمروا به، واتفقوا على مداهمة خيام إبراهيم ومن معه وسبي نسائهم وقتل الرجال في ليلة محددة. وفي تلك الليلة، نزل الوحي على قلب إبراهيم مخبرًا إياه أن عليه أن يبرح حاران الآن. جمع الرجال والنساء الخيام، وأعدوا النوق للرحيل والهجرة مرة أخرى، وفي ظلمات الليل، التفت عباءة البرد حول أصحاب إبراهيم، وانطلقت الرواحل في غياهب العتمة الحالكة وتحت سماء تجمعت فيها الغيوم فلم يظهر فيها نجم واحد يضيء الطريق.. أفلت النجوم، وأضاء نجم إبراهيم الدرب منذ ذلك اليوم لكل مهاجر إلى الله.، وهذه المرة أوحي إلى إبراهيم بالرحيل إلى حلب وبيت إيل وأرض كنعان.

الأراضي المباركة

أشرق الصباح على كهنة حران الذين أعدوا العدة لمداهمة نصاب خيمته، إلا أنهم حين بلغوا البقعة من الأرض التي كان ينزل بها إبراهيم وقومه لم يجدوا شيئا، فاتَّهم بعضهم البعض بأن أحدًا أخبر إبراهيم بنيتهم المبيتة للغدر بإبراهيم ومن معه. ارتحلت الدواب نحو بيت إيل، مضت قافلة المؤمنين مواصلة هجرتها إلى الله، حتى وصلت إلى بيت إيل، بيت الله المقدس. في شرق بيت إيل، بدا الجبل شامخًا تكسوه أشجار البلوط، ارتقى إبراهيم الجبل ومن معه من المؤمنين، ستكون هذه بقعة مناسبة للعبادة والصلاة والتفكر بعيدًا عن ضجيج المدن وعبثها. على مرمى البصر، كان وادي الأردن ممتدًا كبساط أخضر، ومن الجهة الأخرى كان البحر بلونه الفيروزي، تتلاطم أمواجه وتتسابق فيما بينها. قرر أن يبني محرابًا فوق قمة الجبل، قال وهو يساعد الرجال في البناء: «ليذكر اسم الله من أعلى هذه القمة كل مؤمن ومُسبِّح إلى آخر الزمان.»

مكث إبراهيم في المدينة المباركة لوهلة من الزمن، ثم ارتحل مرة أخرى غربًا، عابرًا نهر الفرات، حتى نزل في منطقة بشمال الشام وضرب بها الخيام، مستقبلًا الآتين من البدو في خيمته، ليصيبوا بعضا من الطعام أو الشراب، بعد أن نزل القحط والجوع بأهل البادية، فيأمر لهم بحلب الشياه، فصار الناس يأتون من كل صوب وجهة سائلين: «هل حلب إبراهيم غنمه؟». سارة كانت تساعده بهمة في تجهيز الموائد، ولازمه لوط في كل خطوة يخطوها، وقد أصبحت لعمه أغنام كثيرة، وتبعه الكثير من الناس وانضموا لأسفاره ودعوته.

maktabbah.blogspot.com

من حلب إلى دمشق انطلقت القافلة مرة أخرى، بعد أن ترك إبراهيم مائة رأس من الشياه لقبائل البدو، يحلبون من لبنها ويأكلون من لحومها، وترك لهم أيضا عبادة الله، فقد شاهد البدو إبراهيم ورجاله وهم يصلون عند شروق وغروب الشمس، وانبعث صوت سارة عذبًا بترانيم جميلة جذبت النساء إلى خيمتها يتساءلن عما تفعل السيدة زوجة إبرام وماذا تعبد.. تركهم إبراهيم وقد أضاء لهم شمس الإيمان، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

لاحت من بعيد حصون دمشق ومبانيها ذات الشرفات، وكلما اقتربت الدواب من أبواب المدينة ظهرت بساتين الورود والرياحين، وراح الناس وجاءوا في أثوابهم المزركشة، حتى دنت القافلة من باب المدينة الكبير وولجت إلى الساحة الكبيرة. لم يظن إبراهيم أنه قد يشتبك في الجدال سريعا، وقد حلوا بهذا البلد لتوهم، لكنه وجد العازفون يعزفون المعازف، وارتفعت أصوات ضحكات الناس وهم يتداولون الخمر فيما بينهم، فيما بدا احتفالا ما، فلم يستطع أن يترك هؤلاء دون أن يحاول أن يثنيهم عن هذا الدرب المظلم. كانت مهمة شاقة، حقا إن الله يحيي الموتى، ولكنه جعل الموتى لا يسمعون، إنما يسمع الذين يعقلون، وأولئك

القوم ممن ضرب الله على آذانهم وأبصارهم وقلوبهم، فاستهزؤوا كثيرا بما قال لهم إبراهيم عن الإله الواحد الأحد، وسخروا منه ومن القوم الذين صاحبوه، إذ غضوا بصرهم عن النساء، ورفضوا تناول الكؤوس التي قدمت لهم، وجادلوه حتى عَلِمَ أنه لا أمل فيهم، فانصرف عنهم داعيا لهم بالهداية.

رأى كما رأى من قبل أن يضرب خيامه على أطراف المدينة، وكذلك فعل. وذات يوم، مر به ضيف كريم آواه إلى خيمته. انتظر إبراهيم أن يسمع من الرجل عن الإله الذي يعبده، إلا أن الرجل كان صامتًا معظم الوقت، حتى تحدث إبراهيم فقال له:

«أتعبد الآلهة كهؤلاء...؟»

قال الرجل «لا أرى لهذه الآلهة ضرًا ولا نفعًا، ولكن لا أعلم ماذا أعبد.. أعلم أن هناك مدبرًا أعظم لهذا الكون، ولكن لا أعرف عنه شيئًا.. لقد سمعت عن دعوتك كثيرًا، هلا أخبرتني المزيد.»

انشرح صدر إبراهيم للرجل، كانت تلك المرة الأولى التي لا يتقرب فيها إلى أحد متعمدًا أن يثنيه عن الضلال، بل أتى الرجل قاصدًا خيمته لا لطعام ولا شراب، بل لتنهل روحه من المعين الإلهي. كان ذلك اليعازر الدمشقي، الذي لزم إبراهيم بعد تلك المقابلة لسنوات طويلة، وصار ساعده القوي الشديد، فقد كان اليعازر فتيا قوي الشكيمة لا يخاف في الحق لومة لائم. رافقه اليعازر الدمشقي طيلة رحلته إلى دمشق، وخاض معه الحرب ضد الكهنة والتجار الذين عزموا على قتله ورجاله، لمّا رأوا ما لهم من تأثير عظيم على قلوب الناس؛ ففي أحد الأيام في فصل الربيع توافد العبيد والناس من أهل المدينة إلى خيمة إبراهيم، يريدون أن يعلموا عن هذه التعاليم التي تدعو إلى التسامح والحب وترفض الكراهية والانحراف عن الفطرة. جلس الناس حوله، فصار يخبرهم عن كل ما جاءت به الصحف، وكان قد تلقى مزيدًا من الصحف الإلهية حتى صاروا عشرة صحيفة.. وصل النبأ للكهنة، فهبّوا إلى نصاب خيمة إبراهيم لمواجهة هذا التيار الذي بدأ يهدد سلطتهم، ولم يعد هناك بُد من المواجهة. اضطر إبراهيم للقتال، أمسك بالرمح وقاتل، قتل الكثيرون وسالت الدماء على رمال الصحراء، وسالت أدمع الأواه الحليم الذي لم يكن ليؤذي نفسًا، فكيف لا يبكي وقد أجبر على القتال؟ لقد أوحى الله إليه لتهلكن الظالمين، وأمره بالقتال دفاعًا عن نفسه وأهله وعقيدته، إلا أنه لم يشأ إلا سلامًا في الأرض.

مرة أخرى أوحي إلى إبراهيم بالخروج والتوجه إلى أرض كنعان.. لم يطمح إلى الملك والحكم وقد صارت دمشق في قبضته، بعد أن انتصر في القتال الضاري مع آلهة الشر. اتبع ما أوحي إليه، وترك خلفه الجاه والسلطة، وتوجه إلى حيث أمره الله. صارت له ثروة عظيمة

من الماشية والأغنام، وأكبر الثروات كانت من المؤمنين، فالمؤمن كالذهب يلمع في سماء الحق كنجمة في ليل معتم، تعرفه الملائكة ويتباهى به الرب. نصبت الخيام مرة أخرى، وانتشر القطيع فغطى مساحة كبيرة من سهول الوادي الخضراء، وراحت الماشية تصيب طعاما من هذا الوادي الغني بالخيرات.

أما إبراهيم، فقد أصاب قلوب طائفة في هذا البلد، ففي ذات يوم أتى رجل إليه، وبعد أن قدم له الطعام سأله إبراهيم:

«من تكون، ومن أي بلد أنت؟»

قال له الرجل «أعيش هنا بأرض كنعان.»

سأله إبراهيم عن عبادته، فعلم أنه من عبدة النجوم والكواكب، أخبره الرجل أنهم على ملة سيدنا إدريس، إلا أن إبراهيم قال له إن إدريس لم يكن يعبد النجوم، بل كان يعبد رب النجوم الذي لا شريك له، فقال له الرجل: «ولكن نحن نؤمن بما كان يؤمن به إدريس أن لهذه الكواكب إله، وهذا الإله الذي نعبده ما هو إلا رمز يجسد الإله الذي خلق الكواكب...»

طلب إبراهيم من الرجل أن يدعو قومه ليأتوا إلى مائدته، فلما أتى بهم، قال لهم بعد أن فرغوا من الطعام:

«يا قوم لقد صبأتم وملتم عن طريق الحق.. ألم يكن إدريس نبيكم؟ ألم يدعكم إلى عبادة الله الواحد الأحد؟ اتركوا عبادة النجوم وآلهتها وعودوا إلى الله ربي وربكم.»

استمر الحديث بينه وبين القوم لساعات طويلة، حتى جن الليل ولف البرد عباءته على الوادي، فقضى الوفد الليلة في خيامه، واستيقظوا قبل شروق الشمس على أصوات الصلوات والابتهالات، ففتح أحدهم عينيه بصعوبة قائلا لأصحابه:

«ما هذه الأصوات التي تأتي عذبة من السماء، هذا شيء عجيب!»

قال له أحدهم «إنه إبراهيم قام يصلي بالناس.»

قام الرجل ورفع ستار باب الخيمة، فنظر فرأى أمة كاملة قد اصطفت وراء إبراهيم، الذي راح يبتهل ويتوسل إلى الله قائلا:

رَبَّنا إِنَّكَ تَعلَمُ ما نُخفي وَما نُعلِنُ وَما يَخفى عَلَى اللَّهِ مِن شَيءٍ فِي الأَرضِ وَلا فِي السَّماءِ

أجهش الرجل بالبكاء من فرط الخشوع الذي سرى في قلبه وجرى في عروقه كجريان الدم. خر راكعا وقال والدموع تذرف من عينيه وتغمر لحيته:

«آمنت برب إبراهيم وأشهد أنه لا إلا إله واحد، هو الله رب العالمين...»

كان هذا الرجل هو كبيرهم في السن والمكانة، سرى ما أحس به إلى بقية أصحابه فآمنوا لإبراهيم، ولم يبرحوا نصاب خيمته منذ ذلك اليوم، ولم يعودوا إلى المدينة مرة أخرى.. لقد كان الإيمان بالنسبة لهم تطهيرًا وخلاصًا من ظلمات لم يدركوا أنهم عمهوا فيها لسنوات طويلة ظانين أنهم على حق مبين.. كان إبراهيم طوق نجاة، جذبهم من دوامات التخبط وأخذ بهم إلى بر الأمان، إلى حصن الله المنيع وملاذه الآمن.

أصبح الأمر لا يُحتمل بالنسبة للكهنة، كما كان في أرض دمشق، فما كانت دمشق إلا نموذجا لما يمكن أن تكون عليه المدن من الانحلال والعصيان، نموذج تكرر عدة مرات خلال هجرة إبراهيم، ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفا، لقد سمعوا بانضمام الصابئة إلى إبراهيم، ولما راحوا ليجادلوه احتدم الأمر، قال له أحد الكهان:

«لقد سببت آلهتنا وإنًا والله منك لمنتقمون.»

لم يبيت الملأ النية لإبراهيم ولا لقومه، ولا حاولوا أن يقاتلوه، فقد كانت له قوة كبيرة من الرجال والعتاد، تشاوروا فيما بينهم أن أصلح ما يمكن أن يفعلوه أن يستغيثوا بالملك أمنحوتب المصري، فمصر كانت شريكًا تجاريًا وسياسيًا قويًا لأرض كنعان. تحت جناح الليل، ارتحلت سرًا قافلة من كبار القوم والكهنة إلى أرض مصر، وبقي إبراهيم وأتباعه يفعلون ما يفعلون دون كلل أو ملل أو توان.

فى إحدى ليالي الصيف، وبعد مرور شهر من ذهاب القافلة إلى مصر، جلست سارة أمام الخيمة تنتظر عودة إبراهيم، فتستقبله وينتظران سويا الضيفين اللذين يستقبلهما زوجها كل ليلة. في سكون الليل أتت إحدى النساء مهرولة، تخبرها أن امرأة تضع مولودها وهي في حال صعبة. رجت سارة أن تذهب معها وتدعو لها، سارت معها سارة واجتازتا الخيام في ظلام الليل متوجهتين إلى خيمة المرأة. في خيمة المرأة بدا الوضع خطيرًا، حاولت سارة أن تساعد، وكان النساء كُثر فوق رأس المرأة التي تضع، فانتحت ركنا قصيًا من الغرفة وراحت تدعو وتبتهل لله أن ينجي الأم ووليدها. بعد عدة ساعات من الأنين وصرخات الألم، وضعت المرأة مولودها، سمعت سارة بكاء المولود فسالت الدموع من عينيها، مزيج من الفرح والحزن اختلطا بقلبها، اقتربت من فراش المرأة فناولتها القابلة الولد وقد لفته في قطعة قماش من الكتان الأبيض، أخذته سارة بين ذراعيها ولم تتوقف عن الابتسام والبكاء، هذه هي اللحظة التي تمنتها من كل قلبها، ها هي السنوات تمر وتتحقق توقعات القابلات أنها لا تلد ولن تلد، لا يمكن فعل شيء إزاء هذا الأمر، لم يجد دواء العرافات ولا نصائح النساء المقربات لها بتناول خلطات خاصة من أعشاب عكبر النحل والأشوجاندا ووصفات أخرى

كثيرة وصفت لها، جربت كل شيء ولم ينفع معها شيء، لقد يئست الآن، وها هي تحمل هذا المولود بين يديها، يعتصر الحرمان من الأمومة قلبها وتحزن لأنها سبب لحرمان زوجها من البنوة، لكم سمعت دعاءه في الهزيع الأخير من الليل مناجيا ربه «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ»، لقد صار للوط ابن أخيه أولاد، ولأخيه ناحور، أما هو فيسير فردًا دون ذرية.

شقشق الصبح خارج الخيمة بعد ليلة شاقة على الجميع، باركت سارة للمرأة وناولتها وليدها وانطلقت عائدة إلى خيمتها، لابد أن إبراهيم يبحث عنها الآن. لم تكن الحياة قد دبت بعد في الخيام، ساد السكون لوهلة وتناهت لسارة أصوات غريبة، ثم بدت لها على مرمى البصر خيول تأتي بسرعة الرياح نحو الخيام، يمتطيها رجال يحملون في أيديهم أقواسًا ورماحًا، وعلى رأس كل واحد منهم ريشة أو ريشتين من النعام. صرخت سارة صرخة واحدة، أيقظت كل من في الخيام من الناس، فقاموا فزعين، وهب إبراهيم لمجابهة العدو الغادر، هرع ومن معه إلى أقواسهم ورماحهم وفؤوس قتالهم.. تراءى الجمعان، وراحوا يتراشقون بالسهام، تلك التي نالت من بعض الماشية فهاجت وثارت وانقلبت على وجهها في ميدان القتال. اشتبك رجال إبراهيم بالرجال الغادرين، وخرجت النساء لتساندن أزواجهن في المعركة، فشبيت منهن الكثيرات، احتدمت المعركة حتى ارتفعت الشمس في السماء وسالت الدماء على الأرض ونال التعب من الرجال، وقنع الغائرون بما أصابوا فانسحبوا من المعركة.

راح إبراهيم يبحث عن سارة في كل مكان فلم يجدها، قالت له امرأة بأعين دامعة:

maktabbah.blogspot.com

«لقد أسرت سارة فيمن أسرن من النساء، واحسرتاه على سارة!»

ثبت ولم يتزعزع، إنما الصبر عند الساعة الأولى من البلاء، التفت إلى لوط واليعازر الدمشقي والمؤمنين الذين كانوا قد التفوا حوله وسمعوا نبأ أسر سارة، وخيم الوجوم والصمت على الجميع، قال لهم في حزم وإصرار:

«إلى مصر...»

قبل غروب الشمس، امتطى الرجال رواحلهم وانطلقوا إلى مصر...

«هذه ليست المرة الأولى التي أغتصب فيها امرأة رجل غريب...» قال الملك متعجبا

«هي امرأة رجل ذي سلطان يا مولاي...» قال أحد الكهنة

لم يقبل الملك هذا التبرير من كهنة وعرافين أواريس، يوجد شيء غريب في هذه المرأة. ذهب إلى سارة في تلك الليلة، وكانت سارة مستغرقة في الصلاة، فانتظر الملك حتى فرغت من صلاتها فسألها:

«لمن تُصلين»؟

قالت سارة «لله رب العالمين...»

اقترب منها الملك وأراد أن يلمسها فقبضت يده قبضة أشد من المرتين السابقتين، قال لها الملك:

«ادعي ربك أن يطلق يدي، فلا اقترب منك مرة أخرى.»

دعت سارة الله، فبسطت يد الملك.. وقف الملك في مواجهتها وقد أصابه العجب وأحاطت به دهشته، سألها وقد اختلجت مشاعره واهتز كبريائه:

«من أنت؟»

«أنا زوجة رجل، كانت آمنة في كنفه قبل أن يغير جنودك على خيمتنا.»

«ومن هو زوجك...»

«إبراهيم رسول ونبي الله.»

تركها الملك في تلك الليلة وقد أصابه بعض من نور قلبها، ولاحت لقلبه أنوار إبراهيم من بعيد، أمر الملك بإكرامها ورعايتها حتى يحكم في أمرها.

maktabbah.blogspot.com

راحت سارة تصلي طوال الليل، بينما طوت رواحل إبراهيم ومن معه الأرض طيًا، فعبروا سيناء وانطلقوا إلى جوشن ثم إلى أواريس، سبعة وثلاثون من الرجال كانوا، لقد اصطحب معه أشد الرجال عتوًا وأكثرهم مهارة في القتال، لم يكن يعلم كيف سيسترد سارة من أيدي الملك الظالم، ولم يهتز للحظة لاختطافها، لقد كان يعلم أن كل شيء بيد الله وقد استودعها إياه، منذ أن غابت عن عينه وبلغه نبأ سبيها، سيفعل الله في مُلكه ومملوكيه ما يشاء. على جانبي الطريق، امتدت التماثيل على شكل قطط وكباش، ولما بلغوا أبواب أواريس توجهوا إلى قصر الملك.. في الطريق إلى القصر، مروا بالكثير من المسلات والتماثيل، رأوا المعابد والكهان يدورون في ساحتها ببطء وهيام شديد، يطلقون الأبخرة ويطوفون في الباحات

الخارجية في همة ونشاط النمل. ارتدى الرجال من أهل المدينة الملابس الكتانية البيضاء الخفيفة، وشوهدت النساء وهن يقمن بممارسة التجارة في الأسواق.

لاح قصر الملك ذو الأعمدة الفرعونية الباسقة كجذوع النخل، امتد خضار الحدائق الغناء وألوان الورود التي تحفها إلى ما لا نهاية، وقف الجنود على جانبي باب القصر وقد أمسكوا برماحهم، سمحوا لإبراهيم ورجاله بالدخول حين طلب مقابلة الملك، لما رأوا على سيماه من هيبة ووقار ونور في الوجه يُذهل العقول. نودي على رئيس الوزراء، فطلب منه إبراهيم مقابلة الملك، فسأله عن السبب فأخبره أن إمرأته قد سبيت في أرض كنعان. نظر الوزير نظرة إعجاب إلى الملابس الصوفية المزركشة لإبراهيم وأتباعه، كانت ملابسهم مختلفة عن ملابس أهل مصر، ولكنها كانت جميلة وبسيطة تنم عن رجل ذي شأن عظيم. تركه رئيس الوزراء منتظرا لساعة من الزمن، وعاد إليه ليقوده للمثول بين يدي الملك، قال له وهم سائرون في البهو المؤدي إلى مجلس الملك: «عند مثولكم بين يدي الملك، وأول ما إن تقع أبصاركم عليه، عليكم أن تخروا له سجدا.»

قال له إبراهيم «نحن لا نسجد إلا لله.»

وسار كما سارت سارة من قبل، قلب في الحانوت وجسد في الملكوت، لا تبهره الزخارف التي يكتظ بها المكان ولا ملابس الواقفين ولا جلال الملك ذاته، فالفلك لله وحده، ولا سجود إلا للملك والمالك الأوحد لهذا الكون. أبصر الملك رجالًا واثقين من أنفسهم منتصبي الهامات مرفوعي الرأس، في وجوههم نور عجيب.. تعجب الملك من عدم سجود إبراهيم ورجاله أمامه، من هؤلاء الذين يتجرؤون على عدم السجود بين يديه، إلا أنه كظم غيظه ونظر إليهم وسألهم: «أيُكم إبراهيم؟»

نظر المؤمنون تجاه الرسول، وأبصره الملك فرأى رجلا ذا وجه منير ترتاح له القلوب، أحس بإحساس غريب من الطمأنينة في قلبه تجاه إبراهيم، دعاه الملك ليجلس إلى جواره وراح يتحدث إليه، سأله الملك عن عقيدته فأخبره إبراهيم عن الله الواحد الأحد، في قرارة نفس الملك كان يعلم أن هناك إلها واحدا لكل هذه الأكوان والنجوم والكواكب وكل حي وغير حي، إلا أنه لم يبح بالكثير، فقد كانت سطوة الكهنة أشد عتوًا من قدرته على نشر ما يؤمن به، لقد كان أمر الآلهة نافذًا في فرض السيطرة على عقول الناس، أما الإله الواحد فإنه فكرة قد تؤدي إلى التمرد والعصيان. كان إبراهيم يعلم أن هناك الكثير من المؤمنين في مصر، وفطن من استقبال الملك له بهذه الحفاوة أن هناك بذرة إيمان بداخل قلب هذا الرجل، وأدرك أن عمله مع كهان الملك وأولئك الذين يديرون المعابد وليس مع الملك، قال للملك:

«لقد أسرتم زوجتي، وما جئنا إلى مصر إلا لاستعادتها.. فكم تريد فدية أيها الملك؟»

قال له الملك «كيف أقبل فدية لامرأة حفظها الله، إنها امرأتك يا إبراهيم وهي ليست لأحد غيرك.»

أشار الملك إلى كبير الخدم في القصر قائلا له:

«هؤلاء ضيوفي في القصر، فلينزلوا به على الرحب والسعة.»

قاد كبير الخدم أتباع إبراهيم إلى غرفهم، وقاد إبراهيم إلى غرفة أخرى، فلما دخل وجد سارة أمامه.. ألقت سارة نفسها بين ذراعيه وبكت بكاءً شديدًا على كتفيه، سألها في توجس:

«ما خطبك يا سارة، هل حدث شيء؟»

طمأنته سارة قائلة «لقد كفّ الله يد الفاجر عني...»

حكت له سارة كل ما حدث، قال لها وهو يتأمل وجهها في حب كبير: «فلنقم فلنصلي شكرًا لله يا زوجتي الغالية.»

لم يكن نهارًا عاديًا، ففي صباح ذلك اليوم الذي بلغ فيه إبراهيم أرض مصر، وقبل أن يصل إلى أورايس غارت قوات الملك على مدينة منف، المدينة الصامدة، التي لم تكن قد استسلمت بعد ودانت للملك. وقعت المدينة في يد الهكسوس، ووقعت أميرة منف، زهرة اللوتس المصرية، هاجر في الأسر. لم تقدم هاجر قرابين الولاء للملكُ، ولم تذهب مع من ذهبوا من مختلف البلاد لمبايعته، ولم تبايع الآلهة أيضا، ولذلك شبيت في اليوم الذي تحررت فيه سارة. دخلت هاجر إلى قصر الملك مكبلة بالقيود، سارت مرفوعة الرأس في البهو المؤدي إلى جناح الحريم، ترقرقت الدموع في عينيها، لقد صارت لتوها جارية.

maktabbah.blogspot.com

قضى الساعات الأولى بعد غروب الشمس عند سارة، يؤانسها ويطمئنها ويحكي لها عما صار بعد أن أسرها الجنود، وكيف أن الأمر كان قاسيا عليه. أرادت أن تسأله لماذا ذهب في أثرها وهي عاقر ولا تلد، ما أهميتها كامرأة بالنسبة له وهي كالأرض البور لا نبتة لها ولا زرع يبشر بأشجار مثمرة في المستقبل، تمنت - وهي تسير في قوافل الأسر إلى مصر - لو أن إبراهيم لا يأتي ولا يبحث عنها، أن ينتهي الأمر عند هذا الحد وأن يواصل هو مسيرة حياته مع امرأة أخرى تأتي له بالأبناء، سألته مترددة: «لماذا أتيت خلفي يا إبراهيم، لقد أصبحت عبئا ثقيلا عليك؟»

نظر إلى وجهها الوضاء في حنو بالغ قائلا لها: «وهل يصير النور عبئا على القلب يا أميرتي؟ وهل يمكن للقلب أن يعيش دون ماء الحياة الذي يمنحه القوة ويعينه على الصمود؟»

«أنا لا ألد يا إبراهيم، وإني والله لأحبك حبًا جمًا، ولكن حتى متى تنتظر المعجزات يا زوجي الحبيب؟»

«حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.»

حل الليل، وأرسل الملك في طلبه. جلست سارة وحيدة لا تعلم أتسعد بفك أسرها وعودتها إلى زوجها، أم تحزن لأنها لا تعلم ماذا ستفعل بعد ذلك، ستعود إلى الخيام حيث يلهو الأطفال في كل صوب وحدب، أولاد المؤمنين الذين هاجروا وتزوجوا من بعضهم البعض، ستشاهدهم وهم يكبرون عاما وراء عام وهى أيضا تشيخ وتبقى بلا ولد، أي بلاء هذا الذي أصابها.. قامت تصلي لله وتتضرع له وتناجيه مناجاة الصابرين على ما أصابهم من أقدار لا يمكن أن يغيرها إلا المولى عز وجل بفضله ورحمته...

كانت الليلة صيفية حارة، هبت نسمات جميلة في حديقة القصر التي قاده كبير الخدم إليها، وأجلسه الملك إلى يمينه، وإلى يساره وقف كاهن أسرار السماء، وتطلع الجميع إلى النجوم في صمت قطعه الكاهن قائلًا: «هذا نجم الشعرى، المسئول عن فيضان النيل، فإذا بزغ فاضت المياه وأنبتت الأرض وأثمرت الأشجار...»

تحدث كاهن أسرار السماء عن كل نجم على حدة، وكيف أن النجوم والكواكب ترتبط بالطالع السيء والطالع الحسن، فهناك أيام سعد وأيام نحس ترتبط بمواقع النجوم..

«للنجوم تأثير عظيم على كل شيء في الحياة...» قال الكاهن لإبراهيم.

انتظر إبراهيم حتى يفرغ الكاهن من شرحه، وكان يعلم ماذا يقول، فقد كان تلميذًا بارعًا لجده ناحور الذي برع في علوم النجوم، قال للكاهن: «ولكنكم تتطيرون، أترى إن جعلنا لمخلوق أثرًا على مخلوق آخر، فإننا قد آمنا بالسبب وليس المسبب... وهل يمكن أن يجلب نجم الحظ السيء أو يجلب السعادة إلا بإذن الله؟»

تحدث إليهم في علوم النجوم، ففغر الكاهن فاه، واندهش الملك من سعة علمه.. جلسوا أمامه صامتين يستمعون مسحورين بما يقول، قرر الملك أن يصطحب إبراهيم في اليوم التالي لزيارة معابد الآلهة لمشاهدة المراسيم المقدسة.

فى الصباح الباكر، انطلق موكب الملك على الطريق المقدس الذي تحفه الكباش من الجانبين.. أجلسه الملك إلى جانبه، أخبره أنهم على طريق الإله ست، بلغ الركب المقدس بوابات المعبد المقدس، واصطف الجنود في أبهى الملابس لاستقبال الملك وضيفه، انطلقت التراتيل المقدسة وسرى عبق البخور في أركان المعبد، ولجوا إلى قاعة المعبد الكبيرة التي قامت على أعمدة ضخمة ذات قواعد حجرية، في قاعة المعبد كانت هناك العديد من

التماثيل غريبة الشكل ومائدة لقرابين الآلهة، أخبر الكاهن الملك أن الآلهة تشكره على بناء هذا المعبد، فانحنى الملك في إجلال أمام تمثال الإله ست، واصطحب إبراهيم الذي كان يتأمل في باقي الآلهة المتراصة، الإله أنوبيس ابن أوزوريس وبتاح إله الفنانين والصناع.. أخذ إبراهيم يفكر، إن هؤلاء يؤمنون بالبعث بعد الموت ويؤمنون بالحساب على الخير والشر الذي يفعله الإنسان، لا ينقصهم إلا أن يتخلوا عن كل تلك الآلهة ويسلموا لله الواحد الأحد الذي لا شريك له؛ مهمة شاقة، فتلك حضارة عريقة لا يمكن تغيير عقائدها إلا بفتح القلوب قبل العقول. عند مقصورة قدس الأقداس، مقصورة الإله ست، سجد الملك أمام الإله الحجري سجودًا طويلًا، ثم قام من سجوده وسار بين عازفات المعبد اللواتي عزفن على آلات كانت غريبة على إبراهيم، لم ير مثلها في بابل. في طريق العودة، أمر الملك كبير الكهنة أن يطلع إبراهيم على الكتاب المقدس، لم يتحدث عما دار في خلده إلا في المساء حين جلس مع الملك، كان قد قرر أن يؤثر الحلم على المواجهة المباشرة، فقد أحس أن الملك يريد أن يسمع عن عقيدته وأن يفهم أكثر، شعر أن لديه استعداد فطري لاستيعاب ما سيقوله، فآثر الصبر، وقد أوحي إليه بذلك فالتزم ما أوحي إليه به، وهل كان يفعل إلا ما يوحى به إليه؟ لقد هاجر إلى ربه منذ أن كان نطفة في رحم أمه، فهل يبقى من المهاجر شيء من نفسه إلا لربه؟

فى تلك الليلة، قال إبراهيم للملك: «إنكم تؤمنون بالحياة بعد الموت وتؤمنون بالحساب، ولكن تؤمنون بالكثير من الالهة أيها الملك، أتعلم ماذا يحدث بتعدد الآلهة؟»

قال له الملك «ما الذي يحدث؟»

«تتناحر الآلهة فيما بينها، يذهب كل إله بما خلق ويعلو بعضهم على بعض، هذا إن كانت هذه الأحجار فيها حياة.»

جلس الملك مشدوها لا يدري ماذا يقول، فاسترسل إبراهيم:

maktabbah.blogspot.com

«لا يوجد إله إلا إله واحد أيها الملك، رب السموات والأرض وما بينهما، هو الذي يبسط الرزق ويمنح ويمنع، وهو الواحد القهار.»

مالت القلوب إلى إبراهيم، استمع إليه الملك جيدًا دون أن يقاطعه أو يجادله، نظر إلى الكهنة الواقفين من حوله وعلى رأسهم كبيرهم، لانت قلوبهم لكلماته ولو أن عقولهم كانت ترفض هذا الدين الجديد، لقد كانوا على استعداد للانضمام لعقيدة التوحيد، هكذا أحس إبراهيم، إلا أنهم لم يكونوا ليدخلوا في هذا الدين الوافد لتعارضه مع مصالح الكثيرين.. ألقى إبراهيم بذور التوحيد، وترك نهاية الأمر لله، فلم يكن عليهم بوكيل ولا حفيظ، لم يكن عليه

إلا البلاغ، ثم استأذن إبراهيم الملك في الذهاب إلى منف وعين شمس لمقابلة كهنة رع وبتاح، وبذلك تنتهى زيارته إلى مصر. سمح له الملك وقال له: «فلتذهب في أمان وسلام، وإني أهبك الأغنام والماشية والهدايا والعطايا يا رسول الله، وأهب سارة زوجتك الجارية هاجر لتخدمها.»

لقد كان وجود هاجر في قصر الملك تهديدًا لحكمه، فهي الوحيدة المتبقية من الأسرة الحاكمة، فتفتق ذهنه عن هذه الفكرة الخبيثة، فليرسلها إلى خارج البلاد دون أن يدري أحد، وليغفل الناس عن ذكر اسمها، ولينسوا آخر أميرات منف.

أتت كبيرة جناح النساء بهاجر لتتسلمها سارة، أطلت هاجر ببشرتها السمراء وقسمات وجهها الرائعة الجمال وثوبها الكتاني الأبيض البسيط، فقد خُلع عنها التاج ونُزعت عنها كل مجوهراتها، لم تنل عيناها المنتفختان من البكاء من جمالها شيئا، بدت كزهرة لوتس تطفو في استسلام على وجه نهر الحياة الجاري رغما عن إرادتها، تفحصتها سارة وقد تحركت بعض الغيرة في أعماقها، إلا أنها لم تبد شيئا، وارتحلت قافلة إبراهيم في الصباح، محملة بالهدايا والعطايا الوفيرة. تأمل إبراهيم هاجر مليا، فأحس أن هذه امرأة غير عادية، فعلى بساطة ثوبها إلا أن رأسها كان مرفوعا، لم تحن ظهرها مرة واحدة طوال الطريق، غامت عيناها بدمعة سرعان ما حبستها لعزة نفسها، فلا يجوز لأحد أن يرى دموع الأميرات.

فى قوارب في نهر النيل ركب إبراهيم وسارة ولوط واليعازر الدمشقي وهاجر ومن معهم. كان هذا النهر مختلفا عن كل الأنهار التي عرفوها، فهو يسري من الجنوب إلى الشمال، تتهادى زهور اللوتس وأوراق البردى على صفحته الفضية، على جانبي النهر قامت جذوع النخل وأشجار الجميز والسنط والتين، انبسطت المراعي الخضراء تشرب من خيرات النهر العظيم وتترعرع في كنفه.

فى منف، لم تستطع هاجر أن تخفي دموعها التي ظلت حبيسة طوال الرحلة، لقد خذلتها الآلهة التي ادعوا أنها تحمي الملوك، وهل كانت تؤمن بالآلهة على أية حال؟.. ربما كان ذلك هذا هو عقابها لأنها لم تؤمن بها، ولأنها لم تقدم قرابين الطاعة والاستسلام لملك ظن نفسه إلها، بالأمس كانت تحكم منف واليوم صارت جارية.

فى منف وعين شمس، زرع إبراهيم بذور التوحيد وانطلق مرتحلا مرة أخرى إلى كنعان، محملًا بالأنعام والأغنام والجمال، حتى أثارت المواشى غبارًا عظيمًا على الطريق وسار العبيد في أثر القافلة، قافلة تُخبر عن صاحب مُلك عظيم، إنه إبراهيم وقد عاد ظافرًا بما هو أغلى وأثمن من كل تلك العطايا، عاد بأميرة منف سيدة القطرين.

سميعُ الله

انطلقت القافلة تطوي الأرض طيًا إلى حبرون، مدينة الخليل، حيث بنى إبراهيم مذبحًا للعبادة، فبعدما صار من هجوم على أهله في أرض كنعان، آثر البقاء في الخلاء على مشارف حبرون، بعيدًا عن الكنعانيين. مكثوا على الطريق أيامًا وليالٍ طوال، نصبوا فيها الخيام عدة مرات لنيل قسط من الراحة، عبرت القافلة صحراء مصر الشرقية ثم سيناء ومنها إلى بيت إيل مرورا بالعقبة، بعد عبور سيناء أمر إبراهيم الرجال بالتوقف والبيات لليلة في هذا المكان، ومكثت هاجر بالقرب من سارة وإبراهيم، فقد كانت سارة هي مولاتها ولم تكن تعلم بعد كيف ستخدمها وهي التي قام على خدمتها مئات العبيد. في تلك الليلة، بدأت سارة في ممارسة حقها كمالكة لهاجر، فأمرتها أن تعد الطعام، وأرسلتها لتجلب الماء من البئر القريب قبل أن تبدأ في إعداد الطعام. جلست سارة مع إبراهيم، وابتلع الظلام هاجر التي شقت طريقها منكسرة تحمل الجرة لتملؤها، لقد أذلتها الأيام، وها هي ذي في موضع لا يمكن الفرار منه، إلى أين الفرار وقد لفظتها مدينتها، وغدًا ينسى أهل مصر أميرتهم المنفية. انصاعت لأوامر سارة طوال الرحلة، وبعد استقرارها في بادية حبرون، هوّن عليها الأمر فضولها لذلك الدين الجديد الذي دعا إليه إبراهيم، ولطقوس عبادته التي خطفت أنفاسها وجعلتها في حيرة من أمرها.

كان إبراهيم يخرج قبل شروق شمس كل يوم، فتراه واقفا في صدر الصحراء الواسعة وتحت سماء لم يزحف إليها نور الصباح بعد، عباءته واسعة مهيب القامة، ينسدل غطاء رأسه الرمادي على كتفه، وتستقر عمته الصوفية على رأسه في وقار وهيبة، تراها هاجر تكاد تلامس السماء.. يتوافد الرجال من الخيمات، وتزداد أعداد القادمين من ورائه، يبدأ في الصلاة ثم يفرغ منها ويردد بعدها الأدعية العذبة التي تنساب من فمه كنهر صاف يعيد القلوب إلى نصاب فطرتها السليمة، ويهز الأرواح فلا تنشغل إلا بالمعبود الأعظم. فإذا قُضيت الصلاة، ينتشر الجميع في الأرض، كل إلى رأس عمله، أولئك الرعاة للماشية، وآخرون يعملون على بناء سقيفة من جذوع النخل، ليجتمع فيها الناس ويُمد فيها السماط للضيوف المارين على الطريق، وتنزوي النساء إلى العناية بالأولاد، وتتصاعد الأبخرة من الطناجر وتنتشر رائحة الطعام في الجو تحملها رياح الخريف بين الخيام.

في إحدى تلك الأيام الخريفية وقد قارب الشتاء، أرسلت سارة هاجر إلى إبراهيم قبل أن يشرع في الصلاة، فقد نسي شاله الصوفي. أدركته هاجر قبل أن يبتعد عن الخيمة، فنادت عليه قائلة:

«سيدي، نسيت شالك الصوفي، أرسلته إليك سيدتي سارة...»

التفت إليها إبراهيم عالمًا بكنه ما تشعر به، تناول منها الشال قائلًا: «بوركت يا هاجر.»

قالت له هاجر بعد لحظات من الصمت المتبادل: «سيدي، لقد ناديتني باسمي والجميع ينعتونني بالجارية، لم فعلت ذلك؟»

تأمل إبراهيم في وجهها الجميل، أحس بالشفقة عليها، الله يعز من يشاء ويذل من يشاء، قال لها: «وهل أنتِ جارية يا هاجر؟»

حبست هاجر أنفاسها وقد ذهلت لما قال، ولم تدر ماذا تقول.. لم ينتظر منها إجابة، تركها منصرفًا قبل أن تقول شيئا، وشرع في السير إلى الخلاء - محراب الصلاة.

على باب خيمة إبراهيم، وقفت سارة تراقب حديثهما، لم تدر ما دار بينهما من حديث، لكنها أحست بالألم يعتصر قلبها، تلك الأوجاع التي تأتي مجتمعة ويتعذر البوح بها لا يمكن العيش معها في سلام وأمان، أي أمان يمكن أن تشعر به وهي كأرض جدباء يمكن أن يهجرها ساكنوها في غمضة عين ودون إنذار. قالت لنفسها إن إبراهيم لم يكن ليفعل ذلك بها، ولكن ماذا هي بفاعلة؟ لقد قاربت على السبعين من عمرها ولم ترزق بولد. استقبلت سارة هاجر عند عودتها بسيل من الأوامر والتكليفات الشاقة بعيدًا عن الخيمة، أرادت أن تبعدها عن وجه زوجها ما استطاعت، اضطرمت في نفسها نيران الغيرة من شيء لم يكن موجودًا بعد، انشغلت كثيرا بإبراهيم وأثر انشغالها على خشوعها في الصلاة واتصالها بربها، فمتى تأججت النفس بمطالبها احتجبت عن الرب، أحست أن عليها أن تفعل شيئا ما، لكن لم تدر ما هو بعد.

في أحد الأيام، وقد شارف الشتاء على الحلول، دعت سارة بعض النسوة إلى خيمتها لتناول الحساء، كان معظم الرجال قد خرجوا إلى الصيد، وأرادت سارة ألّا تبقى وحيدة. أتت النسوة في عباءاتهن الصوفية الثقيلة وجلسن إلى سارة، وراحت تتجاذب معهن أطراف الحديث، بينما تصب لهن هاجر شراب الأعشاب الساخن وتقدمه لهن في أكواب من طين الفخار. رمقت سارة هاجر بنظرة آمرة ذات معنى، فخرجت هاجر إلى خارج الخيمة تنتظر حتى تنادي سيدتها. كانت الأيام قاسية على قلب هاجر، أقسى من جفاء صحراء مصر وخشونة أهلها وجحودهم، لقد صارت في عداد المنسيين وأصبح اسمها بلا ذِكر وظمست سيرتها إلى يوم الدين. في داخل الخيمة تحدثن النسوة عن جواريهن، فقالت إحداهن: «جاريتك هاجر جميلة جدًا، لم أرَ في مثل جمالها على الرغم من سمرة لونها.»

صمتت سارة، فقد أحست مرة أخرى ببعض الغيرة.. التقطت طرف الحديث إحدى النساء العجائز، وكانت من حكيمات النساء وقد جاوزت المائة وخمسين عاما من عمرها: «هل علمتن أن إحدى النساء ستهب جاريتها لزوجها، لكونها لا تلد؟»

أحست سارة بغصة في حلقها ومادت بها الأرض، فالمرأة تعلم أيضا أنها لا تلد، لماذا تتفوه بهذه الكلمات في حضرتها؟.. تماسكت سارة وسألت العجوز:

«وماذا إن تعالت الجارية علي سيدتها بعد ذلك؟»

قالت لها العجوز «لا يمكن أن يحدث ذلك، وشريعة حمورابي موجودة.»

«شريعة حمورابي! وما دخل قوانين حمورابي بهذه الأمور؟» تساءلت سارة: «لهذا الأمر قانون أيضا في قوانين حمورابي، سأخبرك بكل شيء، إذا وهبت الزوجة جاريتها لزوجها ثم نافستها الجارية في حب زوجها للزوجة أن تسترد الجارية فتفعل بها ما تشاء، تعيدها أمة مرة أخرى، أو تبيعها إن لم يكن لها ولد، فإن كانت قد أنجبت تمكث في الدار كجارية تخدم الجميع.»

واصلت العجوز قائلة «وإن أنجبت، فإن الولد يكون ابن سيدتها.»

انفض جمع النساء، وقامت سارة معهن ترافقهن إلى خارج الخيمة.. أحست أن العجوز الحكيمة قد قصدتها بما قالت، وأنها أرادت أن تخبرها بشيء دون أن تجرح كبرياءها، ولكنها قدمت لها حلًا من أصعب الحلول على قلب امرأة تحب زوجها. ابتعدت النسوة، وظلت سارة واقفة متسمرة في مكانها، تلتحف ببرد الشتاء ولا تشعر بالبرد، تشعر فقط بألم يسري في روحها، استدارت لتعود داخل خيمتها، فأبصرت هاجر واقفة على بابُ الخيمة كما أمرتها.. ألقت عليها نظرة من أخمص قدميها إلى رأسها، انتظرت هاجر أوامر سيدتها، أمرتها سارة بأن تنصرف إلى خيمتها وعادت هي إلى خيمتها يكسو غمام الحزن عقلها الحائر.. جلست تصلي طويلًا وتبتهل إلى الله ليخرجها من عثرتها، ويهوّن عليها ابتلاءها.

maktabbah.blogspot.com

فى تلك الليلة، أوى إبراهيم إلى الخيمة، فاحتمت بحضوره من برودة نفسها، تأملته طويلًا حين غط في نوم عميق، هذا الرجل ذو الشأن العظيم، جميل المحيا، بهي الطلعة، تهابه أسود الملوك وتخشاه السباع إذا مر بها، تخضع له الأمم، هذا الرجل الذي أحبته منذ أن وقعت عيناها عليه في أور وهي طفلة صغيرة، أتدعه بهذه البساطة ليذهب بين يدي امرأة غيرها؟ وهل تركها هو حين علم أنها لن تلد؟ هل تخلى عنها طيلة هذه السنوات؟ فلماذا لا تكون هي أيضا كريمة مثل هذا الرجل الكريم ابن الكرام؟ أليس أصل الحب أن يتخلى الحبيب عن روحه لمحبوبه إذا لزم الأمر؟ ألم تكن لتفديه بروحها؟ فلماذا لا تعطيه هاجر؟

حسمت سارة أمرها في تلك الليلة، بقلب يقطر كمدا.. أغمضت عيناها اللتان سالت منهما دموع حارة، وراحت في النوم إلى جانب زوجها وحبيبها، الذي عزمت، عندما تطلع شمس اليوم الجديد، أن تهبه امرأة أخرى.

راح إبراهيم في نوم عميق، كان متيقظًا فيه يقظة السابحين المسبحين في الملكوت.. في الرؤيا، سمع كلام الله له يخبره أن الله سيهبه ولدًا من لدنه، قال له إبراهيم:

«كيف يارب وامرأتي عاقر، ولا وارث لي إلا اليعازر الدمشقي؟»

فكأنه يسمع هاتفًا يبشره.. «بل الذي يخرج من ظهرك هو الذي يرثك. انظر إلى السماء وَعُدَّ النجوم إن استطعت أن تَعُدَّهَا، هكذا يكون نسلك.»

بزغت شمس يوم جديد على الجميع، ودبت الحياة في الخيام.. راح إبراهيم يتلو صلواته ومن ورائه أمة من الناس، بينما أعدت سارة طعام الصباح بنفسها، بعد أن صرفت هاجر إلى خيمتها. تعجبت هاجر من أحوال سيدتها منذ الأمس، ولكنها انصاعت لأوامرها. عاد إبراهيم من الصلاة، فنظر إلى أصناف الطعام المختلفة بحب، بادرته سارة قائلة: «لقد أعددت كل شيء بنفسي.»

جلسا على الأرض إلى الطاولة المنخفضة، وشرع إبراهيم في تناول الطعام، لكنه توقف ونظر إلى سارة قائلًا:

«لقد تغير بك شيء يا سارة، ما الذي يشغل بالك يا أميرة النساء؟»

احمر وجه سارة، وهمت بالمهمة الشاقة التي عزمت عليها منذ ليلة أمس.. صمتت لبرهة، ثم شرعت في الحديث:

«يا إبراهيم، لقد قاربت على السبعين عاما وقاربت أنت على الثمانين، لم يكن بمقدوري أن أهبك الولد، ولكن، لأني نذرت لك روحي، فإن ما سأهديك إياه سيكون فيه سعادة وبشرى لك.»

تفحص وجهها قائلا بتلهف لمعرفة المزيد: «ما الذي ستهديني إياه يا أميرة قلبي؟ أخبريني فإني والله لا أطيق صبرا.»

«أهديك هاجر جاريتي يا إبراهيم، لتأتي لنا بالولد.»

خيم صمت طويل، ووجم وجه إبراهيم.. لقد أراد أن يكون له أولاد من حبيبة عمره ورفيقة دربه سارة، التي تفتحت زهور شبابها في ريعان قلبه؛ كيف يمكن له أن يفعل ذلك بها، أن يُدخل عليها امرأة أخرى، لم يفكر بهذا الأمر قط، فكيف فكرت هي بمثل ذلك؟! قطعت سارة الصمت قائلة في شرود:

«لقد سمعتك لسنوات طويلة وأنت تدعو قائلا « رب هب لي من الصالحين»، كيف يمكن أن أتحمل حرمانك طيلة هذه السنوات، وكيف لي ألا أشكر صبرك ومحبتك لي؟ تزوج هاجر،

إني راضية عن هذا الزواج، إن كان به خير لك ونسل من لدنك يكون عونك.»

وافقها على مضض، وبعد حديث دام حتى ارتفعت الشمس في السماء، أحس بغصة في أعماق قلبه ورأى العبرات السجينة في مقلتي سارة والابتسامة التي رسمتها قسرًا على وجهها.. كان الوجع شديدًا ولكنه سمع الوحي يسرُّ في أذنه: «تزوج من هاجر.»

مرت الأيام التالية ثقيلة على سارة، زفت إلى هاجر نبأ زواجها من إبراهيم وأنها وهبتها له، وأعدت سارة بنفسها لزفاف زوجها، فأقيمت الولائم وأتى الناس إلى العرس من أرض كنعان وبيت إيل وحبرون، أشرفت سارة على جهاز هاجر وعاونتها بعض النسوة الأخريات، ألبستها ثوبا أحمر من حرير، وألقت عليها عباءة صوفية خضراء؛ لم تكن هاجر قد لبست ثوبًا جميلًا منذ أن خلعوا عنها ثوبها في جناح الحريم في قصر الملك في أورايس، فأحست أنها أصبحت أميرة مرة أخرى، أغمضت عينيها فرأت وديان منف المنبسطة يكسوها الخضار، ارتفعت المسلات وتناثرت النجوم في السماء احتفالًا باقترانها بإبراهيم، أحست بسعادة بالغة، فقد كان رجلًا تتمناه كل نساء الأرض، أما هي فقد رنا قلبها إليه لرقة قلبه وحلم أخلاقه وعذب حديثه، مشاعر كتمتها وتجاهلتها، إلا أنه لا سبب للكتمان الآن، ستصبح الليلة حليلته.

أقيم في الخيمة احتفال زفاف كبير.. قبل الزفاف، دخل إبراهيم على سارة فقبّل يديها، أخبرها أنه يحبها كثيرًا وأنه لا توجد امرأة يمكن أن تأخذ مكانها بقلبه. انتظرته هاجر في خيمتها الجديدة التي جُهزت لهما، ولما دخل عليها إبراهيم، نظر إلي وجهها نظرة طويلة ثم قال لها:

«بوركت يا أميرة منف يا كريمة يا ابنة الكرام.»

أصيبت هاجر بالذهول من كلماته، لقد أسرت أمرها في نفسها لسنوات ولم تبد لأحد شيئا؛ كان ليسخر منها الجميع إذا تفوهت بشيء، كانوا ليقولون إنها كاذبة أو مجذوبة، بما كان يفيدها أن يعلم الناس، في النهاية لقد افترقت عن أهلها ووطنها ولم يعد هناك طريق للعودة. قالت له هاجر: «كيف علمت، أنا لم أخبر أحدًا بهذا الأمر؟!»

«أوحى إليّ الله، فعلمت.»

انفرجت أسارير هاجر، التي كانت قد أسلمت أمرها إلى رب إبراهيم وآمنت به، وهو الآن يستبدل أيام حزنها بأيام فرح، بين يدي رجل عظيم. قضى إبراهيم الليل عند هاجر، وفي خيمة أخرى جلست سارة في ركن قصي، وتكوّر جسدها من الحسرة والألم، واشتعلت في قلبها نيران أعظم من النيران التي أضرمها قوم أور لحرق إبراهيم. أجهشت بالبكاء وانتحبت

لساعات طويلة، حتى أحرقت الدموع الساخنة مقلتيها وأنهكتها، فراحت في نوم عميق.

خرج إبراهيم من خيمة هاجر في الفسق متوجهًا إلى خيمة سارة قبل أن يتوجه للصلاة. رفع ستار الخيمة ودخل، فرأى سارة نائمة في ركن منها، وعندما دنا رأى بقايا دموع لم تجف على وجنتيها، فوقف يتأمل وجهها في شفقة، وقد أحزنه حالها؛ إلى متى يمكن أن تتحمل سارة؟ وضع يده على كتفها، فأيقظها وأجلسها على الفراش.. ابتسمت له سارة ابتسامة أحس لها أن الشمس قد أشرقت، جعلت النور يشرق في جنبات قلبه، قال لها في حنان:

«هلا أعددت لي الطعام يا أميرتي..»

مرت الأيام بطيئة على سارة، لم تعد هاجر جاريتها ولا يمكن أن تأمرها بشيء، كان عليها أن تتحمل الليالي التي يقضيها زوجها في خيمة هاجر، أما هاجر فقد أحست بالحب الشديد تجاه إبراهيم، واتخذته مُعلمًا لها، فقد أتت من منف حيث عُبدت الآلهة ولم تكن تعبد أيا منها ولم تعرف ماذا تعبد، وحين أصبحت جارية وعرفت عن دين إبراهيم آمنت بربه وأحست للمرة الأولى أنها قد تحررت من عبودية الفكر وأحست براحة في قلبها، لكنها لم تكن تعلم أكثر من ذلك، فصار في كل ليلة يحدثها عن وحدانية الله ويشرح لها الكثير من تعاليم ملته الحنيفية، وهاجر تتشرب بالكثير من النور من روحه السمحة، صارت تصلي في خيمتها وترتل بصوت عذب أخاذ للقلوب، ترامت تلاوتها إلى خارج الخيمة فذهب النساء ينضممن إليها في الصلاة، أحس إبراهيم أنه قد فاز بامرأة مؤمنة القلب جميلة الطلعة ستكون يومًا ما ذات شأن عظيم.

هكذا مرت الشهور على سارة وهاجر.. آوت سارة إلى صلاتها كلما أحست بوخزة من ألم الغيرة في نفسها من بريق نجم هاجر، كيف تحتمل كل هذا الوصب؟.. كان عليها أن تنتظر قليلًا ربما تهب لهما هاجر الولد.

فى صبيحة أحد الأيام، استيقظ الجميع وذهب كل إلى حالة، وبقيت هاجر في الخيمة وحدها، فقد بات إبراهيم الليلة عند سارة. فرغت من صلاتها، تلك الصلاة التي علمها إياها إبراهيم، عذبة كشربة ماء في يوم حار، أو كهبوب الدفء من نار موقدة على الحطب في ليلة شتاء باردة، صلاة تكسو نفسها بالسكون التام والرضا بكل ما كان وما سيكون.. انتهت من صلاتها، وخرجت إلى خارج الخيمة لتملأ جرة اللبن من حظيرة الأنعام، وكانت الشمس قد بدأت في الصعود إلى السماء، ترسل بأشعتها الساخنة على رأس هاجر. ألقت عليها النسوة التحية، أبصرت سارة تقف خارج خيمتها من بعيد، رمقتها سارة بنظرة غريبة، أومأت هاجر برأسها محيية إياها ومضت في طريقها. في منتصف الطريق، غامت الدنيا في عيني

هاجر ومادت بها الأرض، أحست برأسها تدور، تماسكت وشدت يداها على الجرة، إلا أن قدميها لم تحملاها فترنحت وسقطت مغشية عليها. لم تدر هاجر بشيء بعد سقوطها، إلا حين أفاقت فوجدت إبراهيم وسارة وبعضا من النساء يقفن فوق رأسها، لا تعلم ماذا حل بها ولا ماذا أصابها. رأت القابلة من ضمن النسوة اللواتي وقفن حول فراشها، ثم انسل إبراهيم خارج الخيمة، وأمرت القابلة جميع النساء أن يخرجن قائلة:

«فلتخرجن جميعا، ولتبق الخالة سارة...»

انصرفت النسوة، وبقيت القابلة وسارة مع هاجر في الخيمة. تفحصت القابلة هاجر جيدا، سألتها كم مرة شعرت بالدوار في الأيام الماضية، ثم انتهت من عملها ونظرت إلى سارة نظرة ذات معنى، فاصطحبتها سارة إلى خارج الخيمة حيث كان ينتظر إبراهيم أمامها، وقفت القابلة في مواجهة الاثنين، سارة وإبراهيم، قائلة لهما:

«أبشرا، سيمنحكما الله ولدا من رحم جارية الخالة سارة.»

تهللت أسارير إبراهيم وانفرجت قسمات وجهه، بينما تصنعت سارة ابتسامة باهتة، وحاولت أن تبدي فرحتها بهذه البشرى العظيمة.

مرت بضعة أشهر منذ زُف إليه النبأ السار، تبتل لله حمدا وشكرا، وسجد عند المذبح الذي أقامه على قمة الجبل، والذي يطل على نصاب خيامه. تماسكت سارة، إلا أنها كانت تشعر بمزيج من العواطف المتناقضة بداخلها، فعلى الرغم من أنها أرادت هذا الولد وأنها هي التي أهدت هاجر لإبراهيم ليتزوجها، إلا أنها أحست بخيبة أمل حين علمت بالخبر، مختلطة بإحساس بالذنب لهذا الشعور الذي اعتراها، واستغفرت الله منه.. ربما أرادت أن يكون رحمها هو من يحمل هذا الجنين، أو لأنها قد أحست أن هاجر ستصبح في مكانة أعلى في قلب زوجها.

هكذا توهمت سارة في الأيام التالية، فأحست أن هاجر قد تعالت عليها بعد أن حملت الولد في بطنها، تلك الأيام هي الأصعب على سارة وهاجر، فواحدة قد بادرها الشك وغلف عقلها الوهم، فباتت تعامل هاجر معاملة باردة، والأخرى كتمت في قلبها وصبرت وتحملت، حتى أتى يومٌ عاد إبراهيم إلى خيمة سارة فوجدها جالسة خلف الطاولة الفارغة من الطعام، لم تُعد سارة شيئا من الزاد اليوم، رأى علامات الضيق على وجهها، فجلس إلى جانبها وسألها:

«ما الذي يحزنك سارة؟»

«سارة! أنت حتى لم تعد تناديني بأميرتي كسابق عهدك! ما الذي حدث يا إبراهيم، هل

أصبحت الجارية هي المفضلة لديك؟

وجم وجه إبراهيم ولاذ بالصمت، فواصلت سارة قائلة وقد احتدمت فورة غضبها: «ظلمي عليك، أنا دفعت جاريتي إلى حضنك، يقضي الرب بيني وبينك.»

أحس إبراهيم بالحنق والضيق، فقال لها «هذه جاريتك، افعلي بها ما يحسن في عينيك.»

خرج من الخيمة في تلك الليلة تاركا سارة، الأمر الذي زاد من حدة غضبها، لظنها أنه سيقضي الليل عند هاجر، إلا أن إبراهيم غاص في الخلاء متوجها إلى المذبح الصغير عند قمة الجبل يختلي بربه ويناجيه...

كانت الأيام التالية قاسية على هاجر، فقد أحست ببرودة سارة تجاهها، وأحست أنها غير مرغوب بها، وفكرت هاجر أن ترحل. ارتفع القمر من خلف سلسلة الجبال البعيدة، ومر إبراهيم بهاجر ليطمئن عليها وعلى جنينها، ثم قال لها: «سأقضي الليل عند سارة.»

أحس في عينيها شيئا من الانكسار والغرابة، فربت على كتفها وقبّل رأسها وانصرف، وبقيت هاجر وحيدة تماما كما أرادت، قامت فجمعت أغراضها في مخلاة من الصوف، وربطتها ووضعتها إلى جانبها، وعندما غاصت السماء في ليل حالك وسكنت الأصوات خارج الخيمة وأوى الجميع إلى خيامهم، قامت هاجر فأزاحت ستار الخيمة وأطلت على الليل الأسود الغامض.. أين ستذهب في هذا الليل، وماذا سيحدث لها ولولدُها؟.. كل ذلك لا يهم، المهم أنها ستذهب بعيدًا حتى وإن استقر الأمر على ذهاب روحها، فإن الله أرحم بعباده من الخلق. حملت المشعل، وسارت حتى ابتعدت وابتلع جسدها الظلام.. سارت في العتمة حزينة لا تلوي على شيء، لا تعلم أين تتجه. أحست بالعطش في ليل بلا شمس، وبينما كانت تمشي رأت على ضوء المشعل ماءً يلمع في الأرض، لم يكن ذلك الذي رأته سرابًا، اقتربت حتى تحققت من عين الماء الجارية، أيمكن أن تكون تلك هي العين التي على طريق شور؟ فكرت هاجر، لا يهم المهم أن هناك شربة من الماء تروي بها عطشها. حمدت الله ووضعت مخلاتها على الأرض، وذهبت لتملأ جرة الماء. وبينما هي تفعل، إذا بوجه يطفو على صفحة الماء، ففزعت وعادت بجسدها إلى الوراء هامةً أن تلوذ بالفرار، لكنها أحست بقدميها تتسمران في الأرض رغما عنها. كانت متوجهة بوجهها إلى صفحة الماء، فجاء صوت الوجه الذي يتجلى على وجه الماء عذبا يقول لها: «يا هاجر، من أين أتيت وأين تذهبين...؟

قالت هاجر «أنا هاربة من وجه مولاتي سارة.»

قال لها الصوت «يا هاجر أنا ملاك الرب، جئت لأخبرك بأمر ربك، عودي إلى خيمتك، أنت حبلى وستلدين ابنا، وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع مذلتك.. سيكون ابنك وحش

الناس، يده على الكل ويد الكل به، ويملك جميع بلاد إخواته.»

تجلى الملك لهاجر خارج الماء وقال لها: «وإني مرافق لك على طريق العودة.»

عادت هاجر إلى الخيمة في تلك الليلة يرافقها الملك الكريم، وحين وصلت كانت الخيام صامتة والليل مازال يضرب بظلمته على المكان وكأن الوقت لم يمر قط. التفتت إلى الملك قائلة: «كيف لم يطلع الصباح بعد؟ لقد قطعنا طريقا طويلًا في عودتنا إلى هنا؟»

قال لها الملك «الله يطوي الزمان والمكان يا سيدتي هاجر، وإن شاء لا يُبقي لهما وجودًا.»

ألقى الملك السلام على هاجر وانصرف، تاركًا إياها عند باب خيمتها. تحسست بطنها، وأحست أن إسماعيل يتحرك لطيفًا في أحشائها مؤنسًا لوحدتها. في هذه اللحظة من اتصال الابن بأمه، تغير كل شيء في قلب هاجر، عزمت على التحمل والصبر والكتمان حتى يأتي إسماعيل إلى الدنيا. في الصباح حين التقت بإبراهيم سألها:

«كيف كانت ليلتك يا هاجر؟»

قالت له متوجسة خيفة أن يكون قد علم من أمر عزمها على الفرار: «الحمدلله، أنست بربي ووجدت الأمان مع إسماعيل.»

لم تكن تعلم أنه قد أوحي إلى إبراهيم بأمر فرارها، وأنه قد علم بكل شيء وأشفق عليها وأحس بقدر صبرها على حالها، فعاملها برفق شديد في الشهور التالية، حتى أتى إلى الحياة سميع الله إسماعيل. تلقى إبراهيم مولوده الأول بين ذراعيه، وهو ابن ستة وثمانين عاما، أحس بنور الأبوة يكسو قلبه كحدائق غناء أزهرت بالورود والرياحين، نظر إلى وجه ابنه الأول فرأى في وجهه نور الرسالة، فتهلل فؤاده وطافت روحه في الملكوت الأعلى شكرًا لله، لقد دام الصبر طويلًا وكان العوض جميلًا. أنت النسوة يباركن لهاجر، وقد السماط للذاهب والآتي فرحًا بقدوم إسماعيل إلى الحياة.

لعامين قادمين أرضعت هاجر إسماعيل، وتحملت سارة حتى فاض بها من اهتمام إبراهيم بولده وأمه، فأعادت الكرة مجافية هاجر مرة أخرى. كان لها أن تستردها كجارية، وقررت أن تأخذ هذا الحق بموجب الشرائع.. راقب إبراهيم ما يحدث بين المرأتين، لم يكن ليكسر قلب سارة حبيبته ولا أن ينهاها عما تفعل، فقد تأججت الغيرة في قلبها، ستسيء تفسير نصحه لها، كان لابد أن يفض هذا الاشتباك الذي يعكر صفو الحياة على الجميع. فكر في أن يرسل هاجر إلى مصر، ولكنه أشفق عليها من أن تذهب مرة أخرى حيث تُعبد الأصنام ويرسل معها ولده، فيتربى وسط هؤلاء القوم وعلى ملتهم التي يطؤها الشرك بالله.. فكر في أن يرسلها إلى حران، ولكن حران ليست أفضل من مصر أو بابل، في كل مكان كان يعبد شيء غير الله،

طغى الظلام في بقاع الأرض ولم يتبق إلا قليل من المؤمنين يكتمون إيمانهم في بلادهم، وخيمته القابعة في الخلاء على مشارف حبرون كانت هي الدرة اللامعة وبقعة نور الإيمان في الأرض.

صعد إبراهيم إلى الجبل في ليلة قد اكتمل فيها القمر، وألقى البدر بسنا شعاعه على الوادي، جثا على ركبتيه وشرع في الصلاة عند المذبح الصغير، جلس بعد ذلك في مواجهة المذبح غارقًا في أفكاره المتلاطمة كموج البحر، فكرة تليها فكرة.. فكر في المعابد الضخمة التي بناها المصريون والبابليون لآلهتهم، وفى أور حيث تربى، لماذا لا يكون هناك بيت لله أكبر من كل هذه المعابد؟ في النهاية لقد كانوا يعبدون أصناما وشموسا وأقمارًا، أليس المؤمنون أحق ببيت عبادة يقصده القاصي والداني؟.. قلّب وجهه في السماء، أين تكون قبلة المؤمنين بالله؟ أين سيكون بيت الله؟ هل يجعل الله له بيتا في الأرض؟

كل هذه الأفكار تزاحمت في رأسه، هي وأمر هاجر وابنه إسماعيل.. ثقلت رأسه، فنام، فأوحى الله إليه أن خُذ ولدك وأمه واذهب بهما إلى بريّة فاران بأرض الحجاز...

وما كان على الرسول إلا أن يصدع بما يؤمر...

بَرية فاران

عند بزوغ الشمس، وبعد عدة أيام من تلقي إبراهيم للوحي، سارت القافلة الصغيرة مبتعدة عن الوادي، تضم إبراهيم وهاجر وإسماعيل، تشق عباب البرية. ترك خلفه سارة وقد ارتاحت قسمات وجهها ولان طبعها، بعدما سمعت بما أوحى به الله له، ستكون هاجر وإسماعيل في مكان بعيد، وستخمد النار في قلبها، وسيبقى زوجها لها وحدها. أما هاجر، فلم تكن تعلم إلام سيؤول أمرها، أحست أنه ربما سيتخلص منها لإرضاء سارة، ولكن كيف؟ وماذا عن الولد الذي رزق به في سن كبير؟ أسرت كل الهواجس في نفسها وطمرت على نار قلبها بالدعاء، فلم تسأله أو تجادله في شيء.

انحدرت القافلة إلى جنوب شرق، حتى وصلت إلى طريق القوافل في شرق الأردن وسارت فيه جنوبا حتى إيلة على الطرف الشمالي لجنوب العقبة، ثم اتخذت طريق القوافل الموصل إلى اليمن، فصارت بموازاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر. نظر إبراهيم في السماء، فرأى غمامة كبيرة أظلته وابنه وامرأته على الطريق، رافقتهما وأرشدتهما إلى البقعة التي أريد لهما أن يصلا إليها سالمين، فطن إلى أمر الغمامة فسار براحلته أينما سارت حتى وصل إلى مكان منخفض بين جبلين، بدا المكان كبكّة بين مرتفعات تحوطها، نظر من حوله فرأى وادٍ أجدب بلا زرع، لم يعلم إن كانت هي البقعة المنشودة من الأرض، أنزل هاجر من على الناقة وأخبرها أن تنتظر وانطلق هو، مثبتا بصره على الغمامة. لم تتحرك الغمامة وراءه، وبقيت لتظلل هاجر وإسماعيل، أدرك أن هذه هي برية فاران، فعاد أدراجه إلى إمرأته وولده ،حيث جلست هاجر لترضع ولدها إسماعيل وتنال قسطا من الراحة، تأملهما إبراهيم عن كثب، لقد كان على وشك أن يترك قطعة من روحه في هذا الخلاء ويذهب دون أن ينظر ورائه، كان على وشك أن يتخلى عن زوجته وابنه وأن يتركهما لله يفعل بهما ما يشاء، ها هو ذا اختبار آخر للتسليم والإذعان للمشيئة الإلهية، أن تخلع عباءة نفسك عنك وتترك الهوى وتهجر الأحباب إلى غير رجعة دون أن تعرف إن كنت على ميعاد لقاء بهم مرة أخرى، هي الاختبارات الربانية لعباد الله الحقيقيين، الاختبارات التي تجعل من الإنسان عبدًا نبيًا رسولا، إذا كان الله قد اتخذه خليلًا فماذا يرجو من الدنيا بعد ذلك. استغرق في التفكير بينما بدأ في بناء عريشة من جذوع النخل لهاجر وإسماعيل، استغرق البناء ثلاثة ليال وأربعة أيام، لم تعلم هاجر ما الذي سيحدث بعد إتمام البناء ولم تسأل، في صبيحة اليوم الرابع فرغ من صلاته وذهب إلى هاجر فوضع إلى جانبها جرابًا حوى تمرًا وسقاة من الماء، لم ينبس بكلمة وذهب منطلقا. أحست هاجر بالخوف الشديد، حملت إسماعيل على ذراعها وهرعت خلف إبراهيم قائلة له:

«يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي؟!»

لم يرد إبراهيم، فواصلت سارة الركض وراءه وسألته:

«آلله أمرك بهذا؟»

«نعم...»

قالت له هاجر مطمئنة:

«فإذًا لا يضيعنا...»

عادت هاجر أدراجها إلى العريشة وقد أسلمت وجهها إلى الله، وانطلق إبراهيم في طريقه عائدًا إلى حيرون.. توقف هنيهة على الجبل المطل على الوادي عند نقطة لا يمكن لهاجر أن تراه منها، ألقى نظرة أخيرة عليها وعلى وفلذة كبده إسماعيل، وجه وجهه إلى البيت وتوجه إلى الله بالدعاء:

«رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ»

جلست هاجر تحت العريشة، في الوادي القفر، تنظر إلى وليدها وتردد في نفسها «لن يضيعنا الله»، تأملت في وجه إسماعيل فنست كل ما كان من أمر نفسها وما آلت إليه، كان هذا قدرها، أن تُطوى صفحتها بين طيات المقدرات، أن تُنسى من شعبها وزوجها ولا يبقى إلا هذا الولد الذي أتى من رحم قلبها، الآن، وهنا، لا يوجد أنيس ولا جليس، لا يوجد ما اعتادته من خدم وحشم في قصرها المنيف، ولكنها لم تكن على الحال السابق، بل في أحسن حال، لقد منَّ الله عليها وأخرجها من ظلمات الوهم والجهل إلى رحاب نور الإيمان، لم تكن كل السنين السابقة من عمرها إلا ترتيبا وتمهيدا لهذه اللحظة من عمرها، راحت تشرب من سقاة الماء وتأكل من التمر، جالت ببصرها في الوادي الجدب، تحيطه الجبال من كل الجهات، جبلي الصفا والمروة وجبل قبيس، مضت الليلة الأولى ولم يمر لا إنسان ولا حيوان على المكان، حتى إذا انتصف النهار نظرت هاجر فوجدت أن الماء قد نفد وبدأ الولد في البكاء.. جزعت هاجر جزعًا شديدا، نظرت إلى الجبال أمامها وقالت لنفسها:

«إذا صعدت إلى هذا الجبل قد أبصر وراءه بئرًا أو عين ماء...»

أنزلت إسماعيل من بين ذراعيها ووضعته على الأرض وانطلقت مهرولة نحو جبل الصفا وبدأت في الصعود، حتى إذا وصلت أعلاه ونظرت في الجهة الأخرى إلى أسفل الوادي فرأت ماءً عند أقدام جبل المروة فهبطت من الصفا مهرولة نحو جبل المروة ،حتى إذا بلغته لم تجد شيئا من الماء، لقد كان ما رأت سرابا.. ركضت هاجر سبعة أشواط بين جبلي الصفا

والمروة وقد نال منها الجهد وتورمت قدماها وانفطر قلبها على إسماعيل ولدها الذي كانت تسمع صدى بكائه يتردد في جنبات الوادي بينما تبحث عن الماء، حتى إذا بلغت الشوط السابع سمعت صوت ماء فقالت لنفسها «صه» لتخفت صوت لهاثها فتستطيع أن تحدد مصدر الصوت.. نظرت إلى أسفل وهي تنحدر من جبل المروة، وقد لاحت لها العريشة ورأت ابنها إسماعيل، فإذا بعين ماء تتفجر عند أقدام ولدها الرضيع!

«اللهم إني أدعوك ألا يكون سرابا..»

توسلت هاجر لله وهي تركض نحو العريشة، فوجدت الماء قد تفجّر حقًّا، صافيًا يجري على الأرض في اتجاهات شتى، فجثت على ركبتيها خائفة أن يضيع الماء ويجف، وراحت تحاول أن تحبس الماء المتفجر من العين قائلة للماء: «زمي زمي يا مباركة...»

وإذا بمَلَكٍ من عند الله يقف عند عين زمزم قائلا لها وهي تحاول أن تحيط بالماء بكلتا يديها: «لا تخافي الضيعة، فإن هذا بيت الله الحرام. يبنيه هذا الغلام وأبوه، إن الله لا يضيع أهله.»

حمدت الله حمدًا كثيرًا، ومدت يديها لتسكب الماء على وجهها ورأسها لتهدئ من حرارة جسدها بعد مشقة السعي بين الصفا والمروة، راحت تملأ سقاتها وكلما ملأت تفجّر ماء جديد فتشرب منه. كان للماء مذاق عذب لم تذق مثله من قبل، أذلك هو ماء الجنة التي أخبرها عنها إبراهيم؟ إنه والله لأطيب ماء تذوقته في حياتها.

maktabbah.blogspot.com

جلست هاجر أخيرًا لتنال قسطا من الراحة، وقد هدأ روع إسماعيل وراح يضحك في وجهها بوجهه الملائكي الصغير، رأت أسرابا من الطيور تتجه نحو العين فتشرب منها ثم تواصل تحليقها فوق المكان، لم تكن قد رأت طيرًا ولا دابة ولا إنسيًا في هذا المكان منذ أن وطأته قدماها.

على مبعدة من برية فاران، أبصر الطيور الحائمة بعض رجال من جرهم بوادي مكة، فقال أحدهم للآخر:

«أنى تحوم الطيور فوق هذه البرية ولا يوجد بها ماء!»

قال له الآخر «لا أعلم، فلنذهب ونتفقد الأمر.»

سار الرجلان حتى إذا وصلا إلى برية فاران أبصرتهم هاجر فتوجست في نفسها خيفة، حتى ألقى الرجلان عليها السلام ونظرا إلى عين الماء الجارية متعجبين من أمر هذه البرية التي كانت قفرًا لسنوات طويلة، قال أحدهما وكان كبير القوم:

«أتأذنين لنا يا سيدتي بالنزول عندك حول هذا البئر؟»

«آذن لكم، ولكن لا حق لكم في الماء.»

ذهب الرجال وعادوا بالرجال والنساء والإبل والأنعام، أبصرت هاجر قوافلهم القادمة المحملة بصنوف الدواب المختلفة والعامرة بالناس فأحست بالارتياح وتوجهت إلى السماء شاكرة لأنعم رب السماء.

ومن الجهة الغربية لبرية وادي فاران، سار غلامان في رعاية قطيع أغنامهما، فأحسا بالعطش، وكانا من العماليق، رأيا الغلامان الطيور تحوم حول بقعة، فسارا خلف الأثر حتى وصلا إلى عين زمزم وسألا عن كبير القبيلة، فأشار إليهما الناس من جرهم إلى عريشة هاجر، ذهبا الغلامان إلى هاجر فسلما عليها وقالا لها:

«من حفر هذا البئر...»

«إنها سقيا الله..» قالت لهما هاجر

نظر الغلامان إلى بعضهما البعض، إنهم يعرفون الله ولكنهم يعبدون معه آلهة أخرى، ولعل هذه المرأة مباركة.. ملئا سقاتهم واستأذنا هاجر في المكوث في هذه البقعة من الأرض، فأذنت لهم قائلة: «ولكن لا حق لكم في الماء.»

هاجر، الأميرة السابقة، قد أوتيت من كل فنون إدارة الدولة، فما كان منها إذ نزل بأرضها الوافدون من كل صوب وجهة إلا أن تضع نظاما للانتفاع بالماء دون أن يكون ملكًا لأحد منهم.. أعلمت الجميع أن الماء لها ولابنها إسماعيل، وأن لكل مخلوقات الله أن تشرب منه، ولكن دون أن تستولي عليه أو تنسب لنفسها مزية وحقا فيه دونا عن الآخرين. وبعد عدة أشهر، نمت الأشجار وأثمرت، ونبت النخيل من باطن الأرض وكثرت الثمرات واكتسى الوادي باللون الأخضر، شرب الإنس والطير والإبل والأنعام من ماء زمزم، وارتوى الجميع.

إلى سَدوم

امتطى إبراهيم راحلته عائدًا إلى حبرون، مخلفًا قطعة من روحه وراءه في تلك البقعة الجدباء من الأرض. كان الطريق وعرًا في بدايته، حتى خرج من الصحراء وسار بمحاذاة البحر وتنفس من نسماته وبات الليلة على شاطئه، ثم أصبح في الصباح فواصل طريقه. على مشارف حبرون، لاح النخيل وأشجار الزيتون وبدت الخيمات والعرائش المتراصة لقومه كفلك عظيم، في هذا القسم من الأرض استوطن الإيمان الخالص وتلخص في حفنة من المؤمنين أشداء على الكفار ورحماء ببعضهم البعض. استقبله لوط واليعازر على مشارف المدينة، وأخبراه أن السيدة سارة في انتظاره على مشارف نصاب الخيام، لكم افتقد سارة الجميلة ورفيقة العمر، ولكم عاتب نفسه كثيرًا أن أرغم على الزواج من امرأة غيرها وأشفق عليها من كل ما عانته من مشقة في احتمال هذا الأمر، لقد أمر الله بإبعاد هاجر لحكمة إلهية، وبقيت سارة إلى جانبه، ولربما تتغير الأقدار وتتبدل الأحوال. لاحت له سارة من بعيد كحورية من الجنة تجول بين أشجار الورد والياسمين، وعند وصوله استقبلته بنظرات يملؤها الحب والحنين، وسألته عن هاجر وإسماعيل وكيف كان من أمرهما فقال لها:

«فعلت ما أمرني الله به، ومضيت...»

لم يخبرها عما أحس به وما اعتلج في قلبه من حنين وألم فراق، ولكن سارة كانت تعلم وتشعر به، تعلم أن هذا هو الولد الذي انتظراه سويا وحين أتى صار عليه أن يتركه في مكان ناء دون أن ينظر وراءه. واسته سارة وشدت من أزره، ثم مُدت طاولات الطعام في هذا اليوم بصنوف الطعام المختلفة وأكل الناس، قبل أن يصعد إبراهيم إلى المذبح يرافقه لوط الذي قال له ليلتها: «أتذهب معي إلى خلوة التعبد، لعلنا نصيب شيئا من القرب من الله؟»

صعد معه لوط إلى قمة الجبل، وراحا يصليان ويبتهلان إلى الله، فأوحى الله إلى إبراهيم أن قد انفجرت عين ماء من أجل امرأتك وولدك، فلا تهتم ولا تحزن. بعد أن فرغا من الصلاة أسندا ظهريهما إلى صخرة كبيرة وراحا يتأملان في السماء، ودام الصمت لفترة طويلة، وصمت الجبل الذي يلفه الليل، ليس كأي صمت آخر، إنه صمت يُهمس فيه بالأسرار وتُسمع فيه أصوات الهائمين في ملكوت الله، لا يسمعهم ولا يراهم إلا كل تقي نقي. قطع إبراهيم السكون قائلا لابن أخيه: «أتريد أن تقول لي شيئا يا لوط؟»

«أحسبك قد علمت يا عمي، لقد أوحي إلى بالرسالة إلى قوم سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم وصوغر.»

«بوركت يا ولدي، قد أوتيت حكمًا وعلمًا، فلتذهب في أمان الله.»

كان للوط ثروة من الأغنام والمواشي منفصلة عن ثروة عَمّه، وبعد عدة أيام من نزولهما من الجبل، جهز لوط جهازه للارتحال، وفي الليلة قبل الرحيل اجتمع إبراهيم بابن أخيه فأوصاه بالتقوى والجهاد والمجاهدة، وأكبر ما أوصاه به الصبر، قال له:

«لقد رافقتني عمرًا طويلًا يا ابن أخي، والآن أنت تعلم من أمر النبوة ومشقاتها، فلا يصدنك الأذى عن الدعوة إلى الله.»

فى تلك الليلة، كان لوط واليعازر الدمشقي هما ضيفا إبراهيم، استأنس بهما حتى ارتفع الهلال في السماء، ثم أوى كُلٌ إلى خيمته، حتى أزاحت موجات النور ثوب الظلام حثيثةً. وقبل أن ينجلي الظلام تمامًا، كانت رواحل لوط في أتم استعداد للرحيل، وودعت سارة زوجة لوط، وكانت من النسوة اللواتي شددن أزرها كثيرًا في محنتها.. عانق الأولاد بعضهم البعض بدمعة رقيقة في العيون، وتلقى إبراهيم ابن أخيه بين ذراعيه، ضمه ضمة الأب لابنه المسافر، وشد على ساعده براحتيه مطمئنا إياه وداعيا له بالتوفيق والبركة والأمن والأمان. تلونت السماء بنور الصباح، وغاصت القافلة في عمق المدى البعيد، ووقف إبراهيم يراقب ذهاب لوط غارقا في أفكاره، حتى أحس بيد سارة تمسك بمعصمه، فالتفت إليها فرأى عينيها، فأحس بالراحة واطمأن لوجودها معه. التف عائدا إلى الخيمة وإلى جانبه شريكة دربه والمؤنسة لوحشته على السبيل.

انطلقت قافلة لوط على الطريق متوجهة إلى سدوم، لقد أوحى الله إليه بالدعوة في مدن خمس، وعزم أن يستقر في سدوم، إحدى تلك المدن، وكان الملك بارع ملك سدوم وقد سمع كثيرا عن إبراهيم، وحين سمع بقدوم قافلة لوط أمر باستقباله وتأمين بيت لأهله ومكان لأغنامه ومواشيه. لم يكن الملك مفتونا بتعاليم إبراهيم ولكن كان لديه من الفضول ليعرف ماذا يدعو إليه هؤلاء القوم، وأراد أن يقرّب إليه لوطًا ليعلم عن نيته وراء القدوم إلى سدوم.

maktabbah.blogspot.com

بعد أن استقر لوط في المدينة، بدأ في التجول في السوق، وانتقل من مدينة إلى أخرى بين المدن الخمس. كان حال الناس في أسوأ ما يمكن أن يكونوا عليه من الجهل والضلال، ولكنه قد رأى الكثير من ذلك في ارتحاله مع عَمّه، لكن التيه الذي عمه فيه هؤلاء كان تيها ذا طابع مختلف.. في البداية، لاذ بالصمت ليعرف ما هو بصدد مواجهته، كانت سدوم قرية مليئة بالخيرات، يسافر الناس إليها للنيل من خيراتها، وعلى الطريق ما بين المدن كان الرجال يقفون على قوارع الطريق فيقطعون السبيل على الذاهب والآتي ليعطيهم ما لديه من مال وزاد وراحلة، حتى إذا ما أعطاهم كل ما يملك أوسعوه ضربا وأعادوه من حيث أتى، أصبح الجميع في رهبة من المرور بهذه القرية. وذات يوم، تمثل الشيطان في صورة صبي جميل مر بهم، فأرادوا أن يفعلوا به ما يفعلونه مع كل من يمر على الطريق، لكنه كان أكثر

حنكة منهم فدعاهم إلى الفاحشة، وأراهم كيف يفعلونها مع رجل، ولما فعلوها به قام منتشيا وقال لهم:

«هكذا يمكنكم أن تفعلوا مع كل من يمر على هذا الطريق.»

تركهم الغلام الجميل الخبيث، ومضى بعد أن أثار شهوتهم لشيء لم يُفعل من قبل، وصارت شهوة ضارية لا يمكنهم الاستغناء عن فعلها، فكان الرجل إذ يعبر من هذا الطريق يمسكونه ويقيدونه ويتناوبون عليه، حتى ذاع صيت القرية بما يفعلون، لم يعد أحد يمر من عندها، فصاروا يأتون هذه الفاحشة مع بعضهم البعض علانية، ولم ينههم أحد، إذ أن الملك بارع نفسه قد ذاق من هذا الأمر، وصار له محظيون من الرجال في قصره.

رأى لوط ما يحدث، وأحس بالقهر والحزن والاشمئزاز، لكنه حمل نفسه على الذهاب إلى نواديهم، فرآهم وهم يضرطون ويتباهى بعضهم البعض بمن أصدر ريحا بصوت أعلى، ويتمازحون ويضحكون على هذا الأمر، بينما تدور كؤوس الخمر في مجالسهم، ثم تنتهي لياليهم بالرجال في الفراش ينالون من بعضهم البعض في أدبارهم.

انتشر الوباء إلى باقي المدن، وثار لوط وخرج عن صمته، وجاب بين المدن ناصحًا للناس وداعيا لهم إلى طريق الله وناهيا عن المنكر، وفي أحد الأيام وهو عائد من عمورة إلى سدوم، مر بحفنة من الرجال يقفون على الطريق منتظرين أن يمر أحد، وكان الطريق خاليا. ألقى لوط عليهم التحية والسلام فألقوا نظرة على ملابسه الصوفية وعمامته والعصا التي في يده والتجاعيد التي ألقاها الزمن وكثرة الأسفار والهموم على وجهه، فقال أحدهم لرفيقه:

«لا شأن لنا بهذا الرجل، إنه كهل لن يرضي شهوتنا.»

قال لهم لوط: «أتأتون الذكران من العالمين؟»

ضحك أحدهم ضحكة ماجنة وقال له:

«نحب أن نفعل ذلك كثيرا، فما شأنك أيها الرجل العجوز...من أنت لتعظنا؟»

قال لهم لوط: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٤٣ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ»

بعد تلك الليلة، وقف في الأسواق داعيا الناس إلى ترك المنكرات والفواحش، فسخر منه الجميع إلا قليلًا من المؤمنين. كان الظلم قد تفشى، رأى لوط السادة يضربون العبيد في الأسواق، ويتهافتون على بضائع الناس فيأخذونها عنوة دون دفع ثمنها، وذات يوم بينما هو في سوق سدوم يدعو الناس وقد التفوا حوله يسمعون ماذا يقول، مر الملك بارع وسمع خطبته في الناس، فتوقف الملك وقال هو ورفقاؤه وهم على ظهور أحصنتهم:

«لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يُلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ١٦٧ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ»

نظر الرجال من عِلية القوم بعضهم إلى بعض نظرة ذات معنى، إذ أن كلمات بارع كانت بمثابة الإذن لهم ليفعلوا بلوط ما يريدون...

لم يكن هذا هو الابتلاء الوحيد للوط، بل كان من أكبر ابتلاءاته زوجته واهلة، تلك الزوجة التي نمت وترعرعت في أحضان خيام المؤمنين، الآن قد حادت، حتى أن عقله يكاد يطير مما يراه بعينه من أفعالها، ولقد علم عن أمرها أول ما علم عند الشهور الأولى لاستقراره في سدوم، كان عائدا من خارج القرية وأبصر واهلة تهرول لتبلغ الرجال بأن هناك صبيًا جميلًا قد دخل إلى السوق إن أرادوا أن ينالوا منه، ولما غضب عليها غضبًا شديدًا ونهرها وأراد أن يعلم لماذا فعلت ذلك، قالت له واهلة: «وما شأننا نحن؟، هذه هي حياة انتقوها لأنفسهم، لم لا نوقرها ونحترم رغبتهم؟»

صفعها لوط صفعة قوية، فلعلها أصابها مس من الشيطان يمكن لهذه الصفعة أن تبطله، إلا أنها لم تنته ولم تتراجع.. أصبحت الأرض كلها بقعة ظلام، وفي وسطها بيت منير من المؤمنين، به نقطة قاتمة السواد اسمها واهلة.

وفى حبرون، ذات ليلة، استيقظ إبراهيم بعد رؤيا أتته، ودعا إليه اليعارز الدمشقي، قال له:

«أريدك أن تذهب إلى سدوم، فتطمئن على ابن أخي لوط.»

maktabbah.blogspot.com

فى الصباح الباكر، خرج اليعازر على ظهر دابته وغاص في الطريق، واستيقظ لوط للصلاة بعد أن نام مهموما في الليلة الفائتة، وخرجت واهلة للصيد وبيع الفرائس من الصبيان الملاح..

ولما بلغ اليعازر قرية سدوم، نزل عن حماره وربطه إلى جذع نخلة، وذهب ليقضي حاجة له قبل أن يتوجه إلى بيت لوط، فلما عاد لم يجد الحمار، فأخذ يبحث عنه دون جدوى، وسأل الناس وأصحاب الحوانيت التي ربط الحمار بجوارها فلم يفده أحد بشيء، بل أنكروا أنه ربط الحمار في هذه الناحية. ترجل اليعازر حتى وصل إلى بيت لوط، فاستقبله لوط بحفاوة وأدمعت عيناه حين وقعتا على اليعازر، آواه لوط وبات الليلة عنده، وحين أصبح الصباح سأله اليعازر عن الأحوال، فلم يتفوه لوط بشيء، آثر أن يأخذه إلى السوق والنوادي ليرى بعينيه. وبينما هما في السوق، إذ به يرى حماره الذي سرق منه بالأمس، فاندفع اليعازر وأمسك بتلابيب الرجل الذي أنكر أنه سرق الحمار وقال إن هذا حماره، ولم يكن بد من الاحتكام إلى القاضي. سار اليعازر والرجل ولوط وحفنة من الرجال متوجهين إلى سرادق

القاضي، الذي كان جالسا في خيلاء يبت بين الناس في مظالمهم، أشار لهما القاضي بالتقدم، فبدأ اليعازر قائلا:

«لقد سرق هذا الرجل حماري ليلة أمس...»

قاطعه الرجل قائلا «هذا حماري أنا....»

فقال القاضي موجها كلامه إلى اليعازر:

«وكيف تثبت أن هذا الحمار هو لك...؟»

توجه اليعازر إلى الحمار ورفع قدمه، فأرى القاضى بقعة سوداء من أثر حرق قديم في جسد الحمار، فاضطرب الرجل وغيّر أقواله ونظر للقاضي قائلا:

«لقد وجدت هذا الحمار في الطريق فأخذته.. آويته وأطعمته وإني لأطلب أجر ذلك.»

نظر القاضي إلى اليعازر مصدرًا حكمه النهائي: « فلتدفع للرجل مبلغ ثلاثة دنانير نظير إيوائه لحمارك.»

أصابت اليعازر دهشة شديدة من هذا الحكم، أخرج الدنانير وأعطاها إلى الرجل وأخذ حماره وانصرف هو ولوط مأخوذين، هؤلاء قوم لا يرتكبون الفواحش فقط، ولا يأتون المنكر في ناديهم وحسب، ولا يقطعون الطرق فقط، بل أيضا يظلمون الناس بأحكام ملتوية شديدة الغرابة. اصطحب لوط اليعازر إلى البرية خارج القرية، وآوى به إلى عريشة في مكان ناء عن الجميع، كان قد جهزها ليختلي فيها بنفسه بعيدًا عن روث الحياة المحيطة به، خاصة أنه كان في أحيان كثيرة لا يطيق واهلة، فيحتاج أن يخرج من البيت ويختلي بربه بعيد عن كل هذا الفساد. وضع كسرة من الخبز وبعضا من جبن الماعز أخرجه من مخلاته التي حملها على كتفه أمام اليعازر، جلس ينظر إلى المدى الواسع ويتأمل السماء الزرقاء، قال لاليعازر:

«سألتني في الصباح عن الأحوال، هل أتتك الإجابة؟»

قال اليعازر «والله بئس ما يفعلون، إن هؤلاء قوم مُهلكون.»

«أأخبرك بشيء؟ إن الإتيان يكون في العقل قبل إتيان الذبر»

حبس اليعازر أنفاسه لثقل تلك العبارة، وأراد أن يفهم أكثر من لوط، واصل لوط كلامه:

«كيف يمكن لأولئك أن يفعلوا ما يفعلون، إلا إذا تشوشت أذهانهم وزين لهم الشيطان أسباب أفعالهم؟ أترى، هم يفعلون ما يفعلون وقد دانت عقولهم لهذه الأفكار، فتركوا أجسادهم للشيطان، فعلمهم ما علمهم فأتبعوه صاغرين.»

«صدقتَ يا نبي الله، العقل هو المدخل لكل الآثام، فإن أراد الله لقوم أن يُنال من إيمانهم بدأ النيل من العقول.»

فى تلك الليلة، أنس لوط باليعازر وصليا سويا.. لقد خلت الدنيا من حوله ولم يعد المؤمنون إلا قلة قليلة لا تحصى على أصابع اليد الواحدة. في الصباح، انطلق اليعازر مودعًا لوط، الذي عاد إلى سدوم ليواصل كفاحه اليومي، ويتحمل الأذى ويتجاوز عن السخرية، ثم يعود إلى بيته ليجد امرأته واهلة التي لا يستطيع النظر في وجهها، ولكن هكذا أمر الله فلم يتلق أمرًا بعد بهجرها وإنهاء هذا الزواج بين مؤمن وفاسقة، لا تفعل الفاحشة ولكنها تدعمها وتعاون كل من يقترفها.

عاد اليعازر وقص على إبراهيم ما رأى وما حدث له وهو بين ظهراني قوم سدوم، فدعا إبراهيم في جوف الليل لابن أخيه، وابتهل لله أن يعينه على أمر هذا التكليف الصعب.

مرت أشهر عديدة منذ عودة اليعازر الدمشقي من سدوم، وذات يوم - بينما إبراهيم جالس أمام بيته ومعه اليعازر- لاح له ثلاثة رجال يسيرون نحوه، وكان لبيته أربعة أبواب ليستقبل ضيوفه من كل صوب وجهة؛ قال له اليعازر وهو ينظر نحو الرجال الوافدين

«ترى من هؤلاء يا أبا الضيفين؟ إنهم رجال حسان الهيئة تبرق وجوههم في نور الشمس.»

«سنرى يا اليعازر...»

اقترب الرجال الثلاثة فقالوا لإبراهيم سلاما، فرد إبراهيم التحية على الرجال الذين لم يبد غبار الطريق على ملابسهم البيضاء، ولم تتصبب وجوههم عرقًا من حر الصحراء، وقد أتوا بلا رواحل ولم يحملوا على ظهورهم أي أمتعة. قادهم الشيخ إلى العريشة الكبيرة التي كانت معدة لاستقبال الضيوف وأجلسهم وأتى لهم بسقاة الماء، ثم استأذنهم وذهب إلى سارة قائلا لها:

«لدينا ضيوف يا أميرتي، فاذبحي عجلًا سمينا نشويه على الأحجار ونقدمه لهم.»

قالت له سارة مبتسمة «والله إني لأشهد يا إبراهيم أنك ما رأيت ضيفا إلا أكرمته مما أنعم الله عليك به.»

ذهبت سارة إلى حظائر الأغنام لتنتقي عجلًا، واصطحبت معها جاريتها لتعاونها. كانت بلغت من العمر تسعة وثمانين عاما، وبلغ زوجها تسعة وتسعين عاما، لم ينضب جمالها ولكن ظل رحمها جدبًا لا تنبت فيه الحياة. عاد إبراهيم إلى الرجال الذين ظلوا صامتين معظم الوقت، ولكنه حدثهم عن ديانته الحنيفة وعن الله الواحد الأحد لا شريك له، فتجاذبوا

أطراف الحديث حتى أوتي بالطعام وأشرفت سارة على تنسيقه على المائدة المستطيلة الممتدة في منتصف العريشة.. انتظر إبراهيم أن يمد الضيوف أيديهم إلى الطعام، لكنهم لم يفعلوا، وقفت سارة إلى جانبه وقد لاحظت نظرات إبراهيم إلى الرجال وتوجسه منهم خيفة إذ لم تصل أيديهم إلى الطعام ولم يقتربوا منه، فهل أضمروا شرًا؟.. فكر كيف لم يرهم الغلمان المنتشرين على مقربة من الوادي، كيف لم يروا هؤلاء الأغراب ولم يبلغوه بقدومهم، وبعد فترة من الصمت قال لهم إبراهيم وقد تأهب في جلسته لأي قتال محتمل:

«إنا منكم وجلون، أجئتم في خير أم في شر أيها الرجال؟»

جاوبه أحدهم «لا تخف ولا توجل لقد أتينا لنبشرك بغلام عليم.»

تعجب إبراهيم من قولهم:

«أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ»

أخبره الرجال أنهم ملائكة الله، وأن امرأته سارة ستلد غلامًا اسمه إسحق ومن وراء إسحق يعقوب.. صعدت دماء الحياء إلى وجه سارة وصكت وجهها مبتسمة، قالت:

«يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ٧٢ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ».

أحست سارة في لحظة أنها عادت شابة، وعلى قدر ما تعجبت من هذه البشرى لاستحالة حدوثها بحسابات البشر، فإنها كانت تعلم أن الله على كل شيء قدير، شعرت وكأن حياة أخرى دبت في أوصالها وامتلأ قلبها بسعادة فاضت على وجهها فألقت عليه بأنوار عظيمة فأشرق، وعادت العجوز العقيم إلى الحياة تنتظر منها تحقق المعجزة الإلهية التي وعدها بها الله. ذهب عن إبراهيم الروع بعدما علم بأمر الرجال وهويتهم، ولما جاءته البشرى هدأت نفسه وسكن إلا أن عقله لم يسكن، لقد كان من الممكن أن يتلقى هذه البشرى من خلال رؤيا أو وحي كما حدث في تبشيره بميلاد ابنه إسماعيل، إلا أنه يبدو أنه هؤلاء الرجال قد أتوا لأمر آخر..

«قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ؟»

«قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ».

«قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا».

«قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ».

جادلهم إبراهيم كثيرا، قال لهم إن المؤمنين سيهلكون مع الظالمين، قال لهم إنه لربما هداهم الله أو هدى بعضهم، فلم لا نصبر على هذه الأقوام لعل سهام الهُدى تصيبهم، كان حليما أوّاها منيبا، رأف بحال البشرية جمعاء وتأوّه لما كانت عليه من تيه، وأناب إلى ربه في نهاية الأمر حين حسمت الملائكة الأمر قائلين:

«يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ»

لقد قُضي الأمر وجاء وعد الله، والله أعلم بمن في سدوم وغيرها، وأعلم بما في قلوبهم وأعلم بأقدارهم وما سيؤولون إليه من ضلال أو هدى، وما كان لإبراهيم إلا الإذعان والتسليم لأمر الله لما جاءه.

انحدرت شمس المغيب وراء الجبال، وكسا ثوب الليل السماء، ليل بلا قمر انطلقت فيه ملائكة الله على هيئة رجال حسان الطلعة إلى سدوم لإنفاذ أمر الله.

بزغت شمس اليوم الجديد على سدوم، وراحت ريثا وزغرتا ابنتا لوط لتسقيا من نهر سدوم. نزلت الملائكة عند النهر، ونادى أحدهم على ريثا قائلا لها: «يا جارية، هل من منزل؟»

maktabbah.blogspot.com

نظرت إليهم ريثا وقد أشفقت على حالهم، قالت لهم «نعم، ولكن مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم.»

انطلقت هي وزغرتا إلى بيت أبيهما، قالت له ريثا إن هناك فتيان على باب المدينة لم تر وجوها قط أحسن من وجوههم، قالت له متوجسة خيفة: «يا أبت إني أخشى أن ينال منهم قومك.»

وضع لوط عباءته على ظهره وتوكأ على عصاه، وهرع إلى الشبان الثلاثة، فلما لقيهم قالوا له: «إنا نريد أن تضيفنا الليلة.»

قَبل لوط طلبهم على مضض، وسار بهم يحاول أن يثنيهم عن عزمهم الدخول إلى المدينة بإشارات خفية، فلما لم يستطع أن يثنيهم عما أرادوا سيء بهم وضاق بهم ذرعا، وأخيرا أفصح لهم دون أن يخفي شيئا، قال: «والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلدة أخبث من أهل هذه القرية...»

أعاد لوط عليهم القول أربع مرات، فتم الأمر وجاءت إشارة الهلاك. كان الملائكة قد أمروا ألا يهلكوا قوم لوط إلا حين يشهد عليهم نبيهم أربع مرات، وقد فعل.. أصر الشبان على النزول بالبلدة عند لوط، ووجد أنه مضطر لاستضافتهم وربما الدفاع عنهم، سار أمامهم مرددا في نفسه بضيق: «هذا يوم عصيب...»

وصلوا أخيرًا إلى بيت لوط، واستقر بهم عنده وحذر الجميع من أهل البيت أن يعلم أحد بأمر وجودهم.. رفعت واهلة ستار حجرتها ونظرت، فإذا بثلاثة فتيان حسان وجوههم كتمام البدر، بنية أجسادهم مشدودة وفتية، فانسلت من البيت دون أن يدري بخروجها أحد، وذهبت مهرولة إلى القوم في النادي، فلما رأوها علموا أنها جلبت خبرًا سارًا، اتجهت إلى كبيرهم قائلة له:

«إن في بيت لوط رجالًا ما رأيت مثل وجوههم قط...»

ترك الرجل الكأس الممتلئ بالخمر ونهض سريعا من مجلسه، وذهب يهمس لأحدهم:

«اجمع الرجال حالًا، لدينا صيد ثمين الليلة...»

اجتمع رجال كثر على باب النادي، وساروا تحت جنح الليل نحو بيت لوط، حاملين المشاعل لتضيء لهم الطريق، حتى إذا بلغوا وجهتهم محمومين مسروعين، ذهب أحدهم وطرق الباب طرقًا شديدًا. سمع لوط صوت الطرق على الباب، فعلم أن واهلة قد فعلت ما تفعل على الدوام، لقد خانته وخانت دينها وانضمت للظالمين، وهذا يبرر أمر غيابها حتى بعد غروب الشمس.. سار نحو الباب وقد ارتجفت أوصاله، وفتح الباب الذي وقف أمامه أحد الرجال أرسله القوم ليتحدث إليه، نظر على مرمى البصر فرأى الكثير من الرجال مجتمعين خارج البيت، قال له الرجل:

«أعطنا الشبان الحسان الذين استضفتهم.»

«قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ»

قالوا له «أولم ننهك عن العالمين ونمنعك من استضافة الوافدين؟»

قال لهم لوط «هؤلاء بناتي، نساء أمتكم إن أردتم النكاح... فاتقوا الله، أليس منكم رجل منصف رشيد؟»

علا هتاف الرجال منادين على الشبان الثلاثة أن يخرجوا، فدخل لوط سريعا وأغلق باب داره، متمنيا على ربه،

«قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ»

سمع لوط أصوات الرجال وهم يحاولون اقتحام البيت، فوقف في ساحة الدار لا يدري ماذا يفعل، رآهم من النافذة وهم يتسوّرون الجدران، وفجأة انكسر باب البيت ودخل الرجال.. ولكن لعجب لوط، رآهم بدلًا من أن يتجهوا نحْوه وضيفه، اتجهوا إلى خارج البيت

وهم يتخبطون ببعضهم البعض.. سمع الله دعاءه، وآواه إلى ركن شديد، وحان للملائكة أن يخبروا لوطا عن أمرهم، قال له أحدهم

«لا تتعجب يا نبي الله، لقد ضرب السيد جبريل بجناحه على أعينهم فانطمست ولم يعودوا يرون شيئا... لذلك تراهم يعودون أدبارهم ويتحسسون الجدران.»

زاد تعجب لوط، وأدرك أن هؤلاء ليسوا حسب فتيان، إنهم مرسلون من رب العالمين، لقد نادوه بنبي الله، ومن يعلم جبريل إلا قلة قليلة من الناس في وسط كل هذا التيه؟.. أدرك لوط ماهية الأمر، فذهب ورفع الباب المكسور وأعاد تثبيته في مكانه وأغلقه، واستدار للملائكة متفحصا إياهم، بادره أحدهم قائلًا:

«إنا رسل ربك يا لوط، فلا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين.»

قال الآخر «إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ»

قالوا له «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ»

شرد لوط قليلًا، لم يكن من أهله إلا بناته وثلاثة رجال مؤمنين آخرين، لقد كان هو بيت المسلمين الوحيد في هذه القرية. أحس بالراحة أن أرسل الله رسله لنجدة قومه، ولكنه علم أن العذاب سيصيب الباقين، فسأل الملائكة متى يأتيهم العذاب، فقالوا:

«إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ»

دار هذا الحوار في الداخل، بينما وقف الرجال في الخارج يتحسسون الجدران ويتوعدون لوطًا إلى الصباح، ظانين أن الظلام الذي طمس على أعينهم كان من غمامة مارة حجبت عنهم ضوء النجوم، أو ريحًا أطفأت مشاعلهم.

أمر لوط ابنيته بجمع أشياء قليلة لرحلتهم التي كانت على وشك أن تبدأ، فبدأتا في جمع الأغراض، وجلست واهلة في حجرتها لا تستطيع أن تخرج إلى الخارج، ولم يكن هناك بد من الارتحال مع زوجها.

في غمامة الليل، فتح لوط باب الدار، فلم يره القوم من أثر الطمس على أعينهم، سار بأهله في وسطهم تحفهم الملائكة، حتى إذا وصلوا إلى أبواب المدينة سمع صراخ الرجال، وذكّرته الملائكة بأنه قد أمِر ألا يلتفت لا هو ولا المؤمنين معه، فانصاع للأمر وأحس أن الأرض تهتز تحت قدميه، حتى إذا بدأوا الخروج من باب المدينة التفتت واهلة لما رأت نذر

العذاب، ونظرت إلى الوراء صارخة تحذر قومها.

«يا قوماه يا قوماه...»

لم تكمل قولها حتى أصابها حجر في رأسها، فأرداها صريعة..

انحدر لوط وأهله بمحاذاة نهر سدوم، حتى بلغوا أحد المغارات فآوى إليها حتى يأتي الصباح ويبدأ في رحلته عائدا إلى حبرون.

أتى الصباح، فأمطرت السماء بحجارة من الطين المتحجر على الرجال الذين كانوا ما يزالون يقفون بباب دار لوط يمنون أنفسهم بالفرح في الصبح والنيل من الشبان الثلاثة ومن لوط.. نزلت الحجارة على رؤوسهم كوابل من الأمطار، أحجار في حجم رأس الإبل، كل حجر مسوم يعلم إلى من يذهب ومن يقتل.. أدخل جبريل عليه السلام جناحه تحت المدن الخمس، فرفعها ثم قلبها، وهكذا انتهى أمر قوم لوط، وانطلق لوط في الصباح تاركا مغارته عائدا بأهل بيته المسلمين إلى بيت عمّه، عائدا إلى حبرون...

maktabbah.blogspot.com

وفي حبرون، خرج إبراهيم من خيمته في الصباح، فرأى دخانا هائلا ينبعث من السماء، فأدرك أن العذاب قد وقع بقوم لوط، وأوجس في نفسه خيفة على ابن اخيه، إلا أنه تذكر وعد الله الذي أتت به الملائكة. وقبل أن يستدير عائدا إلى خيمته، أبصر في الأفق لوطا قادما وبناته والقلة من المؤمنين الذين نجاهم الله.. ضم إبراهيم ابن أخيه ضمة حانية قوية، أزالت كل غبار السنوات الماضية، وأعادته إلى نقاء أيام حياته الأولى.

ياقوتة الجنة

لما هبط آدم من السماء، كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء، يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم ويأنس إليهم، فهابت الملائكة حتى شكت إلى الله في دعائها وصلاتها، فخفضه الله تعالى إلى الأرض. فلما فقد ما كان يسمع، استوحش حتى شكا ذلك إلى الله في دعائه وصلاته، فوجهه إلى مكة.. فكان موضع قدمه قرية، وخطوه أرض قفراء، حتى انتهى إلى مكة وأنزل الله ياقوتة حمراء من ياقوت الجنة فكانت موضع البيت الآن، فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان، فرفعت تلك الياقوتة حتى بعث الله إبراهيم عليه السلام فبناه....

***

بلغ إبراهيم المائة عام، ورزق بميلاد إسحق من سارة.. في فجر ذلك اليوم، أحست سارة بآلام المخاض، أيقظت زوجها وأتت القابلات والنساء على عجالة ليستقبلن مولود السيدة التي جعلها الله لكل إنسان على وشك القنوط من تحقق الأمنيات إشارة وبشارة أنه - في تقدير المولى - لا يوجد مستحيل، فهو يحيل ما استعصى وفُقد فيه الأمل إلى ممكن، فتتعطل الأسباب فتلد امرأة عجوز عقيم وقد بلغت من العمر تسعين عاما. استقبلت سارة إسحق بين ذراعيها فضحكت، فقد كان لولدها وجه ضاحك، فقالت لإبراهيم:

«أترى كيف يضحك وجهه، لنسميه إسحق، الوجه الضاحك...»

maktabbah.blogspot.com

وهب الله إسحق لإبراهيم على الكبر، إنه سميع الدعاء، أتاه ولدًا آخر سيكون من نسله أمة كبيرة من الملوك والأنبياء. وبعد ثمانية أيام من ميلاده، حمله أبوه خارجا من الخيمة وذهب به ليختتن، كان ثاني ذكر يختتن من ذكور المؤمنين، وكان الأول إبراهيم الذي تلقى الوحي بأمر الختان في العام المائة من عمره. بلغ إسحق عامين وتم فطامه، وفى يوم الفطام أقام أبوه وليمة عظيمة أطعم منها كل القرى المحيطة والقوافل المارة، دامت لسبعة أيام كاملة. فكر إبراهيم في نفسه أن عليه أيضا أن يختتن ابنه إسماعيل، لقد حان الوقت ليذهب إلى مكة ويتفقد ولده وإمرأته..

ابتلى الله إبراهيم بكلمات واختبره في إتمامهن، فكان من أمر محاولة إحراقه وفراقه عن ابنه إسماعيل والهجرة من وطنه، ولما أتم اختباره أوحى له الله أنه جاعله للناس إماما وقدوة يُقتدى بها في التوحيد، سأل الوحي بعد أن تلقى نبأ الإمامة: «ومن ذريتي؟»

قال له الوحي «لا يلحق عهد الإمامة الظالمين، لا تصلح الإمامة إلا للبررة الأتقياء، لأنها أمانة من الله وعهد، والظالم لا يصلح لها.»

هكذا فقد أراد الله تعالى أن يجعل إبراهيم إمامًا يقتدى به، وداعيا يدعو إليه.. ابتلاه فصبر ورضي، فاصطفاه الله ولحضرته اجتباه، فصار إمامًا يقتدى به وداعيا يهتدى به، وكل من اتصف بشيء من ظلم العباد لا ينال عهد الإمامة في طريق الإرشاد.

أوحي إليه بعد تلقي البشرى بالذهاب إلى مكة، لم يكن يدري بعد ما التكليف الذي سيكلف به، ولكنها بشارة قد أتت في زمانها ومكانها الصحيحين، فقد تاق قلبه لرؤية ابنه إسماعيل..

بعد عدة أيام، أعد الرجال المرافقون لإبراهيم العدة للرحيل، حمل إسحق بين ذراعيه وتأمل في وجهه الجميل مودعًا إياه، طبع قبلة على رأس سارة وتوجه إلى خارج الخيمة، حيث تجهزت الرواحل وانتظر بضعة من العبيد خروجه من الخيمة لتبدأ الرحلة. امتطى إبراهيم دابته وكذلك فعل الرجال، وانطلقت القافلة الصغيرة نحو برية فاران، تذكر إبراهيم كل علامة تركها على الطريق وتمثلت له صورة إسماعيل وأمه تحمله بين ذراعيها وهو يفارقهما ولا يعلم متى يعود إليهما، لاح البحر من بعيد وراحت الشمس تغرق فيه رويدا رويدا، ارتاحت قسمات وجهه وتنهد، التفت للعبيد من ورائه قائلًا:

«لنخيم الليلة على الساحل، ونواصل الرحيل مرة أخرى عند الفجر.»

بدأ العبيد في نصب الخيام وتجهيز الطعام، تناثرت النجوم في السماء وانعكس ضوء النار التي أشعلها العبيد على الحطب على وجه إبراهيم، جلس يفكر ماذا عساه أن يكون قد فعل إسماعيل وكيف تربّى؟ هل حافظت هاجر على دينها وربت الولد على هذا الدين؟ «على أي حال لم يتبق الكثير» تمتم لنفسه «غدا إن شاء الله قبل غروب الشمس نكون قد بلغنا برية فاران.»

عند الفجر، انطلقت القافلة الصغيرة مرة أخرى حتى بلغت برية فاران، رأى إبراهيم نخيلًا وزرعًا على مرمى البصر، لابد أنهم قد ضلوا الطريق، اقترب براحلته حتى لقى رجلًا فسأله:

«السلام عليكم، كيف الطريق إلى برية فاران؟»

أشار له الرجل حيث النخيل الباسقة والأشجار التي حفت الربوة، فتعجب وواصل المسير حتى بلغ مشارف البرية فتزايدت أعداد الخلق، الذاهب منهم والآتي وجلس جماعة من الرجال متحلقين يتحدثون إلى بعضهم البعض. نزل من على راحلته واقترب منهم ملقيًا عليهم السلام، ثم سألهم:

«أين أجد بيت السيدة هاجر؟»

قال رجل منهم «أتعنى مالكة البئر؟»

رد عليه آخر قائلًا: «وهل يوجد هاجر غيرها في البرية، سيدتنا وأم البرية.»

أشار له الرجال إلى عريشة في منتصف البرية، ألحق بها بيت صغير من الطين، وحفتها النخيل من الجانبين، فسار وقد زاد تعجبه من هذا الأمر، وحين بلغ العريشة نزل من على راحلته وتوجه إليها، فرأى هاجر جالسة في منتصف العريشة تغزل شيئا من صوف الخراف، لم تنتبه له حتى ألقى السلام عليها قائلًا:

«السلام عليكِ يا أم إسماعيل...»

رفعت هاجر رأسها، فرأت زوجها للمرة الأولى بعد أعوام طويلة من الفراق.. اغرورقت عيناها بدموع الفرح، وألقت نفسها بين ذراعي إبراهيم، لقد مرت سنوات طوال ولم يضيعهما الله، ولكنها كانت دائما تفكر في أن إسماعيل لابد أن يلتقي بأبيه. جلس إبراهيم إلى جانب هاجر، وأظلتهما سعوف النخيل التي وضعها إسماعيل جنبا إلى جنب صانعًا سقفًا يبدو جميلًا للناظر من بعيد، تأمل في وجهها بحنان وسألها: «أين ولدي؟»

«الآن يأتي، لقد ذهب مع الأولاد ليعلمهم رمي السهام.»

maktabbah.blogspot.com

أخبرته هاجر عما صار بعد رحيله، وكيف تفجّر البئر، وكيف أصبحت مالكته، وكيف أنها سمحت لقبيلتي جرهم والعماليق بالسكنى بجوار البئر والانتفاع بمائه، ولأنها فعلت ذلك فقد امتنت الأقوام لصنيعها وصاروا حماة لها ولابنها.. أخبرته أنهم جلبُوا الأغنام والمواشي، وجاءوا إلى البرية وتكفّلوا بمعيشتها، وكانوا يسارعون في خدمتها، خاصة بعد أن علموا أن زوجها هو إبراهيم النبي..

«وماذا عن إسماعيل، كيف شب؟»

«لقد أصبح ابنك إسماعيل شابًا يافعًا جلدًا، تعلم العربية من الأقوام ولكنه طورها إلى السهل، ابنك أول من فتق لسانه بالعربية البينة يا إبراهيم.»

نزل الارتياح على قلب إبراهيم، على أثر كلمات هاجر، واصلت قائلة له:

«كان أول من ركب الخيل وروضها وركبها، إنه أيضا بارع في الرمي بالسهام والقوس.»

«وماذا عن إيمانه يا أم إسماعيل؟»

سألها وهو ينتظر أن تكون كل هذه المهارات قد كُللت بنعمة الإيمان بالله، فلا فائدة من أن يبرع الإنسان في أشياء كثيرة ثم يكون حائدًا عن طريق الله، وكان قد أوجس في نفسه خيفة أن تكون هاجر قد عادت عن ملته ولم يتربّ إسماعيل على التوحيد. أوشكت هاجر أن تجيبه، حين ظهر إسماعيل على حصانه قادما نحو العَريشة، قالت له هاجر مبتسمة وهي

تنظر بحب نحو ابنها:

«الآن يجيبك ابنك...»

أبصر إسماعيل الرواحل أمام البيت وظن أن هناك ضيوفا، نزل من على ظهر حصانه وتوجه نحو العريشة، فرأى شيخا كبيرا يجلس مع أمه، أحس بشيء في قلبه، ولم يدر بنفسه إلا وهو يقول:

«أبي...»

نهض إبراهيم من مكانه وفتح ذراعيه لابنه إسماعيل، الذي ألقى بنفسه في حضن أبيه وراحا في عناق طويل، وامتلأت المقل بأدمع الفرح، جلس إسماعيل إلى جانب أبيه الذي قال له:

«كيف عرفت أني أبوك، ربما أكون شيخا استضافته أمك؟»

قال له إسماعيل «يا أبت قد سمعت همسا في أذني يخبرني أن هذا هو أبوك.»

قامت هاجر مخبرة إياهما أنها ستعد وليمة كبيرة، وستدعو كبراء جرهم والعماليق ليلتقوا بأبي إسماعيل، دخلت إلى البيت وبقي الولد مع أبيه، سأله إبراهيم:

«علمت أنك أصبحت بارعًا في الكثير من الأشياء يا بني، فماذا عن صُلتك بربك؟»

قال له إسماعيل: «لقد علمتني أمي كل ما علمتها إياه، أخبرتني يا والدي عن كل ما نزل في الصحف ورددته علي تكرارا ومرارا، علمتني كيف أصلي وأناجي ربي...»

انفرجت أسارير إبراهيم وأحس بالارتياح، وبينما انشغلت هاجر مع النساء بتجهيز مائد الطعام، تلا إسماعيل على أبيه بعضًا مما جاء في الصحف، شرد إبراهيم بعيدًا وهو يستمع لابنه، لقد تذكر ما قالته هاجر في ذلك اليوم الذي تركهما في الوادي القفر، قالت إن الله لن يضيعنا، لقد علمت هاجر بعد أن استقرت في برية فاران أن الضياع هو ضياع العقيدة، وأن الله هو الذي يحفظ الإنسان من هذا الضياع، وأيقنت أنه لن يضيعها وولدها...

في تلك الليلة، مُد السماط في منتصف الوادي، وأتى الرجال لإلقاء السلام على رسول الله والتعرف عليه، شكرهم إبراهيم على رعايتهم لامرأته وولده، فأخبروه أن هاجر وإسماعيل مباركين، لقد حلت البركة بقدومهما إلى الوادي، أخبروه أن هاجر امرأة عظيمة إذ سمحت لهم بالعيش حول الماء، وأنهم لم يروا قط فتى شجاعا مثل إسماعيل...

انقضت الليلة، واختلى بزوجته فاقترب منها ونظر إلى وجهها الأسمر الجميل في حب،

قال لها:

«والله إنك لنعم المرأة الزوجة أنتِ، والأم يا هاجر.»

تصاعدت دماء الحياء إلى وجه هاجر، قالت لإبراهيم:

«لقد تربيت على يد شيخ جليل أرسله الله لهداية البشرية، وقد كانت نفسي في خواء من قبل أن ألقاك يا إبراهيم، فعمّرتها بالإيمان الخالص لله»

فاتح إبراهيم هاجر في أمر ختان إسماعيل، وأخبرها أنه سيقوم بهذا الأمر في الصباح بعد الصلاة، لم تناقشه هاجر فقد كانت تعلم أن أمره ليس من نفسه وأن زوجها رسول لا ينطق عن الهوى. حين أشرقت الشمس ورأت ابنها، أخبرته عن أمر أبيه، فانصاع الولد ذو الثلاثة عشر عامًا، واتجه مع أبيه إلى حكيم الوادي الذي أراه إبراهيم كيف يكون ختان الولد...

أتم ختان إسماعيل، وانتظر في مكة لعدة أشهر أخرى لا يدري ماذا يفعل بعد، أيعود إلى حبرون أم يمكث، وكان الأمر الإلهي أتى به الوحي إلى إبراهيم، أن ابن البيت الحرام أنت وابنك إسماعيل بمكة...

قال إبراهيم لفلك الوحي

«وكيف أعرف مكان البيت؟»

«سيعلمك الله مكانه، فاخرج إلى البرية في الصباح وسر وولدك، حتى تهتدي إليه.»

بلّغ إبراهيم ابنه إسماعيل وزوجته هاجر بأمر الله، كان إسماعيل غلامًا صغيرًا ولكنه كان قويًا، شر لهذا التكليف خاصة أنه سيعاون أباه. في تلك الليلة قال له أبوه بعين دامعة:

«لقد انتظرت سنوات طوال يابني من أجل بناء بيت الله، وها قد حان الوقت ومنّ علينا الله برفع القواعد من بيته..»

أخبر الوحي إبراهيم بما كان من أمر البيت، وكيف أنه كان ياقوتة حمراء من الجنة، فبناه آدم، ثم رفع إلى السماء الرابعة في أيام طوفان نوح، ثم بعث الله جبريل عليه السلام فخبأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس صيانة من الغرق، قال له الملك الكريم:

«حين يبوئ الله لك مكان البيت، فاعلم أن لهذا البيت يوجد بيت محاذيا له في السماء السابعة اسمه البيت المعمور.. سيكون هذا مقامك يا رسول الله حين تقبض روحك إلى السماء.»

«وما البيت المعمور؟» سأله إبراهيم

«البيت المعمور في السماء يا رسول الله، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة.»

أخبر الوحي إبراهيم أن الله قد أهبط آدم عليه السلام إلى موضع الكعبة، وأنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلألأ كأنه لؤلؤة بيضاء، فضمه آدم ليستأنس به، فأتته الملائكة فسألهم:

«ماذا كنتم تقولون حول البيت، قالوا كنا نقول سبحان الله والحمدلله والله أكبر، فراح آدم يردد هذه الكلمات عند طوافه بالبيت وتوجه إلى ربه بالدعاء قائلًا:

«يارب اجعل لهذا البيت عُمّارًا من ذريتي يعمرونه.»

وأوحى الله إليه أنه سيعمر بنبي من ذريته اسمه إبراهيم، اتخذه الله خليلا، وأقضى على يديه عمارته وأناط به سقايته، أورثه حله وحرمه ومواقفه وأعلمه شعائره ومناسكه.»

بكى إبراهيم في ليلتها كثيرًا، بعد أن بلغ ابنه بالتكليف الإلهي، وسمعت هاجر وإسماعيل صوت نحيبه، فلم يسأله أحد منهما عن سبب بكائه، لقد كان الأمر عظيمًا إلى حد البكاء الذي لا يمكن صده عن الخروج من مقلة العين والقلب، لقد نادى أبوه آدم عندما هبط إلى الأرض ورأى سعتها وقال لله:

«يارب أما لهذه الأرض عامر يسبح بحمدك ويقدسك غيري؟»

فقيل له «إني سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدي ويقدسني، وسأجعل فيها بيوتا ترفع ذكري ويسبح فيها خلقي ويذكر فيها اسمي، وسأجعل من تلك البيوت بيتًا أخصه بكرامتي وأؤثره باسمي وأسميه بيتي، أنطقه بعظمتي وعليه وضعت جلالي، ثم أجعل ذلك هذا البيت حرمًا آمنًا يحرم بحرمته من حوله. أحرم بحرمته ما فوقه، وما تحته، وما حوله، فمن حرمه بحرمتي فقد عظم حرمتي، ومن أحله فقد أباح حرمتي، من أمن أهله فقد استوجب بذلك أماني، ومن أخافهم فقد أخفرني في ذمتي، أجعله أول بيت وضع للناس. يأتونه شعثا غبرًا يضجون بالتلبية ويعجون بالتكبير عجيجا.»

لقد أمده الله بمهمة بناء بيت يقصده المؤمنون، القاصي منهم والداني من كل جهات الأرض، الآن تنهدم معابد الشرك بالله وينبعث في الأرض نور لا مثيل له، فتنحسر الظلمات وتشهد كل ذرة في حجر أو خشب أو نجمة قد صنعوها إلها، تشهد أن لا إله إلا الله إلى يوم يبعثون.

انتظر الوحي لعدة أيام أخرى حتى يعلم المكان الذي سيرفع فيه بيت الله، خرج كل يوم في الصباح الباكر هو وإسماعيل يبحث عن مكان البيت وينتظر الإشارة، فلم يجد شيئا، كان

الصبر زاده في هذا الارتحال الطويل، لقد أخبره الوحي أن الله سيعلمه بمكان البيت فانتظر وصبر، وذات صباح بعد أن فرغ من صلاته وجلس مع إسماعيل وهاجر سمع الوحي في أذنيه يخبره أن يرفع عينه إلى السماء، قال له:

«ستتبع هذه الغيمة وتسير حيث تسير، وحين تستقر الغيمة في السماء تعلم أن هذا هو المكان الذي ستبني فيه البيت».

هب إبراهيم من مكانه، وتعجبت هاجر لنهضته المفاجأة، دخل إلى البيت وأمر ابنه أن يأتي من ورائه فأخذا الفؤوس والمعاول وخرجا، امتطى إبراهيم دابته وكذلك إسماعيل، نظر إلى السماء فرأى الغيمة فبدأ في المسير، فسارت الغيمة فظل يتبعها حتى استقرت في بقعة ليست بعيدة عن عريشة هاجر وبئر زمزم، كانت الأرض مطمورة ولم ير القواعد التي سيبني عليها، وقف يفكر قليلًا، ماذا عساه أن يفعل؟ فإذا بريح قوية تهب فتكنس الأرض في مكان وقوفه وابنه، مال إبراهيم وإسماعيل ليتقيا شدة الريح التي مكثت لعشرات من الثواني ثم هدأت، رفعا رأسيهما فأبصر إبراهيم أحجارًا في باطن الأرض على مسافة فرسخين من سطح الأرض، فعلم أن هذه هي قواعد البيت. دب النشاط في أوصاله، وراح يبني الجدران وابنه إسماعيل يناوله الحجارة، وراح يردد الأدعية التي أوحى الله بها له وإسماعيل يردد وراءه:

«رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

انتصف النهار وبدأ البناء في الارتفاع، حتى إذا وصل إلى مكان الركن قال إبراهيم لابنه: «يا بني، اطلب لي حجرًا حسنًا أضعه هنا.»

ذهب إسماعيل، وانتظره إبراهيم لبرهة من الوقت فلم يأت، فوجد جبريل آتيا تجاهه يحمل الحجر الأسود..

قال له جبريل: «لقد هبط أبوك آدم بهذا الحجر من الجنة، فكان ياقوتة بيضاء، فاسودّ من خطايا الناس...»

تلقى إبراهيم الحجر من جبريل وقد دمعت عيناه خشوعًا لله وحزنًا على خطايا بني آدم.. بدأ في تثبيت الحجر داخل البناء، حتى أتى إسماعيل فوجد أباه عند الحجر الأسود، فقال له:

«يا أبت من أتاك بهذا الحجر؟»

نظر له إبراهيم وقال مداعبا إياه «جاء به من هو أنشط منك.»

ارتفع البناء، فراح إسماعيل يضع الأحجار تحت قدم أبيه حتى يستطيع الارتفاع أكثر بجدران البناء، وبعد أن فرغ من البناء بدأ إسماعيل في إزالة الأحجار التي وضعها تحت قدم أبيه، فنظر إلى أحد الأحجار قائلا:

«يا أبت انظر، لقد تركت قدمك أثرا على هذا الحجر!»

تناول الحجر من ابنه، ونظر إلى جدران الكعبة وقد اكتملت، إلا أنه وجد ثغرة في أحد الجدران، فثبت بها الحجر الذي تركت عليه آثار قدمه...

رفع إبراهيم قواعد البيت، وجعله ذا باب واحد، إشارة إلى ترقي القلب إلى مقام التوحيد، ووضع الحجر الأسود الذي يشير إلى الروح التي هي من أمر الله.. اكتمل البناء ووقف ينظر إلى بيت الله في الأرض مشدوهًا لا ينطق بكلمة، وقف إلى جانبه ابنه إسماعيل، سمع إبراهيم صوت أنفاسه اللاهثة، نظر إلى ابنه في حنان أبوي، لقد علم الآن حكمة الله في تأخير بناء البيت، لقد سأل الله لسنوات طوال أن يكون هناك للمؤمنين بيت يقصدونه وانتظر الإجابة فلم تأت، ولكنها أتت حين كبر إسماعيل، لقد أراد الله أن يكون له شرف المساعدة في بناء بيت الله الحرام.. تحقق الحلم الذي طالما راوده كلما رأى معابد مردوخ وسين وبعل ومعابد قدماء المصريين...لقد تحقق الحلم أخيرًا وبنى لله بيتا ظاهره الجلال وباطنه الجمال.

عاد إبراهيم إلى بيته ومكث فيه، وبدأ قلبه يتوق لبيت الله الحرام، فراح يطوف به كل يوم ويتعبد عنده، حتى يأتيه الإذن بالرحيل.. ولكن كانت تنتظره مهمة أخيرة وأمر جلل واختبار عظيم.

يا أبت افعل ما تؤمر

بنى إبراهيم البيت وطاف حوله لشهور عدة، وانتظر أمر الرحيل، فقد تاقت نفسه إلى امرأته سارة وابنه إسحق، واشتاقت إلى السياحة في أرض الله، التي تجعل قلبه في يقظة دائمة وتهيم فيها الروح مسبحة لله.. تأخر الإذن بالرحيل، ولا شيء في ميقات الله يأتي باكرًا أو متأخرًا، لكل أجل كتاب، وفي الكتاب المكنون حددت المواقيت منذ أزمان سالفة بعيدة. قضى الوقت مع ابنه إسماعيل، الذي سعى مع أبيه في أشغاله وقضاء حوائجه وانضم إليه في عباداته، أنِست هاجر بوجوده إلى جانبها ورفقته لابنيهما، فملأت البيت دفئًا ووِدًا ورحمة بقلبها الحنون. وفي ليلة صيف حارة، بعد أن فرغ الجميع من طعام العشاء وبدأت هاجر في إزاحة الأطباق عن الطاولة، جلس إبراهيم في العريشة وانتظر الضيفين - سُنَّة لم يكن ليتركها في أي أرض يرتحل إليها، حتى إذا أتاه رجلان قادمان من البادية المحيطة بالوادي، ضيَّفهما وآواهما في المضيفة الملحقة بالبيت، وأخلد بعد ذلك إلى النوم.

تصبب إبراهيم عرقًا بينما غط في نوم عميق، فقد رأى فيما يرى النائم قائلًا يقول له: «إن الله تعالى يأمرك بذبح ابنك.».. هب من نومه مفزوعًا، فاستيقظت هاجر فأدركته، وأحضرت له إبريق الماء، سألته:

«ماذا بك يا رسول الله...»

«لا شيء يا أم إسماعيل، رأيت فقط في نومي شيئًا أفزعني»

مسح العرق الذي تصبب من وجهه وعاد إلى النوم مرة أخرى، لم تسأله هاجر عن شيء، فقد اعتادت ألا تسأل حتى يخبرها هو. في الصباح، انطلق إلى بيت الله الحرام، طاف سبع مرات وصلى وسجد لله، عسى أن يهديه ربه إلى سواء السبيل. اضطربت نفسه بالشكوك، أكانت تلك رؤية شيطانية أم وحيًا؟.. فكر في هذا الأمر كثيرًا ولم يصل إلى إجابة، ولم يأته الوحي ليوضِّح له الأمر.

رأى ابنه إسماعيل قادمًا نحوه، وكان لا يترك مرافقه أبيه أبدًا، وتعجب اليوم إذ لم يصطحبه أبوه معه، اقترب من أبيه وجلس إلى جانبه وسأله:

«أخبرني يا أبي كيف تكون وساوس الشيطان؟ وكيف أعرف الفرق بينها وبين ما يلهم به الله؟»

«سيخبرك قلبك يا بني.»

قال له ذلك وفي جنبات عقله يتخبط نفس السؤال، ولم يخبره قلبه بعد بشيء. تروى

إبراهيم من الصباح حتى رواح الشمس ولم يقرر شيئا، حتى إذا أتى الليل فأتته نفس الرؤية مرة أخرى، فعرف أن هذا الأمر من الله، ولما نام في الليلة الثالثة تأكد له الأمر، فعزم على إنفاذ أمر الله ونحر ابنه إسماعيل.

كتم الأمر في نفسه ولم يبده لهاجر، ولم يخبرها بشيء، فالأم في نهاية الأمر ينفطر قلبها على وليدها، قرر أن يخبرها بعد أن يتم الأمر. كانت ليلة عسيرة لم يغمض له فيها جفن بعد أن استيقظ على أثر الرؤية الثالثة، خرج إلى الخارج، وجلس يتطلع إلى السماء ويدعو الله أن يخفف عنه هذا الألم الذي يعتصر قلبه ولكنه قال لله مناجيا:

«يا رب إني أهبك ولدي طاعة وامتثالًا لأمرك، فأفرغ على قلبي صبرا يا الله.»

دخل الفجر ولا يزال إبراهيم على حاله جالسا في العريشة لم يغمض له جفن، دبت الحياة في البيت فسمع صوت هاجر تنادي على ابنها ليستيقظ للصلاة مع أبيه، خرج إسماعيل إلى الخارج فوجد أباه فقام وصليا سويا، حتى إذا فرغا قال لابنه:

«يا بني هيا بنا لننطلق فنقرّب قربانا لله تعالى...»

«سمعا وطاعة يا أبي...» قال له إسماعيل

دخل إبراهيم إلى داخل البيت، فأخذ سكينة وحبلا في خلسة عن أعين هاجر، وأخفاهما في عباءته، ثم انطلق مع ابنه متجهين نحو الجبال، ومكثت هاجر في البيت تعمل على شئونه، حتى أتاها رجل فقرع الباب، حسبته هاجر ضيفًا ولكنه قال لها:

«أتيتك بنبأ جلل يا مالكة البئر.»

«ما الخطب؟ أخبرني...» قالت هاجر وقد شابها القلق

«أتدرين أين يذهب إبراهيم بابنك؟»

«ذهبا ليقدما قربانا لله.»

«لا، والله ما ذهب به إلا ليذبحه.»

قالت هاجر في حزم: «كلا، إنه أبوه، هو أرحم به مني وأشد حبا له.»

قال لها الرجل الذي لم يرد أن يتوقف عند هذا الحد: «إنه يزعم أن الله أمره بهذا.»

قالت هاجر وقد حسمت الأمر «إن كان هذا أمر الله، فقد أحسن في الطاعة والامتثال لأمره.»

خرج الرجل من عندها هاربا، وقد يأس من بث الفتنة بينها وبين زوجها، علمت هاجر على الفور أن الشيطان قد تمثل لها في صورة رجل، ودعت الله أن يجنب زوجها وابنها شره.. وانطلق الرجل ليدرك إسماعيل بينما سار خلف أبيه، حتى إذا أدركه على الطريق فقال له:

«يا غلام، أتدري أين يذهب بك أبوك؟»

قال له إسماعيل «إنا ذاهبون لنقرب قربانا إلى الله.»

قال له الرجل، «والله ما يريد إلا ذبحك.»

قال له إسماعيل متعجبا: «ولم يريد أبي ذلك؟»

«يزعم أن الله أمره بذلك.»

«إن كان الله قد أمره بذلك، فسمعا وطاعة لأمر الله.»

كان إبراهيم هو الملاذ الأخير للرجل الذي هو صورة للشيطان، انطلق نحوه حتى أدركه عند المشعر الحرام وقال له:

«إلى أين أنت ذاهب أيها الشيخ؟»

«ذاهب أنا وابني لنقرب قربانا إلى الله.»

قال له الرجل «والله إني لأرى الشيطان قد جاءك في الرؤيا يأمرك بذبح ابنك هذا...»

أدرك إبراهيم على الفور أن هذا ليس رجلًا عاديا وعرفه، عرف أنه شيطان فبدأ في رميه بالحصى قائلا:

«إليك عني يا ملعون، فوالله لأمضين لأمر ربي.»

رمى إبراهيم الشيطان بسبع من الحصى ففر هاربا، ولكنه انتظر عند جمرة العقبة، فلما وجده مرة أخرى أعاد الكرة وراح يرميه بالحصى، ففر حتى إذا بلغ إبراهيم الجمرة الوسطى ووجد الشيطان رجمه مرة أخرى، فولى هاربا بلا عودة، بعد أن يئس من بث الفتنة بينه وبين وأهله، أو إلقاء الشك في نفس إبراهيم وإثنائه عن تنفيذ أمر الله.

وصل الرسول الكريم وابنه إلى أقدام الجبال، فأوقف دابته ونزل من عليها، سأله إسماعيل: «يا أبت أين قربانك؟»

أدرك أن عليه أن يخبر ابنه بما كان من أمر الله وأن يجهزه للأمر، فقال له: يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ

قال إسماعيل في أدب وطاعة:

يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ

وقف الأب وقد مادت به الأرض وتسمرت قدماه ولم يقو على الحراك، فتقدم إسماعيل نحو أبيه وقال له:

«يا أبت خذ بناصيتي واجلس بين كتفيَ حتى لا أوذيك إذا اصابتني الشفرة، ولا تذبحني وأنت تنظر لوجهي لئلا ترحمني، واجعل وجهي إلى الأرض وأقرئ أمي السلام، وإن رأيت أن ترد قميصي عليها فافعل، عسى أن يسليها عني.»

احتضن إبراهيم ابنه وراح يبكي بكاء شديدًا، نظر في وجهه قائلا:

«نعم العون أنت على أمر الله تعالى يا ولدي.»

أمسك بمعصمي ولده وربطه، ثم راح يقبله وهو ينتحب وإسماعيل يبكي، استجمع إبراهيم رباطة جأشه ووجه رأس ابنه نحو الأرض وأخذ بناصيته ووضع السكين على حلقه، فانقلب السكين فلم تعمل.. تعجب مما حدث فأعاد الكرة، ولكن هذه المرة وضع السكين على قفاه، فانقلب مرة أخرى، ثم سمع صوتا ينادي قائلا له:

قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

تلفت حوله في عجب بينما لم يترك السكين من يده، فناداه صوت قائلًا: «يا إبراهيم كان المقصود من هذا استسلامكما وتسليمكما لله تعالى، لا ذبح ابنك.»

وما إن فرغ المنادي من جملته، وجد إبراهيم أمامه كبشا سمينا ضخم الجثة، نظر إليه وقد أصابه مزيج من الدهشة والشكر لله، فنادى المنادي مرة أخرى قائلًا: «هذا الكبش يا رسول الله قد قربه أبوك هابيل فتقبله الله منه، ورعى في الجنة، وهو الآن فداء لولدك إسماعيل.»

أتى جبريل وتمثل أمام إبراهيم فقال له:

«اذبح الفداء يا رسول الله.»

فك إبراهيم وثاق ابنه إسماعيل، الذي قام وجلس على ركبتيه ثم سجد شكرا لله، أمسك بالسكين ووضعه على حلق الكبش فنحره، فقال جبريل مكبرًا:

«الله أكبر...»

فنطق الكبش الذبيح قائلًا:

«لا إله إلا الله والله أكبر...»

فقال إبراهيم «الله أكبر ولله الحمد...»

صعد جبريل إلى السماء، وعاد الأب وابنه أدراجهما وقد تم إسلامهما بالاستسلام الخالص لأقدار الله والخضوع لأمره دون تسويف أو جدال.. عادا وقد كاد أحدهما - وهو إبراهيم - أن ينحر عنق ولده تحقيقًا لحقيقة لا إله إلا الله في الأكوان، فلا حتى الولد عزيز على الله، وكل ابن آدم هو من الله وإلى الله يعود، فلا ملكية للأب في الولد، بل هو مالك أوحد لا شريك له.. وعاد إسماعيل وقد حقق أمر الطاعة لربه، والأدب الجم الخالص مع والده، عاد ليصبح مخلصًا ورسولًا نبيا.

وَأذِّن فِي النَّاس

وقف إبراهيم أمام البيت العتيق يتأمل هذه الرقعة الهائلة من النور، وقد امتدت جذورها في الأرض وارتفع شأنها إلى السماء السابعة، هكذا يعلم الإنسان أن الوصل بين السماء والأرض لم ينقطع، إنه فقط إشارة وبشارة للمؤمنين أن هذه هي منارة النور لكم من عند الله، فإذا دخلتم إليها أدعوا الله لكل أمتي من بعدي أن يكونوا آمنين، لا يمكن لمخلوق أن يقتل هنا ولا تُسفك الدماء ولا يُعبد غير الله، طاف سبعة أشواط ثم وقف عند المقام حيث وضع الحجر الذي حفر فيه أثر قدمه، رفع يده إلى السماء داعيا ربه

«رب اجنبنى وبني أن نعبد الأصنام...»

«رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»

ثم خطر له وهو الحليم الأواه أن يسأل الله عمن كفروا، ولكن لم يجهر بسؤاله، فسمع الله ما كان في قلبه فأوحى الله إليه قَالَ

«وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

أراد سبحانه وتعالى أن ينبه على خليله أن الرزق رحمة دنيوية تعم المؤمن والكافر، أما الإيمان فله خصوصية يعم رزقها على المؤمن فقط.. لقد علم ما يفعل الشيطان بابن آدم، وأنه سيسعى لفتنة ذريته وخاف على نسله من كيد الشيطان، فإن كانوا يعبدون الله الآن فماذا سيفعلون من بعد أن يفارقهم؟ تمنى إبراهيم حين دعا لو يكون هذا البلد الآمن هو قلب المؤمن وروحه فيكون آمنا من طوارق الشيطان ومحفوظا من الأكدار ورؤية الأغيار، فيرزقه الله من ثمرة العلوم ويفتح له من مخازن الفهوم، من آمن منهم بالشريعة الظاهرة وجاهد نفسه في عمل الطريقة الباطنة حتى أشرقت عليه أنوار الحقيقة. لقد رأى الأصنام تعبد في بابل وأور والشام وكيف يُفتن بها الناس، فخاف على ذريته من التيه من بعده، وتمنى لو أن كل الأصنام كانت ظاهرة، فتلك الأصنام التي من حجر ظاهرة للعيان، فماذا عن أصنام المال والذهب والفضة، وصنم الدنيا الهائل المضل الكبير؟.. ناجى ربه قائلا:

«رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فحتى عند الزلل، لقد علم عن ربه أنه يغفر لعباده ويرحم من يشاء، لقد تاه الكثيرون فعبدوا أصناما وجعلوها آلهة، فإني أتوسل إليك يا سميع الدعاء أن تجنبني وكل من جاء من نسلي فتنة الصنم الظاهر والباطن...

أما الأمن والأمان في هذا البلد، فقد كان قدرًا مقدورًا كلل بالدعاء الإبراهيمي، بلدًا حرامًا

منذ أن خلق الله السموات والأرض، لا يحل فيه القتال ولا تُقتل فيه نفس، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة...

دعا إبراهيم ربه بقلب ملأته الإنابة إليه قائلًا:

«رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

ربنا اجعلنا منقادين لأوامرك الظاهرة وأحكامك القاهرة، فنكون ممن أسلموا الأمر لك ظاهرًا وباطنًا، وتركوا أثمن ما يعز على قلوبهم قربانا به ترضى عن عبادك الذين لم يجعلوا لك شريكًا، لا من النفس ولا الهوى ولا الشيطان ولا الدنيا...

ولما تقبَّل منه الله سبحانه وتعالى، واصل الدعاء والطلب، فها هي أبواب السماء قد فُتحت لنزول التكليفات الإلهية، وها هي التكليفات لم تنته بعد، والمهام يعظم شأنها كلما أوغل في العمر، ها هو البيت الذي بناه الله لمؤمنيه في الأرض، ولكن كيف هي المناسك؟ دعا ربه قائلا «وأرنا مناسكنا وتب علينا...»

maktabbah.blogspot.com

لقد شعر إبراهيم خليل الله، الذي اصطفاه لمقام الخلة وجعله أبًا لكل رسول ونبي قادم، أحس أن لابد للبيت من مناسك لم يعلمها، فدعا ربه أن يبصره ويعلمه بمناسك البيت، فأوحى الله إلى عبده أمر الطواف، والصلاة عند مقامه، وأمره بالرجم.. وراح يعلم الناس المناسك التي أنزلها الله على عباده، ثم أوحى الله إليه في مشهد مهيب لم تر الأكوان وما خلق فيها شبيها له:

«وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ».

أمره الوحي بالصعود إلى جبل أبي قبيس، فقال له إبراهيم:

«وكيف يبلغ الناس صوتي؟»

«أذن يا رسول الله، وعلى الله البلاغ.»

«كيف أقول يارب؟»

«قل يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى بيت الله العتيق.»

أذن إبراهيم، فبلغ الأذان الإبراهيمي أهل الأرض والسماء، وأسمع الله الأرواح إبراهيم يقول «يأيها الناس حجوا بيت ربكم...»، فأجاب من قُدر له أن يحج من الأصلاب والأرحام بلبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك...

هكذا فإن الدعاء من الله وإلى الله، وإذ كان كذلك فإن الله قد أوحى إلى خليله بالدعاء الأخير، الذي كان مكتوبا في طيات القدر من قبل بدء الخليقة.. رفع يده إلى السماء في دعاء حار انهمرت له دموعه وقال:

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

اتخذ الله إبراهيم خليلًا، ثم أضاءت الأكوان بنور من اتخذ الله خليلًا لنفسه، وتمت نعمة الإيمان الكاملة على البشرية جمعاء، وهل يكون الإيمان إلا بالاستسلام والتسليم الخالص دون حاجب أو حجاب؟ هل يكون الإيمان إلا بأن تُسلم وجهك لله حنيفا ولا تكونن من المشركين؟ هل يكون الإيمان كاملا إلا بالاستقامة على طريق التوحيد وعدم الميل بالهوى والوثن الباطن والصنم الظاهر؟

ومن ذرية أبي الأنبياء، أرسل الله رسولًا بشيرًا ونذيرًا ورحمة للعالمين...

أرسل الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ ليختتم أمر الرسالات، وتطوى الصحف، ويتم الأمر.

عادَ سَيِدنَا إبرَاهيمُ إلى حِبرونْ،

وشَبَّ إِسحَق وتَزَوَجَ وأُنجَبَ سَيدَنَا يَعقُوب..

تُوفيَتْ السَّيدَة سَارَة والسَّيدَة هَاجَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا..

وَتُوفِيَ سَيدُنَا إبرَاهِيمُ - بَعدَ حَياةٍ كُلُها إرْتِحَال

وَكِفَاح - عَن عمرٍ يُنَاهِزُ المَائة وخمسة وسبعين.

انتهت المخطوطة الأولى

نوستالجيا

جلس خالد متسمرا في مكانه بعد أن أنهى قراءة المخطوطة، مبهوتا لا يعلم إن كان الليل قد ولى أو أتى النهار، تلك قصة من قصص الأنبياء أخرى، فلماذا سردها سيدنا يعقوب على لسان بنيامين؟ ولماذا يظهر له بنيامين في كل موضع يروح فيه؟ لابد أن هناك سرًا قد أخفي وراء كل ذلك، فكر خالد وقد ثقلت رأسه وأحس بالرغبة في النوم، لم يكن يعلم أنه منذ تلك اللحظة لم يكن النوم ليرافقه في رحلته، لم يكن يعلم أن تلك هي رحلة اليقظة التي لا يوجد فيها للغفلة مكان، قام من مكانه وقد تيبست مفاصل قدمه قليلًا من طيلة الجلوس، خرج إلى الصالة الواسعة ذات السقف العالي، فوجد أن نور النهار يكسوها وقد انفتحت النافذة على مصراعيها، لقد انقضت قرابة الأربع وعشرون ساعة ولم يشعر بالوقت وهو الذي كان قد أقام للوقت صنما، فكانت كل خطوة له محسوبة بحساب وكان الوقت ثمينا ومنظما، لقد أصبح الوقت الآن عدما عندما سبح في بحر تلك المخطوطة العميق، تناول هاتفه بتلقائية وهاتف سليمة، لقد كانت تعرف الكثير هي وأبوه والشيخ عبدالباري وهو يعلم القليل، لابد أن يخبره الجميع بحقيقة الأمر.. سمع رنينًا على الجانب الآخر من الهاتف وأتى صوت سليمة ناعما، قال لها خالد:

«سليمة أنا خالد، كيف حالك؟»

«الحمد لله يا أستاذ خالد، كيف حالك اليوم؟»

لم يخبرها عن حاله، فهو نفسه لم يكن يعلم بما يشعر، ولكنه لم يضيع الوقت، أخبرها مباشرة أنه يريد أن يلتقي بها، أخبرها عن مكان اللقاء بعد ساعتين في وسط البلد وذهب ليجهز نفسه للخروج...

في شارع شامبليون وعلى الجانب الآخر من الشارع، رأى خالد من نافذة المقهى سليمة تجلس وحيدة في انتظاره، مرت السيارات مسرعة وعبر هو من خلالها في حركات بهلوانية لا تليق بمركزه وهو مثبت بصره عليها، لقد كان هناك شيئا عجيبا في أمر هذه الفتاة، هادئة كانت كمراع خضراء في وسط صحراء جدباء، ناعمة في وسط حياة قاسية، وحكيمة كامرأة في الستين، وصبية جميلة كمن لم تبلغ عامها الثلاثين بعد، كانت لا تنتمي إلى مكان أو زمان. اقترب من الطاولة التي كانت تجلس عليها وحياها وقد شعر بشيء من الاضطراب في قلبه، شيء لم يحس به قلبه منذ سنوات طويلة. بادلته السلام، ونظرت في وجهه قائلة في إشفاق:

«أنت لم تنم ليلة أمس..»

قال لها خالد في أسى «لم أنم منذ أن رحل أبي.»

«لقد كان أبوك أستاذًا كبيرًا يا دكتور خالد، لقد أحزنني فراقه أيضا..»

«ولكني قرأت بعض ما كتب في دفتره، وقرأت المخطوطة.»

«عليك أن تواصل القراءة يا دكتور، فليست تلك هي المخطوطة الوحيدة.»

«ولكنها قصة سيدنا إبراهيم، الجميع يعلمها..»

«الحكايات تمتلىء بالإشارات يا دكتور، فلا تنظر فقط إلى قشرة الشيء، حتى أن العبرة هنا تأتي في الدرجة الثانية بعد الإشارة، هناك - في الحكايات القديمة - علامات علينا التوقف عندها، لأنها تعنينا بشكل مباشر.»

لم يفهم خالد الكثير مما قالت سليمة، فحوى كلامها أن الكثير من الألغاز سيتم حلها إن واصل قراءة دفتر أبيه، أحس أنها تعلم الكثير ولكن ربما أوصاها أبوه ألا تخبره بشيء، وعليه أن يعود إلى ما خُط في الدفتر.

غيّر خالد الموضوع وسأل سليمة إن كان عندها أولاد، فأخبرته أنها لم تتزوج، قالت له سليمة:

-«لقد أصبح الزواج أمرًا مخيفًا في هذه الأيام يا دكتور.»

هم بأن يخبرها بعكس ما قالت، ولكنه تذكر ما كان من أمر زواجه من عايدة، وهو الأستاذ الجامعي ذو الشأن الكبير، الذي لم يكن له شأن في بيته، تراءت له لحظات من تلك الأيام خلال هذه الزيجة، عايدة الرقيقة التي قابلها في الجامعة وكانت معيدة في إحدى الكليات الأخرى، أعجبته وأحس بشيء تجاهها فقرر أن يقترن بها، ومرت السنوات الأولى من الزواج هادئة، إلا أنه كان هناك علامات على خلل ما في الطريق، كانت عايدة أحيانا تتأخر فتهاتف خالد وتطلب منه أن يغسل الصحون أو ينظف شيئا ما في البيت، لم ير خالد في ذلك انتقاصا من رجولته، وكان مؤمنا أن الزواج علاقة تكافل وحب، حتى أتى يوم - بعد أن أنجبا رولا - وصلت عايدة فيه إلى البيت وكان خالد يعمل على أحد الأبحاث، دخلت عايدة إلى المطبخ وقد تكومت الأطباق في حوض الغسيل.. وضعت رولا في فراشها، واقتحمت المكتب صارخة فيه:

-«خالد، لماذا لم تغسل الصحون ولم تفعل شيئا بالمنزل، هل أنا مجبرة على فعل كل شيء وحدي؟»

في ذلك اليوم غضبت عايدة غضبا شديدا ورمقته بنظرات حادة، حتى أنها لم تُعد طعاما.

أحس خالد بالمباغتة، لم يدر ماذا يقول، أيخبرها أنه رجل وأن هذه ليست من واجباته؟ إنه لا يحب أن يفعل ذلك، التمس لها العذر بأنها قد أنجبت لتوها منذ عدة أشهر وتذهب إلى العمل، فلربما كان ما حدث كانت نتيجة الضغوط الكثيرة التي تقع تحت وطأتها عايدة، ولكن كانت تلك بداية انكشاف الوجه الحقيقي للجميع، سواء لها أو له، فهو لم يعلم أنه كان من الرجال الذين يميلون لامرأة أخرى، لمجرد أن الحياة في البيت قد قست قليلًا، ولم يكن يعلم أن عايدة قاسية وجافة إلى هذا الحد.

لقد سارت الحياة جيدًا وأنجبا طفلهما الثاني، وذلك لأنه قد قرر أن تكون له حياة أخرى تعينه على حياته الزوجية، ولكن هذه الحياة لم تلبث أن تكشفت لعايدة فاتهمته بالخيانة ولم تتهم نفسها بالتقصير ولا بالصد والجفاء وسوء المعاملة، فانفصلا بلا رجعة وظل الأولاد في المنتصف ما بين والدين يحاولان أن يستمرا في رعايتهما بشكل ما، ينجحان في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى يفشلان.

ودع خالد سليمة بعد أن أفاق من ذكرياته، وقرر أن يتجه إلى الجامعة، ولم يكن قد ذهب لمدة أسبوع كامل. كان أستاذًا بكلية الهندسة وقد ابتعد كثيرا عن مجال والده في الآثار، لأن والده قد بذل مجهودًا كبيرًا ليجعله يعرض عن هذا المجال ويكره التاريخ، بل وحتى يرسب فيه في الجامعة والمدرسة. انطلق إلى جامعة القاهرة، وبينما دقت ساعة الجامعة الشامخة التي تقع في منتصف الحرم الجامعي دقة الثانية عشر، كان هو يصف سيارته أمام كلية هندسة بالمبنى المقابل لجامعة القاهرة. صعد خالد الدرج المؤدي إلى غرفة الأساتذة، حياه الكثير من الطلبة والطالبات وقدموا له العزاء في وفاة والده، وصل إلى المكتب فكان يجلس الأستاذ أحمد الصاوي أقرب الزملاء إلى قلب خالد، استقبله بترحاب شديد وضمه ضمة الصديق لصديقه وجلس خالد على مكتبه، أتى الساعي شكري فظن خالد أنه سيأتي بقهوته المفضلة إلا أنه لم يفعل، أتى على عجل فألقى السلام على خالد ووجه الحديث لكلا الأستاذين قائلا:

-«يا دكتور احنا مسكنا اتنين بنات مع بعض في أوضة من أوض الكلية...»

اتسعت حدقة عين أحمد غير مصدق لما قاله، استفسر عن الأمر أكثر فكان ما فهمه صحيحا، قال له أحمد:

-«وأين هما الآن...»

-«قفلنا الأوضة ووقفت الدادة معاهم لحد ما تقول لي حضرتك أعمل إيه...»

أخبره أحمد أن يذهب ويعود إليه بعد عشرة دقائق، ذهب شكري وجلس خالد متسمرًا في

مكانه، وساد صمت غريب قطعه بقوله:

-«ماذا سنفعل الآن، رفد؟»

قال أحمد له وقد خرج من شروده:

-«بل سنبلغ أمن الجامعة، هذه أمور لابد من التصرف فيها بحذر.»

-«وهل هذه تهمة يعاقب عليها القانون؟»

-«لا أعلم، ولكن كل ما أعرفه أن هذا الأمر انتشر بين الطلبة، وأنه أمن وطن... لذلك علينا بترك المسألة لأمن الجامعة.»

سأله خالد:

-«وهل حدث كل ذلك في غيابي؟ لماذا لم نر مثل هذه الأشياء من قبل يا أحمد.»

-«لم ندرك الأمر، إذ لم يتجرأ أحد على هذا الفعل في حرم الكلية، ولكن إذا كنا لا نرى شيئا فهل يعني ذلك أنه غير موجود؟ هل ترى الشياطين؟ كذلك فإن اندثار الأخلاق يحدث رويدا رويدا دون أن نشعر به، وهؤلاء الشباب ضحية أفكار دخيلة على مجتمعنا.»

maktabbah.blogspot.com

هاتف أحمد أمن الكلية وترك الأمر، ولكن لم يترك النقاش مع خالد وتبادل الهموم، استمر الحديث بينهما لساعتين كاملتين، أخبره أحمد أن الكلية بها نماذج جيدة ومشرفة ونماذج أخرى لا يعلمون ماذا يريدون، واتفق معه خالد في حجم معاناة أساتذة الجامعة مع الأجيال الجديدة، قال له خالد مازحا:

-«الأمر كله يعتمد على الأستاذ، أنا ربيت أولادى بشكل جيد...»

استعاد خالد خفة ظله وروحه المرحة لعدة لحظات، وأتى شكري بالقهوة، ولكن ظلت الحادثة تخيم على عقله لبرهة من الزمن، حتى بعد أن ترك الكلية وقرر العودة إلى بيته ليجلب بعض الملابس ويعود أدراجه إلى الدرب الأحمر. لقد كان العبء ثقيلًا على كاهله، أحس أنه يحمل المسئولية كاملة فيما يتعلق بطلبته، وأن تأثيره عليهم قد يغير اتجاهاتهم في الحياة ويزيل الصدأ العالق بالقيم المصرية الأصيلة، وها هو عبء آخر تركه أبوه له، عبء المعرفة بما لم يكن يعرفه من قبل، وحمل الأسرار التي لم تكشف بعد. فكر في أولاده بينما توجه إلى بيته في الحي الراقي، عليه أن يعتني بهما أكثر.. وبينما خطروا على باله، رن الهاتف وظهر اسم عايدة، التي أرادت أن تترك الأولاد عنده حتى يأتي الليل، أخبرها أنه تحضرهم إلى الدرب الأحمر، تأففت عايدة وقالت له:

-«متى تعود إلى بيتك؟ أنا لا أريد للأولاد أن يختلطوا بهؤلاء الناس في الدرب الأحمر...»

ارتسمت على وجه خالد ابتسامة تنم عن عزمه على شيء ما، لقد قرر أن يأخذ الأولاد في جولة في هذا الحي العتيق الجميل، وأن يريهم الوجه الآخر لأحياء مصر وحواريها الضيقة المملوءة بالوجوه السمحة لأولاد البلد، قرر ألا يتركهم في عالم وهمي كما تفعل أمهم، وأن يريهم جانبا آخر من الواقع.

اتصل بسليمة وطلب منها أن تأتي إلى بيت والده، فقد أصبحت في النهاية مساعدته ولكنه أرجأ خدماتها قليلًا. وقبل غروب الشمس بقليل، انطلق الأربعة خارج البيت القديم بالدرب الأحمر، وراحوا يجوبون الشوارع مترجلين.. اصطحبهم إلى دكان ابن الحاج أعلى الذي يبيع الموز الحلاوة، فسألته رولا بالإنجليزية:

-«ما هذه الحلوى يا أبي؟»

رد عليها خالد باللغة العربية:

-«موز حلاوة يا رولا...»

ترجمت رولا اسم الحلوى على الفور ليكون Sweet Banana

حكى لهما خالد كيف أنه كان يأتي إلى هذا المكان وهو صغير، وأخبر رولا أن عليها أن تتحدث بلغتها المصرية، وأن الأشياء في كل بلد لها اسم ولا يمكن أن نعطي كل شيء نحبه اسمًا بغير لغتنا. هزت رولا رأسها في لامبالاة، وسار زياد إلى جانبه سعيدًا وهو يرى الأولاد يلعبون الكرة في الحواري الضيقة. بدا الفرق كبيرًا ما بين ملابسه وملابسهم، وسأل أباه إن كان يمكن أن يجلبوا ملابس لهؤلاء الأولاد، سر خالد كثيرا بطريقة تفكير ابنه، أحس أن بداخله بذرة طيبة فطرية، قادهما خالد إلى عربة الفول حيث عم إبراهيم الذي لا ينام، والذى بدت على وجهه بهجة كبيرة حين رأى خالد قادما مع أولاده، جلس الجميع وبدت سليمة مسرورة، قال لها خالد مازحا:

-«فى النهاية الزواج ليس فكرة سيئة، إن كان سيكون للإنسان أولاد مثل هؤلاء....»

أكل الجميع إلا رولا، التي أكلت على مضض لأنها ظنت أن الأطباق غير نظيفة، أسند خالد ظهره على الكرسي بعد أن فرغ من الطعام ونظر في اتجاه مسجد الدعاء مفكرًا في أمر هذا المكان الغريب، الكل يمرون عليه ليلًا ونهارًا وقد ينسوا من القضية التي دافعوا عنها من قبل، إلا عم إبراهيم فقد وقف حارسًا لا ينام أمام هذا المسجد ولا يزال يراه - كلما راح وأتى - واقفًا على عربة الفول يرسل بصره من حين إلى آخر إلى المسجد...

صدح أذان العشاء من كل صوب وجهة من مساجد الحي، ونهض خالد ليعيد الأولاد إلى البيت. في الطريق، التقى بالشيخ عبد الباري الذي ما أن رآه مع الأطفال حتى انفرجت أساريره وتوجه نحوهم، مال على رولا وزياد ومسح على رؤوسهم مداعبًا إياهم، وحيّا سليمة التي بدا أنه يعرفها معرفة جيدة، دعاه خالد للصعود معهم، فسار معهم وصعد الجميع إلى البيت، حيث وضعت سليمة الإبريق على النار لعمل الشاي، وقطفت بعضا من أوراق النعناع من أصيص الزرع الراقد على حافة النافذة، وأمسكت رولا الجهاز اللوحي - الآيباد - الخاص بها وكذلك زياد، واستغرقا في اللعب على الأجهزة.

وبينما قدمت سليمة الشاي وأحضرت بعضًا من العصائر للأطفال، نظر الشيخ عبد الباري بطرف عينه إلى اللعبة التي يلعبها زياد على الآيباد، فرأى فجأة إعلانًا يظهر لرجل يقبل رجلًا آخر، راح زياد يشاهد الإعلان واستغرق في المشاهدة لعدة ثوان، فأخرجه صوت الشيخ من استغراقه، فترك المشاهدة ونظر إلى الشيخ الذي سأله:

-«ما هذه اللعبة التي تلعبها يا زياد؟»

قال له زياد اسم اللعبة.

فنطق الشيخ بالإسم بشكل خاطيء فضحك زياد.

تحدث الشيخ إلى زياد عن الإعلان الذي كان يشاهده، وأخبره بطريقة بسيطة عن العلاقة الفطرية للرجل بالمرأة، وأن ما يشاهده ليس صحيحا فلا يمكن لرجل أن يقترن برجل، وتوقف عند هذا الحد من الشرح، لانه علم أن تلك هي مهمة الاب والأم. لاحظ خالد الحوار القصير الذي دار بين الشيخ وزياد ابنه، فانتظر حتى يوضح له الشيخ عبد الباري، الذي انتحى به جانبا فيما بعد وأخبره عما رأى، وعن الخطر الذي يواجه هؤلاء الأولاد، إن لم يكن عليهم رقابة وملاحظة من الأهل. كانت تلك المرة الأولى التي يشعر فيها خالد بأن الخطر قد اقترب من بيته، فما حدث في الجامعة قد شغله ولكن ليس بالقدر الذي انشغل به عندما انتبه لسلوك أولاده والأخطار المحدقة بهم.

هم الشيخ عبد الباري بالانصراف، ولكن أبقاه خالد وطلب منه أن ينتظر حتى تأتي عايدة، كان يعلم أنها ستفتعل مشكلة إذا وجدت سليمة معه في البيت، وستفعل على أية حال حين تعرف أنها رافقتهم في جولتهم، كانت عايدة مازالت تتصرف كأنها زوجته على الرغم من انفصالهما، تغار من رؤيته مع أي امرأة حتى لو كانت زميلة، ولا تلبث أن توجه له أصابع الاتهام بالخيانة فيخبرها أنها لم تعد زوجته وليس لها حق بأن تتهمه بذلك الاتهام.

وحين أتت عايدة وفتح لها الباب، نظرت إلى الداخل فرأت سليمة وتغيرت ملامح وجهها

إلى الغضب، ثم أتى صوت الشيخ عبد الباري من الداخل.. هرعت رولا وزياد إلى أمهما فسألتهما كيف كان يومهما، قال لها زياد في سعادة:

-«اتفسحنا مع بابا هنا وشفنا حاجات كتير، أنا انبسطت قوي يا مامي..»

بدت على رولا بعض علامات التأفف والرغبة في الذهاب، رمقته عايدة بنظرات حادة وقالت له:

-«ألم أخبرك ألا تخرج بالأولاد في هذه المنطقة؟»

لم يرد عليها خالد، وتابع الشيخ عبد الباري الحديث وكذلك سليمة، لكنهما لم يبديا أي تعليق بعد أن رحلت عايدة وأغلق خالد الباب.. في تلك الليلة قال الشيخ عبد الباري لخالد نفس ما قالته له سليمة في الصباح: «عليك أن تواصل قراءة دفتر أبيك.»، أطفأ خالد أضواء الشقة بعد أن رحلا، وتوجه نحو المكتب وأضاء المصباح النحاسي، ومد يده إلى الدفتر الأسود، فتحه وواصل القراءة...

1948

صحراء الضفة الغربية...

تسلل الزمن من يدي وأنا أذهب إلى الموقع كل يوم، وأعود لأقرأ لعدة ساعات، ثم أغط في نوم عميق حين تثقل جفوني. كنا قد اقتربنا من نهاية العام ولاحت بشائر العام الجديد على الأعتاب، انتهيت من قراءة المخطوطة بحلول شهر يناير، وفكرت مرة أخرى في مجتبى، لابد أن لديه المزيد، فذهبت إليه يوما عند عين الماء فوجدته، وكنت قد جهزت مبلغًا من المال في حال أن وجدت معه مخطوطات أخرى. قال لي مجتبى إنه لم يجد شيئا حتى الآن، فأخرجت النقود من جيبي لعله يبرز شيئا أخفاه، ولكن لم يكن بيده شيئا حتى هذه اللحظة. عدت أدراجي، ولعدة شهور قادمة لم يجد شيئا، قال لي يوما عندما ذهبت إلى العين:

-«نحن نبحث جيدًا، فاصبر وسأرسل لك خبرًا إذا وجدت شيئا.»

مرت الشهور حتى بلغنا الأول من شهر مايو، ونحن في الموقع أتت تعليمات بالانسحاب من المهمة والعودة إلى مصر، وفي نفس اليوم أتاني صالح بخبر من مجتبى بأنه قد وجد شيئا. كان النهار قد انتصف، وبدأ الرجال في جمع الأشياء من الموقع، ذهبت لعلي الأردني فقلت له أني سآخذ سميرة وأذهب لأحضار شيء، فرفض علي رفضًا باتًا قائلا لي:

maktabbah.blogspot.com

«لقد أصبح الوضع خطرا الآن يا كمال، هذه المنطقة على وشك أن تحتل، لا نعلم ماذا يحدث، ولا يمكن أن أعرضك للخطر.»

جادلت معه كثيرًا، إلا أنه أبى، وانطلقت البعثة عائدة إلى القندق ومنها إلى المطار، لم أمهل وقتا، وكان الوضع قد أصبح غير مفهوم، حيث كانت إسرائيل على وشك أن تعلن دولتها على أرض فلسطين، وسمعت أنباء عن نيتها لضم أراض من المدن المتاخمة في الأردن، أعادت كل دولة رعاياها حين غامت الصورة، وأعدت أنا مع من عادوا إلى بلادهم، ولم أقابل مجتبى مرة أخرى، وكنت قد قلت لمنصور في طريق عودة البعثة أن يخبر مجتبى ليأتي إلى الفندق قبل غروب الشمس، وانتظرت عند باب الفندق حتى اللحظات الأخيرة قبل السفر ولم يأتِ لا مجتبى ولا منصور، فأحسست بخيبة أمل شديدة وعدت مهزوما لم أنل شيئا، فلا وجدنا مدنًا قديمة تحت الأرض، ولا أنا بلغت اكتمال السر الذي خبئ في طيات هذه المخطوطة، التي بدت في ظاهرها قصة من قصص الأنبياء، ولكن باطنها كان يمتلئ بالألغاز، لماذا كتب بنيامين وكتب أسباطه من بعده؟ كان الأمر كله مبهما، وعدت أنا إلى مصر مرغما، فاستقبلني أبي بشوق كبير وقال لي:

-«لن تسافر مرة أخرى إلى أي مكان، لقد انتزعت قلبي معك.»

أوكل لي أبي المهام في التنقيب عن الآثار في مصر، وأتت الكثير من البعثات من الدول الأوروبية، كان الباحثون في ذلك الوقت مولعين بالأسرار التي حوتها مصر في تربتها، وظللت أنا مشغولًا بما تركت خلفي من مجهول، كنت على وشك أن أفقد عقلي بينما أصبحت العودة إلى الضفة الغربية خطرًا، حين انتزعت هذه البقعة من الأرض من دولة الأردن وضُمت إلى دولة إسرائيل، لم يخرجني من هذه الحالة إلا قدوم البعثة الإنجليزية إلى مصر، الأمر الذي غيّر مسار حياتي للأبد، ففي تلك البعثة أتت فريدا، امرأة لها وجه كالملائكة لاحت لي من بعيد بقبعتها البيضاء وسروالها الواسع الذي يناسب العمل في الصحراء، تحدثت فريدا الإنجليزية بطلاقة وكنت أنا قد تعلمت الإنجليزية في المدرسة، فنشأت صداقة قوية بيننا، ما لبثت أن تحولت إلى إحساس طاغ بأن كل منا لا يمكنه الاستغناء عن الآخر، قلت لها ذات يوم في فترة الراحة وقد وقفنا نتأمل الصحراء الواسعة في يوم شتوي غطت فيه الغيوم على الشمس فصار الجو رائعا:

-«تتجوزيني؟»

نطقت بها وأنا أعلم العواقب، حتما سيرفض أبي زواجي من أجنبية ولكني، ومنذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناي عليها، علمت أن هذه هي المرأة التي سأقضي معها ما تبقى من عمري.

ابتسمت فريدا وقفزت طبقة رقيقة من الدموع إلى عينيها، قالت لي بلغتها العربية الأجنبية:

-«أنا أحبك يا كمال، ولكن....»

-«ولكن ماذا؟ سنعيش أينما تريدين، إن أردتِ أن أعود معك إلى إنجلترا سأفعل...»

-«ليس هذا هو الأمر....»

شردت قليلًا وسمعت صوت أنفاسها وهي تحاول أن تستجمع شجاعتها وتقول ما صعب عليها قوله:

-«ولكن أنا يهودية.... هل تقبل أن تتزوج من يهودية؟ وإن قبلت أنت، هل يقبل أهلك؟»

أحسست للحظات أن الأرض قد مادت بي، ولكني استجمعت شتات نفسي في سرعة، بعد أن أخذ قلبي زمام الأمر ولم يعد يعنيني من أمر دينها ولا جنسيتها شيئا، كل ما أردت هو أن أقضي بقية عمري مع هذه المرأة التي أحببتها بكل جارحة من جوارحي، وبكل ما أوتيت من

جموح أطاح بتقييمي للأمور. كانت فريدا حقا امرأة ذات فضيلة وعلم وأخلاق وكنت قد قررت، دون تردد، أن أتزوجها، تحدثت إلى أحمد الصفتي الذي كان بئرًا لأسراري على الرغم من عمله عند والدي، إلا أنه لم يخلط أبدًا بين صداقته لي وعمله عند أبي، شرد أحمد قليلًا عندما فاتحته في الأمر، فقلت له:

-«ما رأيك يا أحمد؟ أشعر أنك تمانع الأمر، لماذا شردت هكذا؟»

-«لا أبدًا، كنت أفكر في أمر أبيك، إنه حتما سيرفض، ولكن لدي فكرة يمكن أن تجعله يقبل..»

لمعت عيناي وأحسست أن هناك مخرجًا يمكن أن يجعلني أكسب كل شيء ولا أخسر شيئًا، سألني أحمد:

-«هل أنت متأكد من حب فريدا لك؟»

قلت بحماس:

-«نعم، ربما هي تحبني أكثر مما أحبها»

قال لي:

-«فاذهب واطلب منها أن تعلن إسلامها على الأوراق وتغيّر اسمها.»

صمت لعدة ثوان مفكرًا ثم قال:

-«هكذا فإن أباك لا يمكن أن يرفض لكونها ليست مسلمة.»

لم تخطر هذه الفكرة على بالي قط، ولكنها كانت فكرة جيدة، كنت متأكدًا من حب فريدا لي، ولكني لم أكن متأكدًا من أنها قد تغيّر دينها، ولو حتى على الورق، من أجل الزواج مني، وحسمت هي الأمر بالموافقة حين أخبرتها، فذهبنا إلى الأزهر ورافقنا أحمد واعتنى باتمام كل المعاملات الورقية، نطقت فريدا الشهادتين امام الشيخ واخترت لها اسم فاطمة، فتغيّر اسمها إلى فاطمة عبد الله. سألتها في ذلك اليوم إن كانت أسلمت على الورق فقط، فأجابتني بأن نعم هي مازالت على دينها الذي تربت ونشأت عليه، فلم أرد أن أضغط عليها، فقد فقدت فريدا أبويها وأخوها الوحيد في المحرقة النازية لليهود منذ ثلاثة أعوام، ونزحت إلى إنجلترا وأكملت دراستها ولكنها حملت أحزانًا كثيرة بداخلها.

بعد عدة أيام، قررت أن أفاتح أبي في الموضوع، وكان بعد أن تناولنا العشاء، جلست إلى جانبه وهو يشرب الشاي، فقلت له إنني أريد أن أتزوج، لمعت عينا أبي بسرور لم أر مثله من

قبل وقال لي:

-«هذه بشرى، أخيرًا يا بني، ومن هي الفتاة؟»

-«إسمها فريدا يا أبي، وهي ليست مصرية ولكنها مسلمة...»

تغيرت ملامح أبي وقطب حاجبيه وقال لي في حدة:

-«تركت المليون مصرية في بلدك وتريد أن تتزوج أجنبية؟»

-«أحبها يا والدي...»

-«حب إيه وكلام فارغ إيه؟ هؤلاء الأجنبيات لسن من طين ولا عجين هذا البلد، قولًا واحدًا، أنا لا أوافق على هذه الزيجة.»

قال ذلك في غضب شديد، وقام من مكانه وتركني وحدي لا أدري ماذا أفعل، لقد فشلت في ترتيب الأمر، رفض أبي أمر فريدا وهو لا يعلم دينها، ماذا لو كان علم بذلك بهذا الأمر أيضا؟ لكان أخرجها بنفوذه من البلد بلا عودة. ذهبت إلى الصفتي، الذي قال لي في النهاية أنني قد أصبحت الآن في مفترق طرق، إما أن أتزوجها وأتحمل العواقب، أو أن أرضخ لأمر أبي وأتركها، وأنا كنت قد رضيت طيلة حياتي بكل ما أمرني أبي به من دراسة وعمل وسفر، لم أكسر له أمرًا ولم أرفض له طلبًا، والآن قلبي يدفعني ويقودني في اتجاه أن أترك كل شيء وأمكث فقط معها، وهكذا ارتضيت بمواجهة العالم من أجلها، فقاطعني أبي وحرمني من الميراث.

بحثت لنفسي عن بيت في الدرب الأحمر ببعض النقود التي كنت قد ادخرتها في أوقات سفري، كان البيت قديما نوعا، ولم يكن به إلا فراش وأريكة وطاولة في المطبخ وموقد، سألت فريدا قبل أن نتزوج إن كانت ترضى بالعيش معي على هذا الحال، فقالت لي إنها تحبني وستسكن معي في أي مكان تحت أي ظرف من الظروف. في يوم الزواج، أتى أحمد الصفتي وبعض من أهل المنطقة، الذين ساعدوني في فتح الشقة ونقل الأريكة وتركيب السرير، وأتى الشيخ جعفر ومعه ابنه عبد الباري، عقد الشيخ منصور قراننا وشهد الصفتي ورجل من أهل المنطقة على زواجنا، تلك الشهادة التي كانت سببا فيما بعد في فصل أحمد الصفتي من عمله، حين وصلت قسيمة الزواج إلى أبي وعلم أن أحمد كان يساندني في الأمر.

غدت إلى الجامعة، فحاولت أن أواصل عملي كمعيد، ولكنهم رفضوا لسبب ما، ربما كان أبي قد أغلق في وجهي كل الأبواب كي أعود إليه، ولكني لم أعد. كنت أعيش مع فريدا أو فاطمة أجمل أيام العمر، وقررت أن أوفر المال من التدريس، فأصبحت مدرسا للتاريخ في

إحدى مدارس الحي، جنيت القليل من المال ولكنه كفى حاجتنا، لم أكن أعلم إذا كان سيكفينا إن رزقنا بطفل. مرت سنوات عديدة، وفي عام 1952 قامت ثورة 23 يوليو، فأطيح بأبي، وعدت أنا إلى الجامعة أباشر عملي مرة أخرى، بعد أن سقطت كل الرموز التي كانت مأمورة بإبعادي عن العمل. تحسنت الأحوال المادية، وأصبح في بيتنا الكثير من الخير، وعلى الرغم من عودتي إلى الجامعة إلا أنني لم أترك عملي في تدريس الأولاد، فقط تركت المدرسة وأتى أولاد الحي إليّ لأدرسهم التاريخ بالمجان، وتدرسهم فريدا اللغة الإنجليزية، حتى أسمانا أهل الحي الأستاذ والأستاذة. مرت السنوات ولم أرزق بولد، وكنت أخشى من أن يفعل ولدي مثلما فعلت مع أبي، كنت نادما على مقاطعتي له وعدم محاولتي التقرب منه بشتى الوسائل، ولكني لم أندم على زواجي ممن أحببت. مرت خمسة عشر عاما، وجاوزت أنا الأربعين من العمر وكانت فريدا تصغرني بثلاثة أعوام، وذات يوم زفت إليّ خبر حملها، كان إحساسا غريبا ذلك الذي باغتني حين سمعت بالبشرى، أن أكون أبًا لطفل يتكوّن في رحم حبيبتي، فكرت في هذا الطفل، كيف سيعيش وكيف سأنفق عليه، وفكرت أيضا في كيف سيتربى وعلى أي دين، هل تعلمه فريدا الديانة اليهودية أم يتعلم مني الإسلام؟ سألتها ذات يوم، وكانت في شهرها الخامس من الحمل:

-«ألم يخطر ببالكِ الذهاب إلى إسرائيل مع من ذهبوا؟ في النهاية لقد أقاموا وطنًا لليهود...»

قالت لي:

-ليس وطنا ذلك الذي نأخذ فيه الأرض من ساكنيها يا خالد.. لقد رأيت موت أمي وأبي وأخي بعيني، لا أريد أن أرى المزيد من الموت كي أعيش في أرض تسمى الوطن.»

قلت لها وأنا أضع يدي على بطنها أتحسس الولد القادم:

-«أنت تعرفين أن هذا الولد سيتربى على الدين الإسلامي...»

قالت لي بحب:

-«وأنا احترم دينك، ألسنا كلنا مسلمين في نهاية الأمر؟»

كان سؤالا غريبا لم أفهمه، فطلبت منها أن توضح ما قالته، فقالت لي فلسفتها الخاصة بها:

-«الم نأتِ كلنا من نسل إبراهيم الذي أسلم وجهه لله؟... إسحق ويعقوب وإسماعيل ثم محمد، الكل أتى من صلب إبراهيم.»

-«ولماذا لا تعتنقين الإسلام بقلبك حتى الآن، إذا كنت تؤمنين به؟»

-«لأني اعتدت يا خالد على ديني وطقوسه، إلا أنني أؤمن بالرسول محمد، وأعلم أنه لا إله إلا الله في هذا الكون الفسيح.»

كتمت أنفاسي من انبهاري بهذه الفلسفة التي لم أكتشفها لدى فريدا إلا بعد أعوام من الزواج، فلم أكن أناقش معها أمور الدين على أي حال، ولكن كان عليّ أن افعل الآن ونحن ننتظر مولودا يجب أن نرسم مستقبله بشكل جيد، ودون أن نختلف على شيء. لم أكن أعلم أن هذا المستقبل سيكون لي ولولدي فقط، وأن أمه ستفارقنا في اللحظة التي يطلق فيه ولدنا صرخته الأولى في الحياة، وتلفه القابلة بقماشة كبيرة من الكتان الأبيض، ويلُف جسد فريدا الكفن الأبيض. قالت لي القابلة يومها:

-«لقد نطقت زوجتك الشهادتين وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.»

انتحبت متأوهًا:

-«حبيبتي يا فاطمة...»

وأتى خالد إلى الدنيا، بعدما ودعته أمه وأصبح لطيفا، ربته معي نساء الدرب الأحمر، ومكثت إحداهن في البيت لخدمتنا ورعايته بينما كنت في عملي، شب خالد ليصبح صبيًا جميلًا، ألحقته بكتاب الشيخ عبد الباري الذي كان قد كبر وأصبح شيخًا شابًا فتيًا، أما أنا فقد أسرني أحد المساجد في أحد شوارع المنطقة، ورحت أصلي فيه دائما، هذا المسجد الذي كتب أعلاه «مقام سيدنا بنيامين»، أعادتني تلك اللافتة إلى ما كان من أمر المخطوطة وافتراقي عن مجتبى دون أن أتوصل للمزيد، وأمر ارتباط بنيامين بسيدنا إبراهيم، حلقة مفقودة لم أكن لأجدها ولم أستطع السفر مرة أخرى، فقد أصبحت أستاذًا جامعيا وأصبح وضعي أكثر حساسية.

بحثت كثيرا في أمر بنيامين، فلم أجد الكثير من المعلومات عنه في التاريخ، لم يذكر إلا فقط عند لقاء أخيه يوسف، كانا الاثنان ابنا السيدة راحيل التي أحبها يعقوب حبًا جمًا، حتى أنه تزوج اختها الكبرى ليتمكن من الزواج منها بعد ذلك. لم أجد شيئًا عن بنيامين، وبقي مسجد الدعاء يستقبلني حتى عام 2007 ، حين أمر بإغلاقه بلا سبب ودون رجعة.

maktabbah.blogspot.com

فعلت كل ما يمكن فعله لإعادة فتح المسجد، عرضت أموال التجديد وذهبت إلى الهيئات المختلفة، رفض الجميع بعد أن استولى مقاول ما على بعض المقتنيات في المسجد. في هذا اليوم رأينا السيارات تدخل إلى حارة حيضان الموصلي، ولم نر أي مواد للبناء والترميم تدخل، بل رأينا العمال يضعون أشياء في السيارات نصف النقل لتقلها إلى مكان ما، تصديت

ومن معي من أهل المنطقة للرجال ومنعناهم من الخروج بمقتنيات المسجد، أوجعني كثيرا أن أرى المسجد الذي صليت فيه لأعوام طويلة يغلق وينهب، وبقي الحال على ما هو عليه.

أما عن ولدي خالد، فقد كبر وابتعدت قلوبنا عن بعضها البعض، وكأن جدارًا قد أقيم بيني وبينه، وكلما حاولت أن أزيل هذا الجدار ازداد قوة وصلابة، ربما أني كنت كلما أتقدم في العمر آخذ من طبيعة أبي القاسية، أردت مصلحة ابني، لم أشأ له أن يخوض مثلي في تجارب صعبة، ولم أرد له أن يطارد الوهم كما طاردته أنا لأعوام طويلة، فكان كلما أبدى اهتمامه بالتاريخ حدثته عن العلم، فبعد ما مررت به عرفت أن العلم هو الحقيقة الثابتة بالدلائل والبراهين، أما ما كنت أبحث عنه أنا طيلة حياتي فكان مدفونا في طيات القدر، لا أعلم إذا كنت سألتقي به أم لا.

لم أرد أن يكون خالد مثلي، وهو أراد أن يكون مثلي، فصددته عن هذا السبيل وأجبرته أن يختار سبيلًا آخر، سبيل العلم، فحين جاء وقت تنسيق الكليات وكان قد حصل على مجموع عال، وأراد أن يدخل كلية الآثار مثلي، قلت له إن مجموعه يصلح لأن يدخل كلية الهندسة، انصاع خالد لأمري على مضض، ولكن بعدها نمت الحواجز بيننا فلم يعد هو ابني الصغير الذي يمكن أن أضمه إلى صدري، ولم أعد أنا الأب الذي يبذل مجهودًا ليتقرب إلى ابنه. استغرقت في دراساتي وأبحاثي لسنوات طويلة، ولم يعد خالد يزورني كثيرًا، بحثت عن الذاهبين إلى فلسطين لعلهم يأتون لي بخبر من مجتبى، لم ينجح أحد وبقيت أنا أطارد سرابًا، كلما اقتربت منه لم أجده شيئا، وأنا الآن أشعر بندم عظيم فربما لو كنت قرّبت مني خالد، لصار هو ذراعي الأيمن في مسعاي إلى الحقيقة، لقد بحثت عمن يساعدني على مدار سنوات طويلة، ولم افكر أن ابني يمكن أن يفعل ذلك، ندمت كثيرًا ولكن مهمة الأب مهمة عسيرة لا نعلم ونحن نقوم بها إن كنا نفعل ما هو صحيح أم لا، لقد ولد ابني دون أم، ثم فقد أباه على الطريق لسبب غامض على كلينا.

والآن، وحتى هذا اليوم من عمري، مازلت أسعى إلى فتح مقام بنيامين، ومازلت أبحث عن مجتبى، ولا أعلم إن كان سيحدث أي من الأمرين، ولكني أعرف أنه لن يكون إلا ما قد كتب في صحف الأقدار..

الآن أنتظر، وما الانتظار إلا عبادة أخرى شاقة.

***

جلست ساهما في فراغ الحجرة المعتمة، بعد أن أنهيت قراءة دفتر أبي، أنا أيضا أشعر بالندم على ما فرطت في حق أبي دون سبب معلوم، ليته يعود فيزال ما كان بيننا من جليد،

وأتدفأ بدفء قلبه. لقد كتم عني أبي أمر ديانة أمي، لماذا فعل ذلك؟ لا أدري، كنت أعلم أن أمي اسمها فاطمة وأنها كانت من أصولٍ أوربية، ولم أعلم شيئا آخر عنها طيلة سنوات عمري، بكيت كثيرًا لعدم وجودها في حياتي وشعرت دائما أني ولدت بشيء مبتور في روحي، ولد مبتور الأم، هذا البتر الذي ترك في روحي فجوة كبيرة، منها تسللت ظلمات كثيرة. خرجت إلى الصالة ذات النافذة المفتوحة، لقد أشرقت الشمس ولم يغمض لي جفن. قررت أن أحصل على قسط من النوم، نظرت تجاه باب غرفة أبي المغلق، وسرت نحوه وفتحت الباب. دخلت فتأملت الفراش الخالي من جسد وأنفاس أبي، اقتربت من الفراش وتمددت عليه، انبعثت من الأغطية والملاءات رائحة أبي فتنفستها عميقا، أغلقت عيني ورحت في النوم وأنا أشعر بأمان من يغفو بين ذراعي والده.

لم أعلم كم من الساعات غططت في النوم، راودتني رؤيا عجيبة وكأني في أرض غير أرض مصر، وكأني ألتقي برجل مسن ذي لحية بيضاء. قطع علي حلمي صوت جرس الباب الذي أيقظني، كان الشيخ عبد الباري قد أتى للاطمئنان علي، نظر الشيخ في وجهي فوجد أني قد استيقظت من النوم لتوي، قال لي الشيخ:

-«سامحني يا ولدي لقد قطعت عليك نومك.»

-«لا أبدًا يا شيخ، تفضل، كنت سأتصل بك على أي حال.»

أشرت إلى الشيخ بالدخول، وسألته إن كان يريد أن يحتسي معي بعضًا من القهوة، فقال لي:

-«شاي إذا أمكن.»

-«على راسي يا شيخي الكريم.»

دخلت إلى المطبخ وحضّرت القهوة والشاي، وعدت لأجلس مع الشيخ عبد الباري، الذي جلس في مواجهة مكتب كمال الإكيابي. كان المصباح النحاسي مازال موقدا، قال لي الشيخ:

-«هل قرأت يا بني؟»

-«نعم يا شيخ، وتعجبت كثيرًا لماذا لم يخبرني والدي بأمر أمي، ولماذا لم يطلب مني العون فيما سعى وراء.؟»

-«لقد كان أمر أمك شائكًا يا ولدي، لم يكن الأمر هكذا فيما مضى، ولكن مع التقدم في الزمن والكراهية التي صدرت تجاه اليهود، وعدم قدرة الناس على الفصل بين اليهودي والصهيوني، أصبح الأمر معقداً، لم يكن لأحد أن يعلم بذلك كي تستقر أمورك في الحياة يا

ابني»

غيّر الشيخ مسار الحديث وسألني:

-« أخبرني الآن ماذا ستفعل بعد أن قرأت وفهمت؟»

وجدت نفسي أقول بشكل تلقائي ودون تفكير:

-«سأبحث عن مجتبى.»

لاحت ابتسامة رضا على وجه الشيخ عبد الباري، وجلست صامتا بعد أن قلت ذلك، لا أدري لماذا قلت ذلك، وما أهمية البحث عن مجتبى، وكيف سأذهب إلى فلسطين. ولكني رددت مرة أخرى:

-«يجب أن أجد مجتبى.»

بيت المَقدِس

هذه هي الشمس على الأرض، وقع عليها بصري ونحن على الطريق إلى جسر الملك حسين حيث المعبر الحدودي ما بين فلسطين والأردن. في نقطة منخفضة من الأرض، لاحت لنا قبة الصخرة الذهبية لامعة في ضوء النهار، كشمس نزلت على سطح البرية أضاءت الدنيا ولم تحرقها، ولكننا بها احترقنا وافترقنا. فكرت في كل ما تركت خلفي، سليمة وهي تودعني وكأني ذاهب إلى حرب لن أعود منها، أولادي الذين أصبحت الآن أخشى عليهم من الحياة، وحتى عايدة أتت إلى ذهني، أحسست بالشفقة عليها، ربما لم أكن زوجًا ولا أبًا جيدًا، ربما لديها ألف وألف سبب لتكون المرأة القاسية التي هي عليها اليوم، قد أكون أنا أول هذه الأسباب.

تأملت الطريق مليًا وقد استسلمت للسعي نحو المجهول، أعلم عمن سأبحث، ولكن لماذا أبحث عنه وما الذي كنت أريده من هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر، لم أكن أدري، أفلت زمام نفسي للمرة الأولى، أعتقتها من التخطيط ودراسة كل خطوة قبل أن أخطوها، في الحقيقة أن الذي أعتقني هو أبي، لو كان مازال حيا وحتني عشرات المرات أن أفعل ما أفعله اليوم لما فعلت، ولكنه كان يعلم جيد، وهو الأستاذ، أن حداد القلب سيبدل حالي، فانتظر حتى يفارق.

بلغنا الجسر، فأوقفني ضابط الجوازات من الطرف الأردني من المعبر، سألني:

-«إلى أين تذهب...»

أجبته:

-«القدس...»

-«لماذا أنت ذاهب إلى هناك...»

-«سياحة...»

أجبت بثبات وبداخلي رعشة لا أدري سببها، طلب مني الضابط أن أنتظر، بعد أن أخذ جواز سفري الإنجليزي، تلك الجنسية الأخرى التي ورثتها من أمي، فانتظرت قرابة الساعة حتى سمح لي بالمرور. ركبت الحافلة مرة أخرى حتى وصلنا إلى الجانب الآخر من المعبر، الجانب الفلسطيني، لكنه لم يكن فلسطينيا بالمعنى الكامل، فإدارته تحت أيدي السلطات المحتلة. هذه المرة انتظرنا قرابة الخمس ساعات، لم أكن أعرف أحدًا من الفوج المصاحب لي، كل ما في الأمر أني ابتعت تذكرة على هذا الأتوبيس الذاهب إلى القدس بفلسطين، كنت قد عزمت

على أن أبدأ من بيت المقدس، لا أعرف بعد كيف سأجد مجتبى وفي أي مدينة، ما الخيط الذي سيوصلني إليه، ولكن قررت أن أذهب إلى المسجد الأقصى أولا ثم لأرى ماذا يحدث بعد ذلك...

بعد خمس ساعات، ختم الضابط على ورقة وضعها بداخل جواز سفري وأعطاني إياه، واستقل الجميع الحافلة مرة أخرى. اختلطت مشاعري كثيرا حين رأيت أختام السماح لدخول الأراضي الفلسطينية، كدت أفرح لأنه قد سمح لي بالدخول، فلن أعود أدراجي كما كنت أخشى أن يحدث، لكن انقضّت على قلبي نقطة حزن قاتمة السواد أفسدت علي لحظات الارتياح، لمن الأرض اليوم ولمن كانت بالأمس ولمن تكون غدا؟«كله مقدر ومكتوب» كما كان يردد دائما الشيخ عبد الباري ويؤمِّن أبي على كلماته. أبطأ سائق الحافلة من سرعتها وأعلن عن اقترابنا من الوصول إلى باب الأسباط، سمعت أحدهم في المقعد الخلفي يتحدث إلى المرأة الجالسة في المقعد إلى جانبه يخبرها عن هذا الباب قائلا لها إنهم أغلقوا باب المغاربة عند السور الغربي منذ بضعة أعوام في وجه المسلمين، أما نحن الآن فمتوجه نحو السور الشرقي للبلدة القديمة، نحو باب الأسباط، قال لها بمرح وفي لهجة من يلعب لعبة الأسئلة:

-«أتعلمين من هم الأسباط؟»

ضحكت وقالت:

-«أبناء سيدنا يعقوب....»

على جانبي الطريق بنيت أسوار من حجارة تبدو قديمة، وحفّته أشجار السرو التي ربما يتجاوز عمرها المائة عام، عند البوابة سألنا الضابط إن كنا مسلمين فأجبنا بنعم، تبقت خطوات قليلة الآن وتلوح قبة الصخرة، هممت بالابتعاد عن الجميع ومواصلة طريقي نحو المسجد، رأيت السائق يأتي مهرولًا نحوي، سألني إن كنت سأعود معهم الليلة، قلت له إني سأبقى قليلًا، وأخبرته أني سأتصل به حين يحين موعد عودتي... تركني ومضى، وسرت أنا أتنفس الصعداء وكأني لم أتنفس عمرًا كاملا، استشرفت نسمات الهواء الباردة فنهلت منها حتى أحسست بذراتها تقر في أعماق روحي، ركض بعض الأطفال نحوي:

-«فلسطيني؟

ابتسمت لهم ضاحكا وقلت:

-«مصري... بتحبوا المصريين؟»

-«أيوة، إخواتنا المصريين نحبهم.»

دسست يدي في حقيبة الظهر خاصتي، فأخرجت قطع من البسكويت التي كنت قد أدخرتها من أجل الطريق ولم آكل منها شيئا، أعطيتها إياهم، تهلل الأولاد ومضوا وواصلت طريقي. كان كل شيء هادئا، الأرض الحجرية تحت قدمي تسكن في سلام، الأشجار شامخة تُطل على الذاهب والآتي منذ مئات الأعوام، وتشهد على كل شيء ولا تخبر أحدا بما رأت، وعلى مرمى البصر خطفت أنفاسي وسلبت روحي قبة الصخرة الذهبية تُكلل المسجد الذي عرج من صخرته سيد الأنبياء سيدنا محمد، انهمر الدمع من عيني دون أن أدري، أحسست بحرارة شوق في قلبي، ربما شوق لما وراء ما كنت أرى، شوق لمن لم أرهم، لمن كانوا أبطال الحكايات والملاحم التي زُويت لنا عمن جاءوا لمحو الظلام بالنور...

مثمن الأضلاع، مزين محيطه الأعلى بالفسيفساء، يقف على جدران حجرية وأعمدة رخامية، هكذا كان مسجد قبة الصخرة، دخلت من أحد أبوابه الخضراء وتوجهت إلى صخرة المعراج المحاطة من ناحية بأسوار خشبية مزخرفة، ومن جانب آخر بأعمدة وبواكي رخامية بها زخارف على الطراز الإسلامي، جاءني صوت من خلفي قائلا باللهجة الفلسطينية:

-«هل تعرف من بنى هذا المسجد؟»

التفت فرأيت رجلا قصيرا أشيب الشعر سمح الوجه:

-«أليس هذا هو المسجد الأقصى، الذي عرج منه الرسول في ليلة الإسراء والمعراج؟»

-«هذا هو المسجد الذي بناه عبدالملك مروان فوق قبة الصخرة يا بني، أتريد أن تعرف قصته؟»

-«بالطبع.»

دعاني الرجل للجلوس على بعد أمتار من الصخرة، أشار إلى أسفل ونحن نغادر موضع الصخرة حيث كان يجلس بعض مرتادو المسجد، قال لي «هذا محراب الأرواح ومصلى الأنبياء...»

في باحة المسجد الأقصى، على يمين مسجد قبة الصخرة، رحت أنظر إلى المسجد القبلي بقبته الداكنة وأبوابه السبع، قال لي الرجل مشيرا بكلتا ذراعيه في اتجاهات مختلفة

«كل هذه المساحة حرم المسجد الأقصى يا ولدي، وأنتم دائما تخطئون وتظنون أن المسجد ذا القبة الذهبية هو فقط المسجد الأقصى، أو هكذا أرادوا لكم أن تظنوا.»

نظرت له باندهاش، فقد كنت قاربت على الخمس وخمسين من عمري وكل ما أعلمه عن المسجد الأقصى أنه المسجد ذو القبة الذهبية، دعاني الرجل إلى الجلوس في باحة المسجد

الواسعة، حيث يلعب الأطفال ويفترش الناس الأرض، جلست إلى جانبه ووجوهنا موجهة نحو المسجد القبلي ذي القبة الرصاصية، الذي وقف شامخا هادئا تبدو عليه علامات القدم وآثار الزمن، وكأن لم تجرؤ يد على مسه وتغييره حتى اليوم، لحظات من صمت قال بعدها لي:

-«كل هذا المكان هو المسجد الأقصى، لا تدع أحد يخبرك بشيء آخر، وعلِّم أولادك كذلك....»

-«ولماذا ظننا غير ذلك؟»

-«هي قصة طويلة، ولكن اعلم أن تحت هذا المسجد يظنون أنه يوجد هيكل سليمان، لذلك فقد صرفوا أنظار العالم عنه وأوهمونا، كبارنا وصغارنا أن القبة الذهبية هي المسجد الأقصى.»

أخبرني الشيخ الأشيب أن المسجد الأقصى هو المساحة الشاسعة التي تضم سبعة مساجد، منها مسجد قبة الصخرة والمسجد القبلي الذي بناه عمر بن الخطاب عندما فتح بيت المقدس -ومنه يؤم إمام الأقصى المصلين- والمسجد المرواني نسبة إلى عبدالملك بن مروان الذي شيد مسجد قبة الصخرة فوق الصخرة التي عرج منها الرسول إلى السماء السابعة، سألني:

-«أنت مصري، نعم...»

قلت له:

-«نعم...»

-«لقد خصص عبد الملك ابن مروان خراج مصر لبناء هذا المسجد.... لقد كان لكم يد وفضل كما كنتم دائما أنتم أهل مصر...»

نظر الشيخ الأشيب إلى المسجد القبلي وقال في حسرة:

-«لقد أحرقوا هذا المسجد فيما مضى، واحترق منبر نور الدين الزنكي الذي أحضره صلاح الدين الأيوبي إلى المسجد حين فتح القدس. »

أشار إلى آثار أحجار وأتربة متكومة على مرمى البصر، وقال لي بعد أن صدرت تنهيدة أسى من صدره:

-«ما زالوا يواصلون الحفر تحت الحرم القدسي، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا

يعلمون...»

أحسست بشيء من الخوف، ورحت أسمع بحذر ولا أناقش، فلم أكن أعلم من هو الرجل، ولم أرد الخوض في مناقشات قد تسبب لي مشكلات وأنا لم أبدأ رحلتي بعد. أذن للمغرب، فقام الرجل وسرت وراءه إلى الصلاة، لم يدعني إلى الصلاة وأنا ذهبت بشكل آلي خلفه، دخلنا إلى المسجد القبلي ذي الأعمدة الرخامية العالية، ورأيت القبة الرصاصية من الداخل وقد تزينت بزخارف ملونة وطغى اللونان القرمزي والأخضر على رسومات القبة من الداخل، وتحددت الزخارف بخطوط ذهبية جميلة. صلينا المغرب وخرجنا إلى الساحة مرة أخرى، سألني الرجل مبتسما في سماحة:

-«اسم الكريم إيه، كما يقولون بالمصري».

ابتسمت قائلا له:

-«خالد الإكيابي، وحضرتك؟»

-«قاسم التعامرة.»

ما إن نطق باسمه حتى أصابتني الدهشة، ولكني أخفيت انفعالاتي ريثما أفكر وأتحقق من الأمر، ألم يكن اسم عائلة مجتبى هو التعامرة؟، قادني الرجل إلى الخارج من باب غير الذي دخلت منه، باب كان يؤدي إلى أزقة الأحياء المحيطة بالحرم القدسي، المكان يشبه كثيرًا أحياءنا في مصر، حيث ارتصت الدكاكين على جانبي الزقاق وفرش الباعة بضائعهم المختلفة على طاولات أمام المحلات، ولكن كان هناك اختلاف ما، فقد امتلأت رائحة الجو بعبق غريب أتى من الماضي السحيق، عبق لا يمكن تفسيره إلا بأنه رائحة الأزمان السالفة امتزجت بالواقع هنا. سرنا على الأرض المصنوعة من الأحجار الكبيرة المتراصة إلى جانب بعضها البعض في شكل ممهد، يسمح للسائرين بالترجل عليها، هذه الأحجار لابد أنها قد بنيت في عصور قديمة وبقت على حالها إلى يومنا هذا، قال لي الحاج قاسم:

-«هل أكلت شيئا؟ دعني آخذك إلى مطعم للأكلات الفلسطينية.»

سرت خلفه منقادًا، وتناهت إلى أسماعنا أصوات متداخلة، وبينما اقتربنا ونظر الحاج قاسم قال لي مبتسما:

-«هذه زفة عريس...»

للمرة الأولى أخرج فيها عن صمتي، قلت له حين اقتربنا وصرنا جزءًا من زحام الزفة، وأبصرت بعض الجنود الإسرائيليين يقفون في زاوية ما يراقبون المشهد.

-«ولكنها تبدو كمظاهرة، إنهم يحفون باسم المسجد الأقصى ويهتفون بالتكبيرات...»

قال لي:

-«هكذا أعراسنا يا خالد، نحن لا ننسى المسجد الأقصى لا في فرح ولا في حزن.»

اخترقنا الصفوف المكتظة بالناس، والتففنا حول دائرة الشبان الذين كانوا يحملون العريس على أكتافهم، ذلك الذي راح يهتف باسم المسجد الأقصى والناس تردد وراءه، وابتعدنا فخفتت الأصوات شيئا فشيئا، حتى وصلنا إلى المطعم الصغير الذي يقع في زاوية أحد الأزقة، أجلسني الحاج قاسم ونادى على العامل في المطعم، طلب لي الحاج قاسم أنواع أكلات فلسطينية، وقال لي:

-«ستعجبك إن شاء الله...»

رحنا نتحدث عن مصر وأحوالها في حديث دافئ، أحسست منه أن الحاج قاسم يحب مصر والمصريين كثيرًا، جلسنا بعد أن فرغنا من الطعام لنشرب الشاي في مقهى على بعد خطوات من المطعم، وقررت أن أفاتح الحاج قاسم في الموضوع بشكل مباشر، ودون إعطائه أي معلومات، قلت له في قليل من التحفظ:

-«أنت من عائلة التعامرة، هل تعرف رجلا إسمه مجتبى؟»

تغيرت ملامح قاسم واكتست بريبة حاول أن يخفيها بقدر ما استطاع، قال لي:

-«ومن أين تعرف الشيخ مجتبى؟»

أجبت في سرعة ودون تفكير:

-«كان صديقا لأبي.»

أراد الحاج قاسم أن يعلم المزيد، ولكني أخبرته أني فقط أريد أن ألتقي به، وأنه سيعلم القصة كاملة حين نراه، ولإزالة شكوكه قلت له:

-«فقط أخبر الشيخ مجتبى أني ابن الأستاذ كمال الإكيابي المصري وعد إليّ بخبر منه، هو يعرف أبي وسيود أن يلتقي بي.»

أخذ الحاج قاسم رقم هاتفي، قبل أن يودعني ويتركني أمام الفندق الصغير في القدس، قال لي وهو يذهب:

-«سأرد لك خبرًا في الصباح.»

صعدت إلى غرفتي وأنا غير مصدق أني قد اقتربت بهذا القدر وبهذه السهولة من مقابلة مجتبى، أحسست بشيء من القلق، فالأمور لا تأتي بهذه السهولة في الحياة، هل كانت تلك صدفة مرتبة من الأقدار؟ أم أن عائلة التعامرة قد انتظروا أبي لأعوام طويلة، فراحوا يبحثون بين كل مصري قادم إلى القدس؟ لا أدري، ولكن في تلك الليلة لم تغمض لي عين، كان لقاء مجتبى بالنسبة لي هو اتصال آخر بأبي وأيام شبابه الأولى وما حوته من أسرار، كان مجتبى يمثل لي قطعة من عمر أبي وأنا قد افتقدت أبي كثيرًا وأريد أن أراه في وجه كل من رآه يوما ما. أما عن السر الذي سعى وراءه أبي، فقد وقع ذلك في المرتبة الثانية. الحقيقة أني تركت نفسي لتيار والدي يحملني حيث قدر لي أن أذهب، وكانت تلك المرة الأولى التي أسبح فيها في بحر الحياة دون تخطيط مسبق لأي شيء...

maktabbah.blogspot.com

انتظرت في الصباح الباكر في ردهة الاستقبال الصغيرة في الفندق، لا أعلم لماذا كنت أفعل ذلك، فقد كنت أنتظر اتصالًا هاتفيا، لماذا لا أنتظره في غرفتي، لم يقل الحاج قاسم أنه آتٍ، فلماذا أنتظر في بهو الفندق؟ غلب عليّ القلق واضطربت أفكاري ولم أعدَ أستطيع أن أفكر بشكل صحيح، قاربت الساعة على الثامنة صباحا حيين رن جرس هاتفي فرردت في لهفة، وكان صوت الحاج قاسم على الجانب الآخر، قال لي:

-«صباح الخير، إنت هلا وين...؟»

قلت له:

-«في الفندق..»

-«دقيقة باكون قدامك...»

وما إن أغلقت الخط، ظهر أمامي الحاج قاسم، دعوته للجلوس فقال لي:

-«سنخرج إلى الخارج، فطرت ولا بعد؟»

قلت له إني شربت قهوتي فقط، سار بي قاسم وتلفتت عيناه خلسة يمينًا ويسارًا قبل أن يتوقف عند زاوية أحد الشوارع وقال لي:

-«سآخذك فجر الغد إلى الشيخ مجتبى، ولكن...»

-«ولكن ماذا؟»

قلت له وأنا أخشى أن يكون قد تراجع في الأمر:

-«ولكن لن نستطيع أن نذهب من الحدود، لقد أصدروا لتوهم قرارا بمنع الأجانب من

الدخول إلى الضفة الغربية إلا بتأشيرة وأنت تأشيرتك للقدس، أليس كذلك؟»

أومأت له بالإيجاب، واصل كلامه قائلا بصوت خفيض:

-«سنعبر الصحراء...»

قلت له وقد انتابني الخوف:

-«أليس ذلك خطرا؟»

-«إيه خطر، لكن نحنا البدو بنعرف الصحرا منيح، باخدك وبرجعك بأمان لا تخاف.»

أخذني قاسم إلى مطعم به ثلاث طاولات، وابتاع لي إفطارا، حملنا كيس الطعام وسرنا مرة أخرى نحو الفندق، وفي منتصف الطريق أمام أحد المحلات توقف وقال لي:

-«بنفترق هون وبكرة الفجر بلقاك عند نفس المحل.»

-أشار إلى المحل، شد على يدي، وتركني بعد أن طمأنني بنظراته الدافئة.

كنت على وشك أن أدخل إلى الضفة الغربية عبر الصحراء وبشكل غير قانوني، أليس هذا بجنون؟ ماذا لو انكشف الأمر ووقعت سجينا أو أسيرا؟ لم أفكر كثيرا لأن النوم غلبني حين عدت إلى الفندق، ورأيت في نومي أحلامًا متداخلة غير مفهومة، رأيت المخطوطة ومخطوطات أخرى تحملها الناقة سميرة على ظهرها وتنخ أمامي، فآخذ المخطوطات وتختفي الناقة وأصحو أنا من نومي مفزوعا أتصبب عرقا، على صوت آذان الفجر ينطلق من مآذن القدس الشريف.

خرجت من الفراش وتوضأت لصلاة الفجر، وبعد أن صليت ارتديت ملابسي وحملت حقيبة الظهر الوحيدة التي جئت بها إلى فلسطين، كانت نسمات الفجر لطيفة بالخارج، سرت تجاه المحل مكان اللقاء مع الشيخ قاسم وتلفت يمنة ويسرة بتلقائية كما فعل الحاج قاسم بالأمس، لأتأكد أن لا أحدًا يتعقبني، قلت لنفسي أن هذا وهم، من أنا حتى يتعقبني أحد في هذا البلد؟ ثم رددت على نفسي فقلت:

-«أنت أجنبي، خطواتك محسوبة عليك.»

فسخرت من نفسي متمتما لنفسي قائلا:

-«عربي في بلد عرب صار أجنبيا!»

من بعيد رأيت الحاج قاسم وقد وقف إلى جانب سيارة ذات دفع رباعي، لم أكن أعلم أنها سيارته إلا حين وصلت إليه وحييته، قال لي:

-«سنركب هذه السيارة إلى مكان النزول.»

كان بالسيارة سائق ركب إلى جانبه الحاج قاسم ،وركبت أنا في الخلف، انطلقت السيارة عبر شوارع مدينة القدس حتى بلغت أطراف المدينة، وانحرف السائق يمينا فلاحت رمال الصحراء الممتدة امتداد مدى البصر، توغلنا قليلًا حتى لم يعد الطريق ممهدًا وصرنا في منتصف الصحراء تماما، توقفت السيارة ونزل الحاج قاسم وأشار إليّ بالنزول، ثم استدار السائق بالسيارة وعاد من حيث أتى وتركنا في الخلاء. للحظة، أحسست بشيء من التخبط والضياع، أتى صوت الحاج قاسم من ورائي قائلا لي:

-«سنسير لعدة أميال، ثم يجدنا الرجال من البدو فنركب حتى نصل إلى خيام التعامرة، هيا بنا...»

سرت وراءه، تنفست هواء الصحراء الجرداء ورحت أهدئ من روع نفسي، ها أنا ذا أخوض مغامرة كبيرة، لا أدري عواقبها ولا المنتظر منها، ولكني على أي حال، مشيت...

مُجتبى الراعي..

صحراء الضفة الغربية...

سرت طويلًا في صحراء لا يبدو أن رمالها تنقطع إلى واحة خضراء أو نقطة ظل، تظللت بظل قاسم وتظلل بظلي، نسير إلى مُجتبى الذي اجتبتني الأيام الثقال للبحث عنه، فررت طيلة عمري من التاريخ إلى العلم، فما الذي فعله أبي بالتاريخ إلا الدوران في دوائر مغلقة لا تؤدي إلى شيء، ولم يتوصل إلى شيء ورحل، تاركا لي عبء الكشف عن سر التاريخ، وها أنا ذا أفر من العلم إلى أكثر شيء كرهته التاريخ، مادة رسبت فيها مرارًا وتكرارًا في سنوات عمري الأولى، رسبت فيه لأن أبي أراد أن أرسب، أو هكذا ظننت ففعلت ما أراد لي.. ألم يلحظ أبي ذلك؟ ألم ير أنه لا بذور في الابن من الأب؟ لماذا لم يترك هذه الجذور لتمتد ويصير الابن تماما كأبيه؟ هذه الصحراء القاسية بلا دروب آمنة تحملني إلى وجهة قصدها أبي ولم يبلغها... تحملني إلى مجتبى وأحجية لا أدري بما ينفعني اكتشافها.

طلب مني الحاج قاسم أن نقتصد في الحديث كي نوفر جهدنا للطريق، تذكرت ما كان من أمر أبي والناقة سميرة وكأني أعيش أياما مشابهة لتلك التي عاشها في بداية شبابه، إلا أني لم أعد شابا، ها أنا ذا وأنا أقترب من الستين من العمر أقترب أيضا من ملامسة ذاتي الحقيقية، تلك التي أرادت أن تهيم في صحاري الحياة وألّا تتقيد بشيء، تلك التي أرادت أن تكتشف ولا تكبلها حدود العلم المكتوب في الكتب، فهل تأخرت كثيرا؟ لا شيء في الحياة يأتي متأخرا أو مبكرا، كل شيء يحدث في وقته المحدد له سلفا، علمت وأنا أسير في هذه

الصحراء أنه ما كان بإمكانى أن أغيّر من خارطة السير التي رسمت لي، فماذا تفعل إرادة العبد أمام إرادة الرب؟ لا شيء، بل الحقيقة أنه لا إرادة لإنسان ما لم يرد الله، نحن فقط ظل ووجود واهم...

عدلت من وضع الشال القطني الأبيض الذي وضعته على رأسي فوق القبعة الخوص التي اشتريتها من السوق بالأمس، بدوت كرجل غربي في ملابسي تلك، وتصبب العرق من وجهي الأبيض الذي ورثته من أمي، فاطمة أو فريدا، تذكرت ذلك فاسترحت قليلًا قلت لنفسي أنه لو وقعت في أزمة سأقول لهم إني من هذا البلد وأن أمي يهودية، ضحكت لسذاجتي ومحاولتي للتشبث بخيط رفيع من النجاة، بدا لي على مدى البصر رجلان على ظهر الأحصنة، ظننت أنه سراب، قلت للحاج قاسم مشيرا ناحيتهما:

-«هل هؤلاء هم الرجال القادمون إلينا؟»

أومأ لي الحاج قاسم بالإيجاب فشعرت بالارتياح، اقترب الرجلان منا وتبيّن حين فعلا أنهما يجرّان حصانين آخرين، حيا قاسم الرجال وركبنا على ظهر الأحصنة، التي طارت بنا في غمار الصحراء الواسعة لعدة أميال، حتى لاحت واحة خضراء في الأفق.. أحسست للحظة أني من فوارس العصور القديمة، وتدفقت دماء الفخر إلى رأسي، أحسست بسعادة لم أحس بها من قبل...

هدأ الرجال من سرعتهم، وعلى مرمى البصر لاحت مجموعة من الخيام، في وسطها عريشة كبيرة، ملحق بيها بيت صنع من جذوع وجريد النخل.. توقفنا عند هذه النقطة، ونزل الرجال والحاج قاسم من على الأحصنة ونزلت أنا أيضا وسرت معهم، حتى وصلنا إلى العريشة التي كانت خالية من الناس. طلب مني الحاج قاسم أن أنتظر هنا، ودخل البيت وخرج إليّ بعد عدة دقائق قائلا لي:

-«تفضل يا أستاذ خالد.»

أشار بيده إلى البيت، فنهضت وراءه وسمعت صوت نبضات قلبي بينما قطعت الخطوات القليلة إلى الشيخ مجتبى، الذي جلس في صدر البيت على سجادة بدوية عديدة الألوان، مهيب الطلعة عريض الأكتاف لم يؤثر الشيب على هيبته وقوة بنيته، وأضاف إليه بياض لحيته الكثيف المزيد من الوقار. نظر إليّ الشيخ مجتبى بوجهه السمح ولاحت ابتسامة تملؤها الرحمة والحب على وجهه، قال لي:

-«أهلا بالغالي ابن الغالي.»

أشار لي بالجلوس أمامه فجلست، وقد جعلت مني هذه الجلسة غلامًا صغيرًا لا يفقه شيئا،

قال لي الشيخ مجتبى:

-«لقد قطعت طريقًا طويلًا يا ولدي، لماذا تكبدت كل هذا العناء؟»

قلت له في تردد:

-«أأصدقك القول؟ أنا نفسي لا أعلم لماذا قطعت هذا الطريق.»

شردت لعدة لحظات وخرجت من صدري تنهيدة عميقة، واصلت قائلا لمجتبى وهو يحسن الاستماع:

-«لقد كتب أبي عنك في مذكراته، بحث عنك كثيرًا وذهب إلى ربه دون أن يجدك، لقد جعل مني أبي رجلًا لا يهتم بما اهتم به هو، لكن حين مات أحسست أني وأبي صرنا شيئا واحدًا ودفعت إلى عندك دفعا...»

ابتسم الشيخ مجتبى وقال:

-«رحمة الله على أبيك، ومتى لم نكن واحدًا نحن وأباؤنا، إنهم يتركون فينا بذورهم وآمالهم وأحلامهم يا بني.»

قلت له:

-«لقد قرأت المخطوطة التي أعطيتها لأبي، قال إن لديك المزيد، لكنه اضطر إلى السفر ولم يستطع العثور عليك بعد ذلك.»

طلب الشيخ مجتبى من قاسم أن يحضر الطعام، وقدم لي هو بنفسه بعضا من الماء البارد، فشربت بينما انصرف قاسم وتركني أنا ومجتبى وحيدين. حدق الشيخ مجتبى في الفراغ لبرهة وكأنه ينظر في الماضي أو المستقبل، قال لي وهو ما زال ينظر إلى الفراغ:

maktabbah.blogspot.com

-«كان هذا منذ أعوام طويلة جدا، لم آت يومها يا بني لأن الأمر تعقد، لقد كنت غلامًا لا أفقه من الحياة شيئا بعد، لم أكن أعلم أن تلك الجرار التي سنجدها ستقلب الأمور رأسًا على عقب، وجدت أنا ومنصور بعضا منها، ولسبب ما اشتمت الذئاب رائحة الفرائس، فرأينا أناس من جنسيات غريبة يذهبون إلى الكهوف.. تراجعت أنا وهو، وقررنا أن نخفي الجرار، فدفناها على بعد عدة أميال من البئر.. لمحني أحدهم، ولم يستطع أن يلحق بي ولم يرنا أحد ونحن ندفن الجرار. ولم يعلم أحد مكانها، إلا أني وجدت الكثيرين يبحثون عني فيما بعد. أتى رجل يعرض على أن يشتري ما معي بمبلغ باهظ، ولسبب ما رفضت، على الرغم أني كنت أبحث في شبابي عن المال إلا أن شيئا فطرًا بداخلي أخبرني أن بيع هذه المخطوطات لم يكن أمرًا صحيحًا. وحين ينسوا مني تعقبوني، وفي ذلك اليوم الذي سافر فيه أبوك لم أستطع أن

أخرج المخطوطات من مخبئها ولا أن أذهب إلى أبيك، تقطعت بعدها السبل بيني وبينه، ورحت أرى المخطوطات الأخرى تُباع وتُشترى، ثم كبرت وكانت الحرب مع الأردن، وأخذت المخطوطات من القدس ومن الضفة الغربية، بعضها أخذها الإسرائيليون والبعض الآخر أخذها الفاتيكان وبعض الرهبان من جنسيات مختلفة، لم تعد أبدًا المخطوطات لمتحف القدس الإسلامي، وبعد ذلك تم إخفاء الكثير منها وتحريف البعض الآخر...»

صمت الشيخ مجتبى وساد سكون قطعته بسؤالي:

-«ولماذا يحرّفون المخطوطات أو يُخفونها؟»

-«لأنهم وجدوا مخطوطات أشعياء، التي قد كتبها كتبة مجهولون من الأسينين، هؤلاء الكتبة حافظوا على ميراث البشرية من التحريف، وكتبوا ما جاء به الأنبياء دون لبس أو تزييف، وكان عاقبة هذا الأمر أنهم حين وجدوا هذه المخطوطات علموا أن الأديان السابقة على الإسلام تتشابه كثيرا مع الإسلام وهو أمر لا يريدونه، لقد أعلنت هذه المخطوطات ببساطة ما أعلن في كتاب الله الكريم «إن الدين عند الله الإسلام...» - لم يكن يمكن أن يخرجوا بهذا الأمر على الملأ ويتركوا الفكر والاختيار لمريديهم.»

نادى الشيخ مجتبى على ليث، الواقف خارج البيت، ونظر إليه نظرة ذات مغزى، فذهب ليث وواصل الشيخ مجتبى:

-«الأمر أكبر مما نرى ونعرف يا بني، ولو أننا سمعنا بقلوبنا ولو أننا نظرنا أكثر فيما نرى ودققنا فيما نسمع، لعلمنا كل النوايا المبيتة والخطط العظيمة التي يُسعى إليها في أيامنا الصعبة تلك.»

دخل ليث وفي يده لفافة من الجلد أعطاها للشيخ مجتبى وانصرف، أمسك الشيخ اللفافة بكلتا يديه وقبّلها ومد يديه وقدمها لي، مددت كلتا يدي وتناولتها، نظرت إليها، كانت كتلك اللفافة التي اخرجتها من خزنة أبي، قال لي الشيخ مجتبى:

-«هذا وعدي لأبيك، الآن قد وفيت به.»

-«ماذا في هذه اللفافة يا شيخ؟»

-«المخطوطة التي انتظرها ابوك طيلة حياته، ولكن لا يمكن أن أخبرك فحواها، سنتناول الطعام ثم تذهب لتستريح وتقرأ على راحتك، ثم نلتقي مرة أخرى ونتحدث يا بني.»

دخلت الحاجة سالمة زوجة الشيخ مجتبى إلى الخيمة، فحيتنا ووضعت طبقًا من الخضرة على الطاولة التي وضعت بيني وبين الشيخ مجتبى، أحضر الرجال باقي الأطباق، مد الشيخ

مجتبى يده وقسم رغيفًا خبزٍ إلى نصفين، أعطاني نصفًا وأبقى لنفسه النصف الآخر. تناولت الطعام في حضرة الشيخ مجتبى الراعي الذي كانوا يلقبونه بالديب، كان وجهه وجه شيخ كريم وعيناه عيني ذئب يقطن في وسط صحراء الحياة القاحلة، لم أكن أعلم أني على وشك أن أتحقق من هذا اللقب، ولم أكن أدري أني دخلت في حضرة شيخ خبأته الأيام وأخفته الأماكن عن الظهور إلا لمن شاء الله أن يظهر له، ويعلم منه شيئا من المستور...

فرغنا من الطعام، وقادني ليث إلى إحدى الخيام القريبة من بيت الشيخ مجتبى، دخلت الخيمة ذات الأثاث البسيط فجلست على المرتبة الإسفنجية التي وضعت على الأرض، تمددت لعدة دقائق، ثم قاومت النعاس وهببت جالسًا فأخرجت المخطوطة من حقيبتي وفتحتها ورحت أقرأ..

مخطوطة أشعياء

نبوءة أحمد

«وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ»

هو ذا عبدي الذي أعضده، مُختاري الذي سرت به نفسي. وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم.(1)

هو ذا عبدي أحمد. مختاري الذي سرت به نفسي. أضع روحي عليه فيعلن الحق للأميين، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته، قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفئ(2)، لا يكل ولا تثبط له همة حتى يرسخ العدل في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته. هذا ما يقوله الله، الرب خالق السموات وباسطها، وناشر الأرض وما يستخرج منها. الواهب أهلها والمنعم بالروح على السائرين عليها. أنا هو الرب قد دعوته بالبر. أمسكت بيده وحافظت عليه وجعلته عهدا للشعب ونزرا للأميين ليفتح عيون العمي ويطلق سراح المأسورين في السجن ويحرر الجالسين في ظلمة الحبس، فيرفع راية الأمم ويصفر لهم من أقصى الأرض فاذا هم بالعجلة يأتون سريعا ليس فيهم رازح ولا عاسر، لا ينعسون ولا ينامون، الذين سهامهم مسنونة وجميع قسيهم ممدودة، حوافر خيلهم تضرب كالصوان وبكراتهم كالزوبعة يزمجرون كالشبل ويهرون ويمسكون الفريسة ويستخلصونها ولا منقذ. يهرون عليهم في ذلك اليوم كهدير البحر...

انظروا إن قدرة الرب ليست قاصرة حتى تعجز أن تخلص، لكن آثامكم أبعدتكم عن إلهكم وخطاياكم حجبت وجهه عنكم فلم يسمع لكم لأن أيديكم تلوثت بالدم وأصابعكم بالإثم، ونطقت شفاهكم بالكذب ولهجت ألسنتكم بالشر، ليس بينكم من يدعو إلى الحق او يحكم بالعدل، تتكلون على الباطل وتتفوهون بالزور، أرجلكم تسعى إلى الشر وتسارع إلى سفك دماء البريء، أفكاركم أفكار ظلم، وفى مسالككم دمار وخراب. لم تعرفوا طريق السلام ولا حق في مسالككم، قد جعلتم دروبكم معوجة كل من سلكها لا يعرف السلام. لذلك ابتعد العدل عنا ولم يدركنا الحق، نرتقب نورا فيحدق بنا الظلام، ونتلمس ضوءا فنسلك العتمة. نتحسس الحائط كالأعمى ونتلمس كالمكفوف، نتعثر في الظهيرة كما لو كنا نسير في عتمة الليل ونكون كالأموات بين المتدفقين بالحياة...

تمردنا وتنكرنا للرب، ارتددنا عن اتباع طرق إلهنا، تفوهنا بالظلم والعصيان افتراء وبكلام زور من القلب. قد ارتد العدل إلى الوراء ووقف الحق بعيدا إذ سقط الإيمان صريعا

والاستقامة لم تستطع الدخول...

هو عبدي الذي لبس البر وارتدى على رأسه خوذة الخلاص والتف بعباءة الغيرة، يجازيهم بمقتضى أعمالهم، يجازي أعداءه ويعاقب خصومه وينزل القصاص بالجزائر، فيخافون من المغرب اسم الله ومن المشرق يخشون مجده، لأنه سيأتي العدو كنهر متدفق فتدفعه ريح الله...(3)

أنا هو الرب وهذا اسمي لا أعطي مجدي لآخر ولا حمدي للمنحوتات، ها هي النبوات السالفة تتحقق وأخرى جديدة أعلن عنها وأنبئ بها قبل أن تحدث...

أنشدوا للرب ترنيمة جديدة، سبحوه من أقاصي الأرض أيها المسافرون في عباب البحر وكل ما فيه ويا سكان الجزائر، لتهتف الصحراء ومدنها، الديار التي يسكنها بنو قيدار، ليتغنّ بفرح أهل سلع وليهتفوا من قمم الجبال وليمجدوا الرب ويذيعوا حمده في الجزائر...

فهنيئا للذين عزتهم بك، وبقلوبهم يتوجهون إليك. عابرين في وادي بكة يجعلونه ينبوعا لأن يومًا واحدًا في ديارك خير من ألف، اخترت الوقوف على العتبة في بيت الله..(4)

---

(1) (سفر إشعياء 42: 1)

(2) (إنجيل متى 12: 20)

(3) أشعياء59

(4) مزمور 184

المُجتبى

أنهيت المخطوطة القصيرة وأحسست أني امتلأت بالألغاز، راحت كل جوارحي، مأمورة بالعقل، تتساءل عن فحوى ومعنى هذه المخطوطة، وما ارتبطت به من المخطوطة السابقة التي قرأتها، لم يغمض لي جفن، أفاقت كل ذرة في جسدي ودب النشاط بي، فقمت وخرجت إلى خارج الخيمة التي أطلت على عريشة الشيخ مجتبى، وكان جالسا وحده في وسط العريشة وقد سقطت عباءة الليل فالتفت بها البرية وساد سكون تام، ارتديت حذائي الذي تركته على باب الخيمة وذهبت إلى الشيخ مجتبى ممسكا بالمخطوطة في يدي، ذلك الذي حين رآني تفحص وجهي ونظر إليّ نظرة العارف بالأمور وأشار إليّ بالجلوس إلى جانبه دون أن ينبس بكلمة.. ساد الصمت والسكون لبرهة من الوقت، لم أعرف من أين أبدأ وانتظرت أن يبدأ هو بالكلام، بعد فترة من الصمت سألني وهو شارد:

-«هل قرأت يا دكتور خالد...؟»

-«نعم ولكن التبست على الأمور...»

سكت الشيخ مرة ثانية وظل شاردا في الأفق ثم خرج عن صمته وبدأ في الكلام:

-«قلت لك لماذا لم آتِ إلى الفندق وأجد أباك في ذلك اليوم، ما حدث بعد ذلك كان غريبًا على فتى في مثل عمري في ذلك الوقت، فحينما أحضرت المخطوطات الخمس ذهبت وحدي، وحين عدت وجدت الصبيان يجلسون في توحُّد، ولما أبصروا معي الجرار قاموا مستائين يوجهون إليّ اللوم أن كيف أذهب وحدي وأتركهم، اجتمع الصبية في البداية على أن ندفن الجرار لعلنا نجد مشتريا لها وقد فعلنا ذلك، ولكننا كنا صغارا لم نكن لنجد مشترين بهذه السهولة.

فى أحد الأيام قال أكبرنا سنا:

-«لنخرج الجرار ونخبر الشيخ بالأمر»

اجتمع الصبية على أن يخبروا كبير التعامرة بالأمر، وحين فعلوا قضى الكبير بأن تعلق المخطوطات على أحد الأعمدة في وسط القبيلة حتى يأتي أحدهم ويشتريها. لحسن الحظ أني كنت قد أخفيت مخطوطتين تحت ثيابي، لم يعلم بهما أحد، لقد اهتموا فقط بما حوته الجرار، أخرجوا منها المخطوطات ووضعوها في حقيبة وعلقوها على عمود الخيمة الرئيسية لعدة أسابيع، حتى أتى واشتراها بائع تحف، ومن يد بائع التحف لأياد كثيرة أخرى انتقلت المخطوطات، حتى اشتراها الإسرائيليون ووضعت في المتحف الإسرائيلي بالقدس. بقيت

معي المخطوطتان الأخريان لم يعرف عنهم أحد شيئا، أما المخطوطة التي كانت مع أبيك فقد قرأها عليّ يوما ما قبل أن يسافر، جلسنا عند العين وراح يقرأ لي وأنا لم أكن أفهم الكثير، ولكن لسبب ما ترسخت تفاصيل هذه المخطوطة والمخطوطات الأخرى في وجداني، حتى كبرت وفهمت الكثير...»

-«وما الذي فهمته؟»

-«في المخطوطة التي بين يديك يا ولدي كتبت نبوءة قدوم الرسول سيدنا ﷺ، وهو ما لم يرد في أي نص آخر في الكتب السماوية الأخرى، المخطوطة التي بين يديك حاول الكثيرون سرقتها بهدف إخفائها أو نسخها كما نسخت المخطوطات الأخرى وطمست فيها الحقائق، لا تصدق كل ما ترى عيناك ولا تصدق ما يخبرونك أنه تاريخ حقيقي، لقد اجتهد الأسينيون -وهم من اليهود الأتقياء- اجتهدوا لقرون طويلة على أن ينقلوا الحقيقة كاملة كما هي وفاء لعهودهم لرأس الكتبة بنيامين أخي النبي يوسف، أتقنوا مهمتهم ظانين أن كلمات الحق ستسود، ولم يعلموا أن الحق سيتم تحريفه ونسخه، وللنسخ يا بني صور عديدة فمنهم من يكتمون النصوص ومن يغيّرون مواضع الكلم ليوافق النص أهواءهم ومنهم من يؤلف نصوصا كاملة....»

قلت له:

-«وهل كانت المخطوطة التي حوت حياة سيدنا إبراهيم هي مجرد قصة تاريخية؟»

-«لا يا ولدي، التاريخ ما هو إلا مرآة الواقع، انظر حولك سترى أن الوضع لم يتغير كثيرًا منذ عهد سيدنا ذلك العهد، ألم تُعد عبادة الأصنام؟»

سألني وانتظر مني الإجابة، قلت:

-«نعم، في بعض البلدان غير المسلمة.»

قال الشيخ في أسى:

-«لقد فكرت بشكل ظاهري وأجبت إجابة سطحية، لقد انتشرت عبادة الأصنام في بلاد المسلمين يا بني، وذلك حين تشكلت الأوثان بداخلنا، والوثن فكرة تطابق هوى الإنسان، فكرة تنمو وتكبر بداخله حتى تتحول إلى صنم يعبد، انظر حولك لترى من يعبد المال ومن يعبد الجاه ومن يعبد الدنيا ومن يعبد رئيسه في العمل وغير ذلك كثيرا، بالطبع هم لا يقولون إننا نعبد غير الله، وهم يقولون لا إله إلا الله ولا يدرون أن لهم آلهة غير الله، لقد اختلفت الأمور منذ ذلك العصر السالف أيام نبي الله إبراهيم، فأصنامهم كانت واضحة وكانوا

يدافعون عنها بشدة، أما الآن فالأصنام خفية تتسلل إلى أنفسنا كأفعى لها سبعة رؤوس، كلما أدركت وقتلت رأسا تتسلل إليك رأس أخرى...»

سكت الشيخ وتنهد ثم واصل كلامه قائلا:

-«انظر الآن إلى ما يدعون إليه من دين يسمونه بالإبراهيمي، أتعلم لماذا نسخت مخطوطات قمران؟ ذلك لأن التشابه بين تعاليم الإسلام والمسيحية والإسلام كانت جلية جدًا، جلاء يؤكد على حقيقة واحدة «إن الدين عند الله الإسلام» وهم، بعد أن أصلُوا في مجتمعاتنا جذور الإلحاد واللا دينية ودعوا إلى احتواء الفسق كما دعا قوم لوط من قبل، هم الآن يريدون أن يؤصلوا لدين واحد، ذلك الدين الذي سيكون ممهدا لحكم المسيح الدجال...»

-«ألم تقل يا شيخ أن نصوص أشعياء أظهرت خطوطا مشتركة بين الأديان؟»

-«احترس يا بني أن تقع في شِباكِ هذه الفكرة، فهناك خط رفيع لا يفهمه الكثيرون، هناك فرق بين الشريعة والشرعة والمنهاج، فالشرعة هي طريقتك في العبادة، فمثلا يمكنك أن تصلي وأنت جالس إن كنت مريضا، أو إذا ذهبت إلى الحج أن توكل أحدا عنك بالرجم، هذه شعيرة أجيز لك فيها الطرق المختلفة، ولكن هل يمكنك أن تصلي الظهر ثلاث ركعات مثلا؟»

أومأت بالنفي، واصل الشيخ كلماته وقد تسارعت ضربات قلبي لما ينزل علي من الفهم:

maktabbah.blogspot.com

-«لقد رفع إبراهيم قواعد البيت ورفع محمد قواعد الشريعة، أحدهما وضع قواعد المبنى والآخر أتمم قواعد المعنى...

الشريعة هي الدين وأركانه الثابتة التي لا تتزعزع، ولا يمكن دمجها وتذويبها في سبيكة دين واحد براق يذهلون به العقول...»

لاذ الشيخ بالصمت بعد هذه الكلمات وشرد طويلا ثم تحدث فجأة:

«آخر ما سأقول لك يا ولدي، وأنت أستاذ في الجامعة، وهذه رسالة عليك أن توصلها كما هي.. أيها القريبون والدارسون للمخطوطات والوثائق اعرضوها على القرآن وسنة رسول الله قبل أن تتخذوها شريعة وشرعة ومنهاجا...واعلم أنه من ينسخ في النقل ويغير الحقائق يعاقبه الله بالمسخ ومن يقل «كلٌ من عند الله» يمسح الله ذنوبه ويجتبيه فيصبح مجتبى...»

جلس الشيخ في حال غريب، أخرجته منه الحاجة سالمة حين أحضرت أطباق العشاء، ابتسم الشيخ مرحبا بي وصار رجلا آخر يستضيف ضيفه ويدعوه إلى الطعام، وضع الخبز

أمامي وقرب الأطباق مني، ورحنا نأكل سويا كأننا لم نستغرق منذ برهة في حوار عميق أحسست أنه أهم الشيخ وقلب عليه المواجع...

بعد أن فرغنا من الطعام وأشعل ليث الركوة ووضع عليها إبريق الشاي، قلت للشيخ مجتبى:

-«ماذا عن المخطوطة الخامسة يا شيخ مجتبى؟»

ابتسم الشيخ ابتسامة عريضة وقال لي:

-«هى المخطوطة التي تخبرنا عن منبع النور، ولكنها ليست معي...»

نظرت إليه وقد انتابني القلق:

-«أين هي يا شيخ؟»

-«خبأتها في مكان بعيد، الحقيقة أني خبأتها في مكانها الصحيح، لقد حاولوا سرقة ما معي مرارا وتكرار، وهذه المخطوطة بالتحديد، إلا أني نجحت في وضعها في مكانها الصحيح.»

-«أين خبأتها؟»

مال الشيخ على أذني وهمس قائلا:

-«في مقام بنيامين، بمصر، نبع النور...»

نزلت عليّ صاعقة من الذهول واكتسى وجهي بالدهشة واكتظ رأسي بالصور والأحداث، الآن علمت لماذا قاد القدر أبي إلى الدرب الأحمر، وقادني أنا أيضا إلى هناك معه!

قلت للشيخ بعد أن هدأ روعي:

-«كيف أجدها؟»

«لقد وضعت حارسا عليها، عم إبراهيم، لديه عربة فول تقف أمام المقام هناك...»

قلت في ذهول:

-«عم إبراهيم، أنا أعرفه، ولكن لم يخبرني شيئا، إن كنت وصلت إليه فقد كان بإمكانك الوصول إلى أبي، فقد كان يعرفه عم إبراهيم...»

-«إنها أقدار يا ولدي، قدر لي أن أرى والدك في شبابه، وأرى أيضا ابنه في شبابه...»

-«لم أعد شابا يا شيخ مجتبى.»

ضحكنا سويا، وأحسست للحظة أن همًا ما طالني فوجمت للحظة، ولاحظ الشيخ مجتبى فقال لي:

-«بم تفكر الآن؟»

ترددت قليلًا في أن أخبره، ولكني كنت أحتاج أن أتكلم إلى أحد، قلت له:

-«لقد علمت شيئا عن أمي لم أعلمه طيلة حياتي...»

سألني باهتمام:

-«ما الذي علمته؟»

-«أنها كانت يهودية، ولكنها نطقت بالشهادة حين فاضت روحها وهي تلدني.»

ابتسم الشيخ مجتبى وبدأ في تلاوة عذبة لآية من آيات القرآن الكريم:

«وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ»

أنهى الشيخ تلاوة الآية وقال لي:

-«إن من أهل الكتاب يا بني من هم مؤمنون ولا يرضون بالظلم والجور، فلا تمزج بين المؤمن والكافر، ولا تخجل من أمك وملتها، لقد كان أبوك رجلًا عالمًا، لم يكن ليتزوج إلا امرأة مؤمنة.»

سأقول لك شيئا آخر تتذكره حين تجد المخطوطة الأخيرة:

-«البر في طريقه للقضاء على الفاجر، والفاجر في طريقه للقضاء على البر، وسينصر الله الدين يا ولدي، وإلى أن يتم الاصطدام الكبير، اصطدام الظلام بكتلة النور الهائلة، كل ما علينا أن نفعله هو عبادة الانتظار...»

أنهى الشيخ كلماته ونهض، قال لي:

-«سأرسل إليك هذه المخطوطة، لا يمكنك الخروج بها من القدس، أرسلها لك بمعرفتي...»

أخرج الشيخ من جيب جلبابه هاتفا ذا أزرار وقال لي:

-«اكتب رقم هاتفك هنا...»

كتبت له رقم الهاتف، فسجله وقال لي وهو يهم بالدخول إلى البيت:

-«سيصطحبك الحاج قاسم إلى أورشليم في الصباح...»

نظرت إليه باستغراب وقلت له:

-«اسمها القدس يا شيخ...»

-«ستظل أورشليم حتى يأتي من هو على قدم عمر بن الخطاب أو صلاح الدين الأيوبي ويعيدها لسابق اسمها يا بني...»

نظر إليّ نظرة ذات مغزى وانصرف....

وقفت مشدوها لا أحرك ساكنا، تداخلت الأفكار في رأسي، أردت البقاء مع الشيخ مجتبى إلى آخر يوم في عمري، في هذه البقعة الساكنة والآمنة من تحوُّل الأزمان، ومن ناحية أخرى أردت أن أعود إلى مصر سريعا لأحضر المخطوطة الأخيرة...

maktabbah.blogspot.com

ودعني الشيخ مجتبى في الصباح، وركبنا عائدين إلى القدس، وقبل أن أستقل الحافلة العائدة إلى الطرف الآخر من جسر الملك حسين ابتعت لرولا وزياد اثنين من كور الثلج الزجاجية، بداخلهما مجسم صغير للحرم القدسي الشريف، وانطلقت في طريق عودتي إلى بلدي مصر أو «منبع النور» كما أسماها الشيخ مجتبى...

مقام بنيامين

فى شوارع الدرب الأحمر سرت، حاملًا على ظهري حقيبة الظهر التي رافقتني إلى فلسطين، وفي رأسي حملت مئات الأسئلة توازيها إجابات أخذتها من الشيخ مجتبى، ولكني لم أستطع أن أوفق ما بين كل سؤال وإجابته وعلاقة كل هذه الأمور بي، أنا مجرد أستاذ جامعي، فلماذا تكالبت عليّ كل هذه الألغاز؟ لم أكن أنتوي إلا فعل شيء واحد فقط، هو الأمر الذي سيطر عليّ خلال رحلة عودتي من القدس، كان لابد عليّ أن أجد المخطوطة الأخيرة. دخلت إلى البيت وفتحت باب الشقة، فباغتني وجود سليمة! حين رأتني ابتسمت قائلة:

-«حمدلله على السلامة يا أستاذ خالد...»

للحظة أحسست أني أريد أن ألقي نفسي بين ذراعيها وأرتاح من وعثاء الطريق، سليمة أصبحت نسمة ربيع تعلم بعدم دوامها ولكن تحمد الله على وجودها، قلبي يخفق في صدري لرؤيتها وأضبط نفسي بهذا الخفقان فأغض عنه البصر، دنوت منها قائلا في صوت ملؤه الإنهاك والتعب:

-«لقد كان الطريق طويلا يا سليمة...»

-«لا عليك، المهم أنك مشيته.»

-«ما زالت هناك بعض الخطوات المتبقية لإتمام الأمر..»

أجلستني سليمة قائلة:

-«سأحضر لك الإفطار ونتكلم.»

حكيت لها عن كل ما صار منذ أن بدأت في قراءة المخطوطة، ودفتر أبي، وعن تفاصيل الرحلة إلى فلسطين، قالت لي:

-«لقد انتظر أبوك مجتبى عمرًا طويلًا، وأتممت أنت الأمر.»

-«أتمنى أن يكون راضيا عني الآن.»

-«لقد رضي عنك يا خالد طيلة الوقت، فقط تمنى أن ترضى أنت عن نفسك، فهل رضيت؟»

-«ليس بعد يا سليمة، عليّ الآن أن أذهب لعم إبراهيم، هو سيحل هذه العقدة.»

طلبت مني سليمة أن أرتاح قليلًا، قلت لها:

-«راحتي في اكتمال الأشياء، سأمر على الشيخ عبد الباري ليذهب معي أيضا.»

قالت لي وأنا أفتح باب البيت وأهم بالخروج:

-«لا شيء يبلغ تمام الكمال يا خالد.»

تخلت سليمة عن الألقاب معي، ونطق لسانها بالحكمة على الرغم من صغر سنها عني، ابتسمت لها وانطلقت في طريقي...

ذهبت إلى الشيخ عبد الباري في المسجد، كنت أعلم أني سأجده هناك، يأتي قبل صلاة الظهر بساعة ويجلس ليقرأ القرآن ويتحدث مع رواد المسجد في مسائلهم المختلفة، وجدته في صدر المسجد متربعًا يتحدث إلى رجل، لمحني بطرف عينه فذهبت وجلست في زاوية ما أنتظره حتى يفرغ من حديثه، نهض واقترب مني بعد أن قام الرجل، قال لي بوجه بشوش:

-«لقد عاد البطل بالسلامة.»

-«عاد البطل وبقيت الروح في القدس يا شيخي.»

-«أعد روحك إلى هنا يا خالد، الأمر كله هنا.»

لم أفهم ما قاله الشيخ عبد الباري ولم أتوقف عنده كثيرًا، فقد ألح علي أمر المخطوطة الأخيرة ووجودها في مقام بنيامين، أخبرته بالأمر كله، قام معي الشيخ وقال:

-«هيا بنا لنذهب إلى عم إبراهيم...»

سرنا حتى بلغنا حارة حيضان الموصلي، كان عم إبراهيم جالسًا على كرسي بجانب العربة، تناول الجميع إفطارهم وكان الوقت هادئًا ولا يوجد الكثير من الزبائن، رحب بنا بحفاوة ما إن رآنا، وأجلسنا إلى جانبه، قلت له عما صار وأخبرته عن الشيخ مجتبى، تنهد تنهيدة طويلة وقال: «لا أعلم لماذا أوكلني الشيخ مجتبى بهذا الأمر، لم أره ولم يرني من قبل، في يوم من أيام الشتاء البارد أتاني شاب فلسطيني متوسط العمر وأخبرني أن شيخه يعلم أني حاربت كثيرا من أجل فتح هذا المقام، ويعلم أني لم أبرح مكاني أمام هذا المسجد منذ سنوات طويلة، قال لي:»لقد ائتمنك الشيخ مجتبى على هذه اللفافة وهي يجب أن تكون من مقتنيات هذا المسجد وأنت الحارس عليها، وسيأتي يومًا مَن تسلمها له. ناولني إياها وذهب، في البداية لم أعلم أين سأخبئ الأمانة، ولكني وجدت بعد إغلاق المقام أن أأمن مكان هو في المقام، ولم أعلم لمن سأسلم الأمانة حتى اليوم، وها أنا ذا قد علمت. لقد طردت هذه اللفافة النوم من عيني لسنوات، وحين كنت أغفو تراودني الرؤى بأن أحدًا يحاول سرقتها،

لقد صارت الغفلة حرام عليّ منذ ذلك اليوم....»

قلت له:

-«ماذا سنفعل الآن؟ كيف سآخذ المخطوطة؟»

-«ستأتي قبل الفجر بساعتين، وسأدخلك إلى المقام، لن أدخل معك ولكني سأخبرك أين تبحث.»

-«ولماذا لن تدخل معي.»

-«لأني لست صاحب الأمانة يا بني، عليك أن تعثر عليها بنفسك، هكذا قال الشيخ مجتبى.»

-«وكيف ستفتح المقام؟ هل معك مفتاح؟»

-«هذا المسجد مغلق بقفل بخمسة جنيهات، المسألة ليست في القفل ولكن في أمر إغلاقه، ما ستفعله الليلة خطير يا خالد...»

-«توكلنا على الله.»

قلت ذلك لعم إبراهيم ونهضت من مكاني وسرت عائدا مع الشيخ عبد الباري، لم يقاوم الشيخ ولم ينصحني ألّا أدخل إلى المقام، وكان صامتا معظم الوقت إلا من بضعة كلمات قال لي فيها إنه فخور بما وصلت إليه، سألته:

-«وما هو الذي وصلت إليه الذي جعلك تفخر بي؟»

-«لقد انبثقت من غفلتك وسباتك كما تخرج الفراشة من الشرنقة، أعلم أنك عانيت كثيرا طيلة حياتك، تربيت بلا أم، حدث شقاق بينك وبين أبيك دون سبب معلوم، سرت في طريق لم تشأ أن تسير فيه، كان بإمكانك أن تبغض أباك وكل ما ومن حوله ولكنك واجهت كل شيء بقلب أراد أن يعود لسابق عهده وأيام طفولته، ولذلك ستجد ضالتك.»

جعلت كلمات الشيخ عبد الباري الروح تدب في أوصالي، ودعني عند البيت على أن يلقاني في المساء، عدت إلى البيت وطلبت من سليمة أن تذهب وربما أكون موجودا غدًا أو غير موجود، قلت لها أن تنتظر مني خبرًا، أويت إلى غرفة أبي ونمت في فراشه نومًا عميقًا حتى أيقظتني أصوات الأذان المتداخلة القادمة من مساجد عديدة في المنطقة...

استيقظت وشربت قهوتي، ولم أبرح البيت حتى الساعة الثانية عشر ليلًا، حين دق الجرس وظهر الشيخ عبد الباري على الباب، كنت في كامل استعدادي للخروج، فخرجنا

وتوجهنا إلى عم إبراهيم الذي لم يذق طعم النوم منذ سنوات ووقف حارسا على مقام بنيامين، أجلسنا عم إبراهيم ومال فالتقط شيئا من أسفل العربة، وأتى إلي بفأس وشاكوش وأجنة، نظرت إليه باستغراب، فقال لي:

-«ستحفر عند رأس الضريح قليلًا، المكان بالتحديد عند بلاطة سوداء شكلها مختلف عن باقي بلاط المقام...»

-«وكيف سأدخل؟»

تلفت حوله يمنة ويسرة، كانت المارة في الحارة قد خفتوا كثيرا وأوى الكثيرون إلى بيوتهم، قال لي:

-«اجذب القفل إلى أسفل سيفتح معك وادخل وأغلق الباب وراءك.»

أعطاني عم إبراهيم بطارية لأشعل بها الضوء بالداخل، وأشار لي بالتقدم إلى المقام.. قمت وقد تسارعت دقات قلبي وأحسست بالخوف ولكن قلت لنفسي إنه لم يتبق الكثير، تلك هي نهاية المطاف، سيتم الأمر سريعا أو عليه أن يتم سريعا وألا يراني أحد.. اقتربت من البوابة الخشبية الكبيرة ووقفت أمامها فجذبت القفل فانفتح، دفعت الباب الثقيل بيدي فبدأ في الانفتاح وسمع صريره ففزعت، وجعلني ذلك أدلف سريعا إلى المقام وأغلق الباب ورائي.

maktabbah.blogspot.com

كان المكان غارقا في الظلمة، فتعثرت في شيء ما، فأشعلت البطارية التي أعطاني إياها عم إبراهيم، الذي انتظر بالخارج هو والشيخ عبد الباري وأحسست أن أبصارهم تتابعني حتى بعد أن صرت بالداخل. أشعلت البطارية وجلت بها في أنحاء المسجد فلاح لي الضريح، سرت نحوه وتفحصت الأرض فرأيت البلاطة السوداء، جثوت على ركبتيّ وبدأت في النقر عليها بالأجنة والشاكوش حتى تخلخلت البلاطة من مكانها، فنزعتها وبدأت في الحفر حتى اصطدم الفأس بشيء ما، فتوقفت عن الحفر وبدأت في النبش بيديّ الاثنتين، ولكني سمعت صوت امرأة قادم من أعلى تقول:

-«مين هنا؟ مين جوة؟»

انتابني الفزع وأطفأت البطارية، كان عليّ أن أصل إلى المخطوطة سريعا وأن أخرج من المقام بأسرع ما يمكن، واصلت النبش بيدي وقد تصبب العرق من جبيني فأصبح التراب تحت يدي نديا، أحسست بكيس بلاستيكي تحت يدي فبدأت في جذبه حتى خرج كاملا من التراب، احتضنته إلى صدري وهممت بالخروج، ولكن سبق خروجي صوت سارينة عربة الشرطة.. أخفيت المخطوطة في جيبي وتسمرت مكاني واستسلمت لأقداري..

اندفعت قوة من الرجال إلى داخل المقام، ومن ورائهم عم إبراهيم والشيخ عبد الباري، أمسكوا بي وأخرجوني إلى الخارج، وعند خروجي جثوت على ركبتي وكأني أتألم، كان يجب أن أعطي المخطوطة للشيخ عبد الباري، أسقطتها من جيبي حين نزلت على ركبتي، لاحظ الشيخ وعم إبراهيم سقوطها من جيبي في صمت ولم يلحظ الرجال. تراص أهل الحارة على الجانبين بينما أصعدني الرجال إلى عربة الشرطة....

ها أنا ذا أستقر في مصير الحبس الذي حذروا منه أبي يوما ما!

المخطوطة الأخيرة

الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ

الخروج إلى مصر

فى فجر يوم غائم، خرج بنيامين ابن يعقوب ابن إسحق ابن إبراهيم من حبرون مع إخوته قاصدين أرض مصر، لقد طلب عزيز مصر أخوهم حتى يمدهم بالمزيد من المعونة والمؤونة في سنوات القحط التي أصابت الأرض، كانت مصر مليئة بالخيرات في سنوات عجاف أصابت المدن أجمعها، إلا أن يوسف بعد أن فسر رؤية فرعون مصر وأشار عليه بان يزرع في سنوات الخصب وأن يبني الخزائن ويجمع فيها الطعام فإذا جاءت السنوات العجاف وجد الناس ما يأكلون، جعل الملك يوسف على خزائن الأرض وأولاه حكم مصر فلما بدأت السنوات السمان وأعطت الأرض غلة كثيرة وأتى الفيضان غزيرًا أمر يوسف ببناء المخازن في كل أنحاء مصر، وأمر بوضع أغلب المحصول في سنبله إلا القليل لإطعام الناس، ولما مضت سنوات الرخاء وبدأت سنون العجاف وانخفض منسوب الفيضان وقل المطر واجتاح الجفاف أرض مصر وطال الشام وأرض كنعان، سمع الناس بأن هناك وزيرا قد تنبأ بالقحط واحتاط له باختزان الحبوب، راح الناس يتوافدون من البلاد على أرض مصر وكان منهم إخوة يوسف الذي عرفهم ولم يعرفوه، وطلب منهم يوسف أن يحضروا أخا لهم من أبيهم وإلا لا يعودون ليكتالوا منه مرة أخرى، كان الأمر شاقا على يعقوب الذي فقد بصره وأصابه الحزن لفقدان يوسف والآن هم يطلبون بنيامين وإلا منع منهم الكيل، قال لهم يعقوب:

-«أعدمتموني الأولاد، يوسف مفقود والآن تريدون أن تأخذوا بنيامين...»

قال يهوذا لأبيه «أرسله معنا يا أبت وأنا أضمن عودته، أقتل ابني إن لم أجئ به إليك، سلمه بيدي وأنا أرده إليك...»

«الله على ما نقول وكيل...» قال لهم يعقوب في استسلام وجلس في غمامة عظيمة من الصبر والاحتساب على فراق ولديه الأعز إلى قلبه، بعد أن فارقت أمهم راحيل الحياة وهم صغار، لكم أحب راحيل وفارقت هي باكرا، تاركة له يوسف وابن اليمن، والآن قد رحلا ولا يدري متى يأتي الفرج ،ولكنه كان يعلم من الله ما لا يعلمون...

عبر أبناء يعقوب سيناء وساروا حتى بلغوا شرق الدلتا ثم وقفوا عند أبواب مصر وتفرقوا ليدخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم، ولما دخلوا على يوسف قالوا له:

«هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، وقد جئناك به...»

قال له يهوذا «إن أبانا يبلغك السلام، ويقول لك إنه يصلي من أجلك ويدعو لك ويشكر صنيعك معنا.»

أحس يوسف بالدمع يكاد يتدفق إلى عينه عند ذكر أبيه، ولكنه تماسك وقال لهم في صوت ثابت لا يهتز:

قال لهم يوسف «أحسنتم وستجدون أجر ذلك عندي.»

نظر يوسف إلى بنيامين في اشتياق، كأن قطعة من قلبه كانت ناقصة فاكتملت برؤية بنيامين، الأخ الصغير الهادئ ذي الوجه الملائكي، لم يبد شوقه لأحد وأسر الأمر في نفسه، أكرم إخوته واستضافهم ودعاه إلى الطعام فأجلس كل اثنين منهم إلى مائدة، فبقي بنيامين وحيدا فبكى وقال:

«لو كان أخي يوسف حيا لأجلسني معه...»

قال لهم يوسف «بقي أخوكم وحده...»

قالوا له «كان له أخ فهلك.»

«إذا فأنا أجلسه معي.»

أخذ يوسف بنيامين وأجلسه معه، بينما نظر الإخوة بنظرات تملؤها الغيرة إلى بنيامين الذي جلس على مائدة العزيز، وبالغ العزيز في إكرامه فوضع أمامه خمسة أضعاف من الطعام مما كان أمامهم، أحس بنيامين بإحساس عجيب تجاه يوسف لم يستطع تفسيره، قال له يوسف:

«أتحب أن أكون أنا أخاك بدلا من أخيك الذي هلك؟»

قال له بنيامين في محبة «من يجد أخا مثلك ايها العزيزا»

نظر إليه يوسف في محبة خالصة، قال:

«إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»

طلب منه يوسف أن يخفي الأمر ولا يخبر إخوته، أوى الإخوة إلى حجراتهم في بيت العزيز وفي الصباح أمر يوسف بتجهيز الكيل لهم وهمس في أذن كبير العمال فاقترب من متاع بنيامين ودس فيه الصواع الذي كان يشرب منه يوسف. انصرف الإخوة وخرجوا من المدينة، وما إن خرجوا حتى وجدوا فرسانا يستوقفونهم ويتهمونهم بسرقة صواع الملك،

قالوا لهم إن الملك قد وضع جائزة لمن يجده، فأنكر إخوة يوسف هذا الإتهام:

«قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ»

وما إن قالوا ذلك أبصروا يوسف آتيا على صهوة جواده ومن حوله الحراس، نزل يوسف من على الجواد وسألهم عن عقوبة السارق عندهم فقالوا له: «نحن على ملة إبراهيم، وفي شريعتنا من يسرق يصير عبدًا لمن سرقه.»

أشار يوسف إلى الحرس فبدأوا بتفتيش أوعية أخوة يوسف حتى لم يتبق إلا رحال بنيامين قال: «ما أظن هذا أخذ شيئا...»

قال لاوى: «والله لا نتركك حتى تنظر في رحله، فذلك أطيب لنفسك وأنفسنا...»

اقترب الحراس من متاع بنيامين وفتشوه، فوجدوا الصواع فيه، فلما استخرجوه نكس إخوة يوسف رؤوسهم من الخجل وأقبلوا على بنيامين قائلين له:

maktabbah.blogspot.com

«فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل، لا يزال منكم بلاء إذ أخذت هذا الصواع...»

قال لهم بنيامين حانقا «بل بنو راحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء، ذهبتم بأخي إلى البرية فأهلكتموه، إن الذي وضع الصواع في رحلي هو الذي وضع الدراهم في رحالكم....»

جذب أحد الحراس بنيامين تجاه يوسف، وأحس يهوذا بأن موثقه مع أبيه سينقض لتوه، قال ليوسف: «يا أيها العزيز إن أباه شيخ كبير سيحزن كثيرا على فراقه، فخذ أحدنا مكانه...»

«قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ»

انفض الإخوة من حول يوسف بعد أن يئسوا من إقناعه بإعطائهم بنيامين، وما إن دخل يوسف إلى أبواب قصره ومعه بنيامين فتح ذراعيه له فألقى بنيامين بنفسه بين ذراعي يوسف وصار ينتحب كالأطفال، حتى ابتل كتف يوسف من دموع أخيه، هكذا جمع الله يوسف وبنيامين على أرض مصر، قال له يوسف في حنان:

«لقد سرت لتوك يا بنيامين في الطريق المقدس إلى الأرض المقدسة التي بارك الله فيها بالتين والزيتون وطور سينين، سرت في طريق أجدادك الموحدين المسلمين ومشيت على قدم جدك الكبير أبو الأنبياء، جئت إلى مصر، وهكذا مسار الأنبياء، فطوبى لك ونعم الارتحال رحيلك إلى مصر...»

واصل يوسف قائلا له: «سيكون سبطك مثلك يا أخي على ملة أبينا إبراهيم، هو سمانا

المسلمين من قبل، سيفترون عليك ويحاولون إبادة سبطك، وسيبقى جسدك في مصر وستبقى روحك حارسًا أمينًا من حراس أرض مصر.»

مِصرَ أَطيَبَ الأَرَضِينَ تُرَابًا وَعَجَمُهَا أَكرَمُ العَجَم، فَإِنَّ لَهُم ذِمَةً وَرَحِمًا.

«حديث نبوي شريف»

رمضان 2023

حارة حيضان الموصلي

فى احتفال شعبي كبير تم إعادة فتح مقام بنيامين

سُلِمَت المخطوطات للدولة المصرية، وأؤتمن عليها في المتحف المصري الكبير

تذييل

«وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا»

كان لابد أن أكتب تذييلًا لهذه الرواية، وقد اهتديت لكتابة هذا التذييل بإيحاء من الأستاذ عبدالحميد جودة السحار في تذييله لرواية سيدنا إبراهيم أبي الأنبياء، إذ رأيت أنه من الواجب توضيح بعض الحقائق للقارئ الكريم...

فى بداية كتابتي لهذا العمل، وعند تحقيق الأحداث التاريخية، وجدت أن كثيرًا من الأحداث التاريخية قد تم نسخها لتكون في صورة أخرى غير ما كانت عليه في الحقيقة، فكان عليّ أن أتمعن أكثر في صحة الوقائع التاريخية، وعلى سبيل المثال لا الحصر واقعة قول سيدنا إبراهيم عن السيدة سارة إنها أخته لينال من ملك مصر خيرًا، وهي واقعة مذكورة في الإصحاح 12، وقد وجدت كما وجد الكثير من الباحثين منهم الأستاذ رشدي البدراوي أن هذا أمر لا يليق بأبي الأنبياء سيدنا إبراهيم، فآثرت تبني رؤية الأستاذ عبدالحميد جودة السحار في هذا الأمر.. أيضا التحقق من أمر آزر والد سيدنا إبراهيم وإن كان هو أبوه أم عمه، لقد آثرت أيضا الاستعانة بالمراجع التي تبتعد قدر الإمكان عن التحريف والقصص غير الحقيقية خاصة فيما

يتعلق بالأنبياء، وذلك لإحساسي بالمسئولية الملقاة على عاتقي بالنقل الأمين لتاريخ الرسل والأنبياء وتحري الدقة.

أيضا أردت الإشارة، لتحري الأمانة مع القارىء، إلى أن فحوى المخطوطات الموجودة في الرواية هي من محض خيال الكاتب، إلا من بعض المواضع التي استقيتها من مخطوطة أشعياء التي وجدت في كهوف قمران.

وأختم هذا التذييل القصير بقول الشيخ محمد رياض المسلمي للباحثين في التاريخ في مختلف المجالات وكاتبي الروايات، وقد اجتهدت في تطبيق هذه المقولة على ما كتبت، وأسأل الله أن أكون قد وفقت في هذا..

قال الشيخ محمد رياض:

«أيها القريبون والدارسون للمخطوطات والوثائق اعرضوها على القرآن وسنة رسول الله قبل أن تتخذوها شريعة وشرعة ومنهاجا... واعلم أنه من ينسخ في النقل ويغير الحقائق يعاقبه الله بالمسخ، ومن يقل «كلّ من عند الله» يمسح الله ذنوبه ويجتبيه فيصبح

مجتبى...»

نسأل الله التوفيق لكل الباحثين والدارسين والكُتّاب وأن يوفقنا جميعا لكتابة ما يُرضيه...

نقش موجود على جدار مقبرة أحد أمراء بني حسن يمثل وفداً أسيوياً قدم لزيارة مصر

رسم توضيحي للوفد الأسيوي لمصر، المعتقد أنه كان وفد سيدنا إبراهيم

المراجع والمصادر

-القرآن الكريم

-تفسير القرآن- البحر المديد للإمام أبي العباس ابن أحمد المهدي ابن عجيبة

-قصص الأنبياء والتاريخ - الأستاذ رشدي البدراوي

-بدائع الزهور في وقائع الدهور

-تاريخ الأمم والملوك - تاريخ الطبري

-إبراهيم أبو الأنبياء - عبدالحميد جودة السحار

-نبوءة أحمد في أشعياء - عبدالله بن عيسى آل عبدالجبار

-البداية والنهاية لابن كثير

-أنبياء الله - أحمد بهجت

شكرٌ موصول

إلى السيد الشريف

الشيخ / محمد رياض المسلّمي

لما بذله من جُهد وعطاء في التدقيق الظاهري والباطني للإحداثيات الزمانية والمكانية لهذا العمل الروائي.

تمت المراجعة الدينية بواسطة

الدكتور أحمد طه دكتور التفسير وعلوم القرآن

مفتش القرآن الكريم والقراءات بدار الخضري

مدير عام دار مفتشي القرآن سابقًا

٢٧٠٦٠٦٥٦٩٨